زهرة الآس في فضائل العباس



أبحاث مهداة إلى عميد الأدب المغربي

الدكتور عباس الجراري

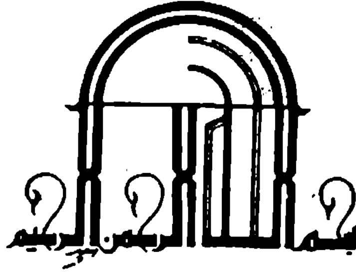
في عيد ميلاده الستين

(1937 - 1997)

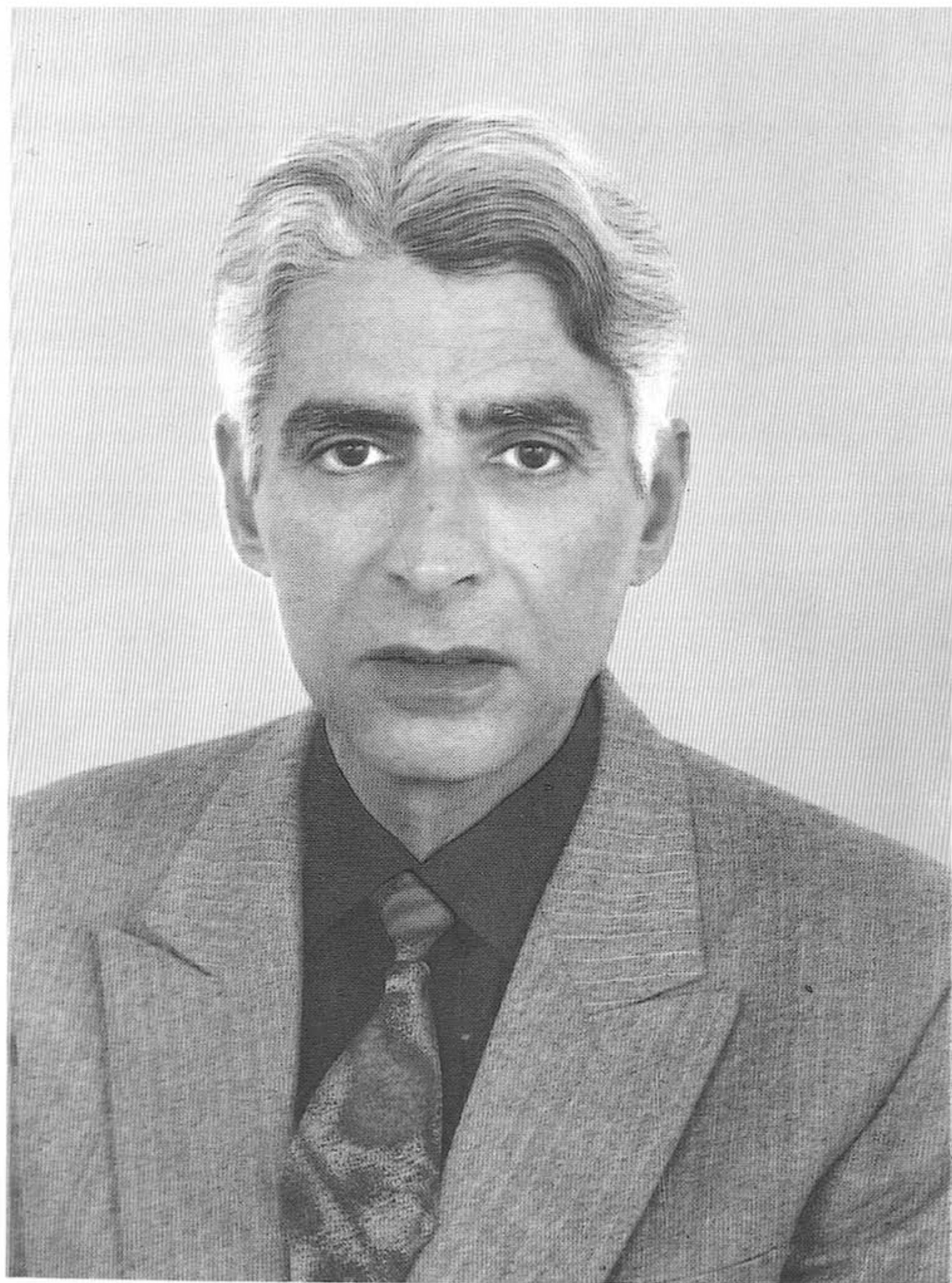
الجزء الأول

مطبعة دار المناهل (07)77.15.28)
يناير 1997

زهرة الآس في فضائل العباس



عنوان الكتاب : زهرة الآس في فضائل العباس
الطبعة الأولى : 1417هـ ـ 1997م.
الإيداع القانوني : 1997-52 .
ردمك : 6-14-832-9981 (المجموعة).
ردمك : 4-15-832-9981 (الجزء الأول).
المطبعة : دار المناهل (وزارة الشؤون الثقافية).



الدكتور عباس الجراري، عميد الأدب المغربي

اللجنة المشرفة على إعداد هذا الكتاب وطبعه وتصحيحه

- الأستاذ محمد احميدة
- الأستاذ مصطفى الجوهري
- الأستاذ عبد المجيد عينيه
- الأستاذ محمد الظريف

الدكتور عباس الجراري

- ولد بالرباط في 15 فبراير 1937.
- متزوج وله ثلاثة أطفال
- حاصل على الشهادات الآتية : البكالوريا (1957)، الإجازة في اللغة العربية وآدابها (1961)، الماجستير في الأدب العربي (1965)، دكتوراه الدولة في الآداب(1969) من جامعة القاهرة.
- عمل في السلك الدبلوماسي من 1962 إلى 1966.
- التحق بهيئة التدريس في الجامعة المغربية ـ أكتوبر 1966 (بفاس ثم الرباط)
- انتخب رئيسا لشعبة اللغة العربية بعد تأسيسها في كلية الآداب بالرباط عام 1973.
- عين عميدا لكلية الآداب بمراكش 1980.
- عين مديرا للدراسات الجامعية العليا لتكوين أطر التدريس بالجامعة (شعبة اللغة العربية) عند تأسيسها 1982.
- انتخب عضوا في اللجنة الإدارية للنقابة الوطنية للتعليم العالي ثم عضوا في مكتبها التنفيذي من 1969 إلى 1973.
- حاليا أستاذ التعليم العالي.
- درس المواد الآتية : الأدب العربي والإسلامي، الأدب المغربي، الترجمة، المناهج.
- يدرس حاليا في السلك الثالث ويؤطر الباحثين في الأدب المغربي.
- يشرف على إنجاز عدد كبير من رسائل الدبلوم وأطاريح الدكتوراه (قدم منها للمناقشة حتى صيف 1994 : 65 رسالة و21 أطروحة).
- أستاذ منذ 1980 بالمدرسة المولوية حيث درس ويدرس أصحاب السمو الأمراء والأميرات.
- أستاذ زائر في عدة جامعات أجنبية.
- عضو مجلس إدارة جامعة الأخوين بإيفران.
- رئيس المجلس العلمي لولاية الرباط وسلا والأقاليم المجاورة.
- عضو أكاديمية المملكة المغربية.
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ مؤسسة آل البيت (المملكة الأردنية).
- عضو مجمع اللغة العربية بدمشق (سوريا)
- عضو ممثل لأكاديمية المملكة في اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية.
- عضو مركز البحوث الانتروبولوجية ذات الأولوية في الشرق الأوسط (الاسكندرية–مصر).
- عضو لجان فحص البحوث المقدمة لترقية الأساتذة في عدة جامعات عربية.
- عضو جمعية المؤرخين المغاربة.
- رئيس شرفي لجمعية البحث في أدب الغرب الإسلامي (المؤسسة عام 1992).
- نائب رئيس جمعية رباط الفتح منذ تأسيسها عام 1986.
- رئيس أو عضو شرفي في عدة جمعيات لطرب الملحون والموسيقى الأندلسية.
- انتخب أمينا لاتحاد كتاب المغرب عام 1970.
- عضو الرابطة العربية لباحثي التراث الشعبي.
- له حضور ثقافي متنوع في المغرب والخارج (رئيس لجنة التعريف بالثقافة المغربية في الداخل والخارج لدا تأسيس اللجنة الوطنية للثقافة عام 1981).
- شارك في لقاآت التقريب بين المذاهب الإسلامية.
- شارك في لقاآت الحوار الإسلامي المسيحي.
- شارك أكثر من مرة في الدروس الحسنية التي تلقى بحضرة جلالة الملك في شهر رمضان (1975-1982-1985-1986-1989-1990-1995-1996).
- خطيب بمسجد للا سكينة ابتداء من 1989.

• حاصل على وسام الاستحقاق من مصر (1965)، ووسام العرش من درجة فارس (1980) ومن درجة ضابط (1994)، ووسام المؤرخ العربي (1987)، وميدالية أكاديمية المملكة المغربية (1990)، وجائزة الاستحقاق الكبرى (1992) ووسام الكفاءة الوطنية من درجة قايد (1996).
• نشر الكثير من البحوث والمقالات في صحف ومجلات مغربية وعربية وأجنبية.
• أصدر في مجالات تخصصه واهتماماته :

في الأدب المغربي :

1- موشحات مغربية (طبعتان : 1973-1992)
2- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي (طبعتان : 1974-1984)
3- النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912 (طبعتان 1975-1978)
4- قضية فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان (1975)
5- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (1976)
6- ثقافة الصحراء (1978)
7- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه (ج 1 ثلاث طبعات 1979-1982-1986)
8- عبقرية اليوسي (1981)
9- العالم المجاهد عبد الله الجراري (1985)
10- معركة وادي المخازن في الأدب المغربي (طبعتان 1985-1988)
11- معالم مغربية (1991)
12- خطاب المنهج (1990 و1995)
13- مع المعاصرين ج 1 (الرباط 1995)

في التراث الشعبي :

14- القصيدة : الزجل في المغرب (1970)
15- من وحي التراث (1971)
16- معجم مصطلحات الملحون الفنية (1978)
17- في الإبداع الشعبي (1988)

في الأدب العربي الإسلامي :

18- من أدب الدعوة الإسلامية (طبعتان : 1974-1981)
19- في الشعر السياسي (طبعتان 1974-1982)
20- صفحات دراسية من القديم والحديث (1976)

في الدراسات الأندلسية :

21- فنية التعبير في شعر ابن زيدون (1977)
22- أثر الأندلس على أوربا في مجال النغم والإيقاع (1982)
23- صبابة أندلسية (الرباط 1995)

في الثقافة :

24- الحرية والأدب (1971)
25- الثقافة في معركة التغيير (1972)
26- الفكر والوحدة (1984)
27- الثقافة من الهوية إلى الحوار (1993)

في الفكر الإسلامي :

28- الفكر الإسلامي والاختيار الصعب (1979)
29- بحوث مغربية في الفكر الإسلامي (1988)
30- مفهوم التعايش في الإسلام (1996)
31- المسؤولية في الإسلام (1996)

* * *

تقديم

محمد احميدة

لا يخامرنا شك أن كل باحث في أدبنا المغربي، يشعر اليوم باعتزاز كبير، ونحن نحتفي بأستاذنا الجليل عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، في ذكرى عيد ميلاده الستين، بل يحق لكل مثقف مغربي أن يفخر بواحد من كبار مفكريه وعلمائه الذين أنجبهم هذا الوطن في مرحلته المعاصرة.

وحينما نكرّم أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري، فإننا نكرّم من خلاله قيما فكرية وأخلاقية أصيلة، هي في عمقها جوهر هويتنا الوطنية في بعدها العربي الإسلامي.

ولما خامرتنا فكرة إنجاز أبحاث علمية مهداة إلى أستاذنا بمناسبة ذكرى ميلاده الستين- مد الله في عمره- كنا نرغب في رد بعض الجميل والاعتراف للرجل بما بذله من تضحيات، وقدمه من جهود في سبيل إقامة صرح ثقافتنا المغربية، يوم شق طريق البحث العلمي الجاد، في مسالك وعرة وأرض بكر، واستطاع بإيمانه القوي ووطنيته الراسخة، أن يؤسس مدرسة للبحث الأكاديمي في أدبنا المغربي، قديمه وحديثه، المدرسي منه والشعبي، وغدا اسم الدكتور عباس الجراري اليوم لصيقا بحقل الدراسات الأدبية المغربية، لا يذكر أحدهما إلا مقرونا بالثاني.

والحق أن المجال هنا لا يسمح بسرد ما قدمه أستاذنا الجليل من إسهامات قيمة رائدة، وأبحاث بكر في حقل الدراسات المغربية، وما فتقه من مجالات

كانت غميسة مجهولة أو كالمجهولة، فذاك أمر أصبح معروفا لدى الباحثين والمهتمين بالثقافة المغربية، داخل المغرب وخارجه.

واليوم ارتأى طلاب المدرسة الجرارية، أن يحتفلوا بعميد أدبنا المغربي، أن يحتفلوا به ومعه في ذكرى عيد ميلاده الستين - مد الله في عمره - فاختاروا تقديم هذه المجموعة من الأبحاث، مهداة إلى أستاذهم الجليل، اعترافا بالجهود العلمية الرائدة للعميد، وترسيخا لاختيار علمي، وتأكيدا للتمسك باتجاه في البحث، أصيل رصين، مشبع بالروح الوطني العميق.

وكان بالإمكان أن يتشكل هذا الكتاب من أبحاث ينجزها العديد من الدارسين والأساتذة، الذين اتخذوا من مجال الدراسات المغربية، همّا علميا أساسيا، ومنهم زملاء لأستاذنا الكبير تربطهم بالعميد أكثر من وشيجة. بيد أن طبيعة هذا الاحتفاء، كما ارتضته اللجنة المشرفة على هذا العمل، اقتضت أن تقصر المشاركة على تلامذة الدكتور عباس الجراري، - وهم اليوم أساتذة في مختلف الجامعات المغربية - بل صعب على هذه اللجنة أن تكاتب كل طلابه، ولو فعلت لتطلب الأمر زمنا أطول لإعداد الكتاب، وأربت أسفاره على الثلاثة بكثير. فكان أن اقتصرنا على بعض هؤلاء ممن تيسر الاتصال بهم، وساعدت ظروفهم على الالتزام بالوقت المحدد لانجاز هذا العمل، معتذرين للذين لم يسعف الحال في الاتصال بهم، آملين أن تكون مشاركة زملائهم حاملة لنفس المشاعر ومعبرة عن الرغبة المتوخاة من هذا الاحتفاء، يشفع لنا في هذا التحديد أن الجامعات المغربية برمتها قد جسدت حضورها في هذا التكريم، إلى جانب مختلف المؤسسات التعليمية التي يعمل بها تلامذة الدكتور عباس الجراري، سواء على مستوى مؤسسات تكوين الأطر أم مؤسسات التعليم الثانوي، الذي يضم بين العاملين فيه العديد من الباحثين المتميزين الحاصلين على شهادات جامعية عليا في تخصصات مختلفة.

وتمثل أسماء الأساتذة المشاركين في هذا الكتاب، الجامعات والمؤسسات التعليمية التالية :

1) جامعة القرويين- فاس، (كلية اللغة العربية).

2) جامعة محمد الخامس- الرباط، (كلية الآداب).

3) جامعة الحسن الثاني- الدار البيضاء، (كلية الآداب- ابن مسيك والمحمدية).

4) جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس، (كلية الآداب).

5) جامعة محمد الأول- وجدة، (كلية الآداب).

6) جامعة القاضي عياض- مراكش، (كلية الآداب).

7) جامعة المولى اسماعيل- مكناس، (كلية الآداب).

8) جامعة عبد المالك السعدي- تطوان، (كلية الآداب).

9) جامعة شعيب الدكالي- الجديدة، (كلية الآداب).

10) جامعة ابن طفيل- القنيطرة، (كلية الآداب).

11) جامعة ابن زهر- أكادير، (كلية الآداب).

12) جامعة الفاتح- طرابلس- الجماهيرية العربية الليبية.، (كلية اللغات).

13) المدرسة العليا للأساتذة- الرباط.

14) المركز التربوي الجهوي- الرباط.

15) مركز تكوين مفتشي التعليم- الرباط.

16) بعض مؤسسات التعليم الثانوي، (الرباط- المحمدية).

وسيلحظ القارئ أن طلبة الدكتور عباس الجراري ليسوا محصورين في الجامعات والمؤسسات التعليمية المغربية، بل يمتد فضل أستاذنا إلى خارج حدود الوطن من خلال الإشراف على رسائل وأطاريح جامعية لطلبة من بلدان عربية أخرى، يقدم هذا الكتاب نموذجا لهم من جامعة الفاتح بالجماهيرية العربية الليبية.

تنقسم الأبحاث التي يضمها هذا الكتاب إلى قسمين : الأول خصص للدراسات التي انصبت على شخصية العميد وفكره، باحثة في منهجه العلمي أو متناولة لبعض انتاجه تفكيكا وتحليلا، والتفت بعضها إلى المجالات التي شغلت الدكتور عباس الجراري في إطار مشروعه الفكري المتكامل، سواء من خلال القضايا والظواهر الأدبية والفكرية، أم من حيث الأسس التي قام عليها مشروعه العلمي.

فكان طبيعيا أن نجد في هذا القسم من يقف عند جهود عميد الأدب المغربي في دراسة الأدب الشعبي، وهو مجال يعرف المهتمون أن قدم أستاذنا راسخة فيه بجدارة، وريادته العلمية في هذا الحقل لا يجادل فيها، في حين انبرت دراسات أخر إلى إبراز الأسس المنهجية في الدرس الأدبي الجراري، وكشطت أخرى جوانب بعض التآليف التي أنجزها العميد عبر فترات زمنية مختلفة، وشكلت محطات أساسية في مسيرته العلمية. ولم تغفل أبحاث هذا القسم الالتفات إلى جانب له علاقة وطيدة بالنشاط العلمي للدكتور عباس الجراري، ويتعلق الأمر بناديه الأدبي، الذي يعتبر مظهرا لتنوع النشاط الثقافي للعميد، وامتدادا لتقاليد أدبية وسمت الأسرة الجرارية منذ أن أسس المرحوم العلامة عبد الله الجراري والد أستاذنا، هذا المنتدى الأدبي سنة 1930 ، فغدا منذ ذلك العهد إلى اليوم واجهة مشرقة في تاريخ ثقافتنا الوطنية الحديثة. وقد أشارت الدراسة التي اهتبلت بهذا الجانب، إلى التطور الذي عرفه النادي الجراري على امتداد نصف قرن ونيف، من حيث أنشطته وندواته وإصداراته وأعضاؤه. وكان ختم هذا القسم الأول من الكتاب تحيتين شاعريتين من أستاذين شاعرين، جاءت الأولى جامعة بين النثير والنظيم، وبلورة الثانية مشاعر صاحبها في قالب عمودي أصيل.

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فقد ضم مجموعة من الأبحاث لمست في مجملها مختلف الجوانب التي كانت مجال اهتمامات علمية لعميد الأدب المغربي، وهي اهتمامات متنوعة جالت في تاريخ الأدب العربي مشرقا ومغربا، في فتراته القديمة والحديثة والمعاصرة، وتناولت مختلف فنونه من شعر وقصة

ومسرح وغير ذلك، وكان بديهيا أن يحظى أدبنا المغربي بالحظ الأوفر من دراسات هذا القسم، ذلك أن الأستاذ المكرم كان مبرزا في هذه الحلبة، له القدح المعلى غير مدافع، وصاحب المبرم لا السحيل.

وتنوعت بحوث هذا الشق من الكتاب بين حديث عن علم من أعلام أدبنا، أو دراسة قضية من قضاياه أو ظاهرة من ظواهره، أو تقديم مخطوط من غميس نفائسه، دون أن تغفل الالتفات إلى تراثنا الأندلسي الذي كان للدكتور عباس الجراري صولات وجولات في تاريخه وقضاياه وفنونه. ورغم هذه الجهود التي بذلها الأساتذة المشاركون في هذا العمل العلمي، لتناول مختلف الجوانب المعرفية التي جال داخلها عميد الأدب المغربي، فقد ظل بعضها بعيدا عن التناول والبحث المعمق. والحق أنه تصعب الإحاطة بمختلف عطاءات شخصية في مثل غنى وثراء وتنوع شخصية عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، وهو عطاء يمتد عبر فترة زمنية نيّفت على الأبعين عاما، ولا تتسع له أسفار معدودة، حددت المناسبة زمانها وحجمها، وكيف نقبض بالأنامل على ماء هذا البحر الوافر الكامل !

وما كل هاوٍ للجميل بفاعلٍ ولا كلّ فعّال له بمتمم

وينبغي أن نشير في هذه المقدمة إلى أن ترتيب مواد الكتاب في قسميه، قد سار بتدرج ألفبائي لأسماء المشاركين، معتمداً الإسم العائلي أولا ثم الإسم الشخصي ثانيا.

ولعلنا نكون بهذا العمل، قد أدينا بعض ما علينا تجاه أستاذنا الجليل عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، وهو شيء ضئيل أمام ما قدمه من تضحيات جسام. ويكفيه فخرا أنه أسرج لأجيال متلاحقة من الباحثين، طريقا أصبح بفضل جهوده لاحبا، وأنبت جناحنا وكان قد حُصّ، وكان أدبنا «الأقصى» فغدا قطوفا دانية، بحدبه وإيمانه العميق وتشبثه القوي بتراثنا الأصيل وهويتنا الأثيلة.

وعسى أن تكون هذه الثلة من الأساتذة الباحثين، قد نابت عن البقية من تلامذة المدرسة الجرارية، الذين لم تتح لهم فرصة المشاركة في هذه المناسبة، شاكرين لإخوانهم الأساتذة، الذين شكلت أبحاثهم هذا الكتاب، مشاركتهم العلمية في الوقت المحدد لذلك.

ولا يفوتني في هذا السياق أن أتقدم بخالص الشكر وموفور الثناء، إلى كل من أسهم في تذليل الصعاب، كي يخرج هذا الكتاب في الشكل الذي نضعه بين يدي القارئ، وأخص بالذكر الأساتذة مصطفى الجوهري، عبد المجيد عينية، محمد الظريف، ولوزارة الشؤون الثقافية نسوق الشكر ثانية على ما قدمته من تسهيلات لطبع الكتاب.

عميد الأدب المغربي، أستاذنا الجليل :

هذا بعض أتائك وما نحن بمجدِّفين، وقد رفعت للبحث في أدبنا المغربي قواعده، وعصبت كل جهدك ببابه، ونافحت عن هويتنا الثقافية وكافحت، فأنت بالحسنى فائز، وللرضا حائز، ولك من المعقِّبات ما يحفظك ويرعاك. وفي عيد ميلادك الستين، أمكن من راح البغُية الانتشاء!

«وبك يبدأ الذِّكر الجميل ويختم».

الرباط، 2 رمضان 1417 هـ

11 يناير 1997م

***

القسم الأول

الدكتور عباس الجراري :

* ملامح الشخصية.
* الفكر.
* المنهج.

الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه: مقاربة تحليلية لأسسه التربوية

محمد أحميد (*)

تكمن مسوغات اختيار موضوع «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه: مقاربة تحليلية لأسسه التربوية» في الأهمية البيداغوجية التي يحتلها هذا الكتاب بالنسبة لبقية المؤلفات الأكاديمية للدكتور عباس الجراري، حيث ارتبط تأليفه بمحاولة تعريف طلاب الجامعات ومختلف المؤسسات التربوية وعموم المثقفين بأدبنا الوطني الذي «مازال الغبار الكثيف يخفي الكثير من تراثنا المكتوب، ويتيح للأرضة التهامه»[1].

وبعد أن استطاع هذا الكتاب أن يزيح الغبار الكثيف عن تراثنا المغربي، وعرفت مادته انتشارا وذيوعا في رحاب مختلف الجامعات المغربية والعربية، ارتأت لجنة التأليف المدرسي بوزارة التربية الوطنية اعتباره مؤلفا مدرسيا أساسيا في مادة دراسة المؤلفات الخاصة بالسنة الثالثة الأدبية في سنوات الثمانين، فأدى نتيجة لذلك خدمة وطنية جليلة لأدبنا المغربي، حيث عرف تلاميذ المرحلة الثانوية بمختلف ظواهره وقضاياه.

(*) أستاذ باحث في الأدب المغربي وعلوم التربية.

وهناك مسوغ آخر يعود إلى ما لاحظته من كثرة المقاربات الأدبية لآثار الدكتور عباس الجراري، وندرة المقاربات التربوية لإنتاج مرب جليل مارس التأطير والتكوين لعدة أجيال سواء عن طريق كتابه « الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» المقرر في المرحلة الثانوية، أو بواسطة التدريس والتأطير في رحاب الجامعة وغيرها من مراكز الإشعاع الثقافي والتربوي ببلادنا.

نتيجة لهذه الأسباب وغيرها سأحاول مقاربة هذا الموضوع بأداة تربوية لها صلابتها العلمية، وهي تقنية تحليل المحتوى باعتبارها شبكة تواصلية تتأسس من خلال اتجاهات ستة، إذ «مهما كانت مادة الإتصال، فإنها تحلل إلى مرسل يرسل أو يوجه أو يؤلف خطابا يضمنه رسالة لها مضمون معين، وهذا المضمون يتخذ شكلا معينا، وهذه الرسالة تحمل إعلاما، وتسعى لبلوغ هدف، فهي موجهة إلى شخص أو عدة أشخاص (مستقبل)[2] وهذه العناصر الستة يمكن حصرها في الأسئلة التالية:

1- من المتحدث أو المتكلم؟

2- يقول ماذا؟

3- كيف؟

4- لمن؟

5- لأي هدف؟

6- لبلوغ أية نتيجة؟

ومن ثم فإن قراءتنا التربوية لكتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» ستنحو هذا المنحى.

1- **من المرسل؟** تعتمد تقنية تحليل المحتوى سؤال (من المرسل؟) لتجلية صورة المرسل وتفهم طباعه النفسية واتجاهاته الثقافية وامتداداتها الاجتماعية، ومن ثم يغدو طرح هذا السؤال في هذا الموقع من التحليل، أمرا مفيدا لمقاربة الأسس التربوية التي يرتكز عليها كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه».

وإذا تأملنا غلاف الكتاب، فلا نكاد نعثر سوى على تعريف موجز ومختصر بصاحبه، فهو «(عباس الجراري: دكتور دولة في الآداب، أستاذ التعليم العالي، (كرسي الأدب المغربي) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس الرباط)»[3].

وهذا التعريف لا يقدم لنا بأمانة المكانة العلمية المرموقة لصاحب الكتاب باعتباره عميدا للأدب العربي بالمغرب، وله عدة بحوث ودراسات قيمة أذكر منها:

1- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي.

2- القصيدة (الزجل في المغرب).

3- موشحات مغربية: دراسة ونصوص.

4- النضال في الشعر العربي بالمغرب (من 1830 إلى 1912).

5- قضية فلسطين في الشعر المغربي (إلى حرب رمضان).

6- ثقافة الصحراء.

7- وحدة المغرب المذهبية عبر التاريخ.

8- عبقرية اليوسي.

9- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه.

10- من أدب الدعوة الإسلامية.

11- في الشعر السياسي.

12- فنية التعبير في شعر ابن زيدون.

13- أثر الأندلس على أوربا في مجال النظم والإيقاع.

14- خطاب المنهج.

وهذه النذرة المتعلقة بالتعريف بالمرسل فرضت علينا اللجوء في تحليلنا إلى معارفنا الخاصة وإلى اتجاهاته الفكرية والنقدية وتصوراته المنهجية لكيفية التعريف بالأدب المغربي ودراسته في إطار «الإقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة. وأؤكد أنني حين أقول الإقليمية وتأثير البيئة في الأديب لا أنسى الشخصية الذاتية والموهبة الفردية، ولا أعني تضييق الأفق والانحصار في إطار المحلية، ولكني أعتبرها الوسيلة كذلك للعالمية والإنسانية، بل إني أرى أنه كلما قسم نطاق الإقليم في الدراسة إلى بيئات صغيرة، كانت دارسة الإقليم مكتملة ومستوفاة، وهذا ما يجعلني أحبذ الأبحاث والتواريخ التي ألفت وتؤلف – ولو بطريقة قديمة – عن مدن مراكش وسوس وتطوان والرباط وفاس، فإنه من مجموع هذه الكتابات يمكن تهيء المادة التي تساعد على استخراج الصورة الحقيقية للمغرب، سواء في تاريخه السياسي أو الفكري»[4].

فالأستاذ عباس الجراري يرى بأن الإنسان المغربي في عصرنا الحالي إنسان استرداد الهوية قبل كل شيء. فقد تكون هوية المجتمع العربي أو الإنساني ككل، والمتضمنة لهوية المغاربة الخاصة، وقد تكون العملية عكسية من الهوية الذاتية (الإقليمية) بكيفية تصاعدية وتجمعية إلى البناء القومي فالإنساني. وهذا الحد الثاني هو الذي يلح عليه الأستاذ عباس الجراري، إذ يرى أن هذه الإستقلالية كافية لدراسة نقدية وأدبية معمقة، مادامت الدراسة المعمقة غير موجودة، ولهذا يتطلب الأمر القيام بمثل هذه المبادارات الأولية ذات الطابع الإقليمي بالضرورة.

والأستاذ عباس الجراري هنا يلتقي مع الدكتور أنوار عبد المالك وغيره في الاهتمام بمثل هذه الخصوصيات الوطنية إذ (أن أطروحة الخصوصية الوطنية بشكل عام، تلك التي ثابرنا على إعدادها منذ عام 1956، وعلى الأخص ظاهرة مصر ترافقها هنا ظاهرة المغرب، هي الآن موضع اعتراف الجميع، في حين كان يقال بالأمس أنها صنيع فئة صغيرة من المفكرين المتشبثين بأقليميتهم..)(5).

والأستاذ سعيد علوش (... قد ينعتنا البعض بالإقليمية الضيقة، وبأن العالمية تقتضي احتضان كل التجارب الإنسانية، غير أننا نعترض أن تكون التجارب الإنسانية ساقطة في التجريبية والتوفيقية والتبعية... وإذا كان لكل عشب من أرض، وكل أرض من عشب، فإن على كل ما يظهر على سطح الحركة الثقافية المغربية أن يأخذ لون هذه الأرض، وتلك ضرورة قصوى لكل تجربة إبداعية تتوخى المعاصرة أو الأصالة...)(6).

والأستاذ الجراري يدعو ويؤيد الداعين إلى الإقليمية (التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة)(7).

ولكنه لا يريد أن يشار إليه باتهام (الإقليميين) الذين يؤثرون التجزئة العربية على الوحدة، ذلك أن (الأقليمية الوسيلة الوحيدة للم شتات الفكر والأدب في كل الوطن العربي والوسيلة كذلك للعالمية..)(8) ويؤكد على أن الإسهام في الفكر العربي والإنساني هو في عمقه إسهام إقليمي، لكي تتم بعد ذلك عملية الإدماج القومية والعالمية، أي عملية دمج وإغناء للحضارة الإنسانية وتوسيع مجالات وأعماق صيرورة الإنسان.

إنه لا خلاف حول ضرورة الدراسة الإقليمية لكل أدب، فلكل أدب طابعه المحلي والقضية ليست في إقليمية أدبنا، بل في نوعية هذه الإقليمية وفي منهج معرفتنا؟ يشير الأستاذ الجراري إلى ثلاث مستويات لإطار الدراسة الأدبية:

المستوى الأول: يعني به التركيب الداخلي لتصور الأدب. ويهدف إلى تحديد النمط المتميز لاستمرارية أدبنا بكل تجلياته وصوره المختلفة (أولها ويتجلى في النظر إلى الأدب من خلال نوعيه المدرسي والشعبي)[9].

المستوى الثاني: هو تحديد شامل لمفهوم الإنتاج الفكري وفي إطاره الجغرافي والإقليمي وذلك (باعتبار مفهومه شاملا لكل الإنتاج الفكري لأمتنا دون حصره في نطاق الشعر والنثر الفني كما يحدده الإصطلاح المدرسي الضيق لمدلول الأدب)[10].

أما المستوى الثالث: فهو مستوى التطور الذي عرفه هذا الأدب من أجل تحقيق خصوصيته التاريخية، ومنزعه الإقليمي، منطلقا في ذلك من انتقاء قضايا معينة للدراسة، لذا يلزم (تناوله سواء في قديمه أوحديثه عن طريق طرح ظواهره وقضاياه[11] حتى لا يطغى العنصر التاريخي على تحليلنا فنصبح أسيري علم التاريخ بكل ما يشوبه من نقائص وانعدام الوثائق...

2– **ليقول ماذا؟**حرص المؤلف على تقديم الكتاب بوصفه عملا أكاديميا يتأسس على تصور بيداغوجي معين بدليل تحديده أهداف تأليفه لهذا الكتاب في «أنها تطرح منهجا لدراسة أدبنا، وأنها تتيح للقراء عامة، والجامعيين منهم خاصة، فرصة التعرف إلى هذا الأدب، وأنها تفتح للباحثين بعض الآفاق الجديدة، ولاسيما منهم طلابنا الذين ينجزون في نطاق الدراسات العليا أبحاثا تبعث على أمل كبير بالمستوى الذي تطمح إلى إدراكه، وبما تنم عنه من صبر ووعي»[12].

ولتحقيق هذه الأهداف جاءت قضايا وظواهر هذا الكتاب موزعة وفق مايلي:

- مقدمة.
- وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي.
- نشأة الأدب العربي في المغرب (ظروفها ومظاهرها).
- التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب.
- قضية المعتمد بن عباد.
- المولد النبوي في الأدب المغربي.
- بوادر التجديد عند شعراء المغرب العربي.
- الشعر المغربي في مرحلة النهضة.
- المسرح عند العرب والمغاربة.

فهذه المحاور تقوم على معيارين أساسيين هما:

المعيار التاريخي: الذي يبرز واضحا في حديث المؤلف عن «وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي»، و«نشأة الأدب العربي في المغرب»، ثم يخفت حضوره في بقية الفصول دون أن يغيب تاركا الباب مفتوحا أمام عدة مقاربات نقدية بشرط أن «تعطى الأسبقية للتمثل العقلي على النقد التأثري، أي بنظرة فكرية عقلانية، وليس إلى مجرد التذوق الفني النابع من الإحساس الجمالي والتأثر العاطفي والانفعال الانطباعي بالأثر المدروس»[13].

المعيار الجغرافي: حيث تحتل القضايا المغربية 100٪ من مجموع القضايا والظواهر التي يعالجها الكتاب، وهذا الأمر يكشف عن التزام الكاتب بما ورد في عنوان مقدمة الكتاب من التأكيد على مغربية القضايا المعالجة في إطار إقليمي

متفتح على البعدين القومي والعالمي. ودليلنا على ذلك معالجته لبوادر التجديد عند شعراء المغرب العربي، والمسرح عند العرب والمغاربة.

وإن أهم سمة تربوية تميز هذا الكتاب هو إتيان صاحبه بعدة معارف تاريخية ونقدية جديدة إلى جانب قدرته الواضحة على ممارسة الفعل التقويمي الذي عرفه Renald-le Gendre بأنه «حكم كيفي أو كمي على شخص أو شيء أو سيرورة أو حالة أو وضعية، وذلك بمقارنة الخصائص القابلة للملاحظة مع قواعد معروفة، انطلاقا من معايير معلنة، وذلك من أجل إعطاء معطيات صالحة لاتخاذ القرارات»(14).

ويتجلى هذا البعد التقويمي لكتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» في تصويب صاحبه لزلل عدة آراء أدبية، وتقديم بدائل لها مدعمة بحجج وأدلة نقلية مستمدة من كتب التاريخ العام والخاص، والجغرافية والفقه والأدب ودواوين الشعر، وأخرى عقلية قائمة على براهين المنطق العلمي في بعديه الاسقرائي والاستنباطي، ولنتأمل ذلك في تقويم الدكتور عباس الجراري آراء من يقولون بوجود أدب في المغرب لأول عهده بالإسلام انطلاقا من خطبة طارق بن زياد التي ألقاها في الجيش المتوجه لفتح الأندلس، والتي انقسم الدارسون بشأنها بين منكر أو مثبت لوجودها، وقاد تقويم المؤلف آراء كل من الأستاذ عبد الله كنون والعلامة المرحوم عبد الله الجراري، والأمير شكيب أرسلان وعبد الله عنان والدكتور أحمد هيكل وغيرهم نحو إبداء رأيه الشخصي المحدد في «أن الخطبة ثابتة، وإن كان اختلاف النصوص يدعو إلى الشك في هذا الثبوت، ثم إني أرجح أنها ليست من إنشاء طارق، وإنما كتبت له ليلقيها في الجيش، وإنها في هذه

الحالة من إنشاء عربي من الفاتحين يتقن الكتابة، بل لعل مهمته كانت تقضي أن يكتب للجيش ولقائه، وليس هذا بغريب، فقد كان مألوفا أن تكتب للأمراء والوزراء خطبهم ورسائلهم، بل مازلنا اليوم نرى المسؤولين على مختلف طبقاتهم يكتب لهم حين يريدون أن يخطبوا أو يراسلوا، سواء منهم من يعرف اللغة أو يجعلها، (...)، على أننا ونحن نناقش صحة نسبة هذا الخطبة لطارق لا نرى مناصا من إدخال أصل صاحبها في الموضوع، وهو عنصر يحدد اتجاه تناولنا للخطبة، حيث أننا نبحثها ونهتم بها، على اعتبار أنها صادرة عن طارق، مفترضين أو مسلمين أنه مولى لموسى بن نصير وأنه من البربر الزناتيين أو النفزاويين، وإن كنا نرتاب فيما يقال من أن والد طارق وجده كانا مسلمين، كما يتضح من إسمه «طارق بن زياد بن عبد الله»؛ لأن ذلك لا يساير حوادث التاريخ التي تجعل الفاتح الأول للمغرب، وهو عقبة يصل عام 61-62 هجرية إلا إذا كنا نتفق على أن طارقا وأباه وجده كانوا جميعا على قيد الحياة في هذا الوقت، وأسلموا في فترة واحدة.

وقد يتخذ البحث اتجاها آخر، وربما يصبح غير ذي جدوى إذا نحن افترضنا أو سلمنا بأنه ليس مولى ولا بربريا، وإنما هو من صدف، أو إذا نحن افترضنا أو سلمنا بأنه مولى لموسى ولكن ليس بربريا، وإنما مولى له فارسيا من همدان»[15].

3- **كيف يقول؟**: يدفعنا سؤال الكيفية المرتبط بطريقة صياغة الملفوظ إلى اكتشاف «شكل البلاغ ذاته، وطبيعته في الوصول إلى المستقبل؛ وما هو السند الذي يعتمده لتحقيق هدفه المرسوم»[16]، لذا من الطبيعي أن نجد حضورا واضحا لعدة ملفوظات وعبارات تربوية في خطاب أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري الذي مارس الفعل التربوي لمدة تتجاوز ربع قرن، وشارك في عدة مناظرات وندوات

خاصة بالفعل البيداغوجي وسبل النهوض به، وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال الملفوظات والعبارات التربوية التالية:

1- **ملفوظات وعبارات تربوية تأسيسية**: نقصد بهذه العبارات والملفوظات التربوية ما استند إليه المؤلف من أسس تربوية تفصح عن رغبته في تطوير نظرتنا لأدبنا المغربي وإقناع قارئ كتابه بوجهة نظره المرتكزة على المبادئ التربوية التالية:

1-1: مبدأ التدرج: إن هذا المبدأ لا يمكن إغفاله في مقاربة الأسس التربوية التي يقوم عليها كتاب (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه) لكن ينبغي النظر إليه من زاويتين:

1-1-1: **التدرج العام**: يتمثل في اعتبار كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» مجرد مؤلف واحد ضمن عدة مؤلفات سابقة ولاحقة، وأن المحتويات التي يقدمها هذا الكتاب لا يمكن النظر إليها بمعزل عن مجمل الآثار الفكرية والأدبية والتربوية لصاحبها.

1-1-2: **التدرج الخاص**: يتجسد في كيفية مقاربة الدكتور عباس الجراري لكل ظاهرة أو قضية من ظواهر وقضايا كتابه. والتي يمكن حصر خطواتها الإجرائية في المراحل التالية:

* ملاحظة الظاهرة أو القضية المدروسة.
* تحديد إشكالية وتساؤلات الدراسة.
* وضع فرضيات الدراسة باعتبارها أجوبة مؤقتة عن الموضوع.
* تمحيص صدق الفرضيات من خلال مختبر التاريخ العام والخاص ومختلف المصادر والمراجع التي لها علاقة ما بالموضوع.

* التصريح بنتائج الدراسة المستمدة من ربط الأسباب بالمسببات. والكشف عن البواعث الظاهرة والخفية للظاهرة المدروسة بعد رصد مختلف العلاقات القائمة بين مكوناتها.

ومما يؤكد الخطوات التي أوردناها سابقا قول المؤلف في التعريف بمنهج الدراسة الذي يقوم على «إثبات الوقائع وربطها بالأسباب، ووصف الظواهر وتعليلها والبحث عن بواعثها الخفية والظاهرة، والقريبة والبعيدة، واستخلاص العلاقات التفاعلية بينها وبين غيرها»[17]، وهذا القول قريب جدا من تعريف بوانكريه للقانون العلمي الذي يقوم على «رصد العلاقات الثابتة والضرورية بين الظواهر»[18].

1-1-3: **التدرج الأفقي والعمودي:** يتجلى التدرج الأفقي في مقاربة المؤلف الأفقية للظاهرة المدروسة، حين يتوجه نحو الكشف عن البنيات الداخلية للنصوص التي (تتضمن لغة لها بنية دلالية وتركيبية وإيقاعية معينة... وتستوعب مفاهيم محددة، وتعبر عن أحاسيس ومشاعر مضبوطة، وتقدم تصورات ملامح ينبغي الكشف عنها)[19] أما المقاربة العمودية فتبرز في دراسة المؤلف للظاهرة أو القضية المدروسة في حركيتها وديناميتها المتطورة وهدف المؤلف من هذه المزاوجة بين معطيات القراءة الأفقية والعمودية للنصوص، هو الوصول بالقارئ نحو مرحلة التركيب التي تقوم على ربط السابق باللاحق، ثم تقديم تأويله الشخصي المبرر في الظاهرة المدروسة، وهو تأويل لا يلغي القراءات الأخرى للنصوص بقدر ما يساهم في إخصابها بدليل قوله «ألفت النظر إلى أني حين أقول قراءة هذه النصوص، فإني افترض قراءة قد تختلف عن قراءة غيري من الدارسين، أي أنها لن تكون

قراءة واحدة أو موحدة، فقد أقرأ نصا ويقرأ زميلي نفس النص برؤية أخرى وبأدوات مختلفة، وينتهي إلى ما أصل إليه أو إلى غيره، ثم إن هذه القراءة قد تلتجيء أحيانا إلى التأويل، ولكن ينبغي أن نتفاهم حول مدلول التأويل بالنسبة لهذا النوع من النصوص، فهو عندي لا يعني طرح تصور أو افتراض معين ومحاولة فرضه بتعسف وافتعال على النص ولكن يعني التأويل الذي ينبثق من القراءة، أي من مغلقات النص، ومن الاجتهاد في فتحها بالفهم الذي يوافق السياق العام، والسبب أني أربط الأدب بل المعرفة كلها بمجال لا يقبل الثبوت والجمود»[20].

2-1: **مبدأ التعلم الذاتي:** إذا كان مبدأ « التعلم الذاتي» غاية تربوية تسعى كل منظومة تربوية جادة إلى تحقيقه، فإن حضوره في هذا الكتاب يبدو واضحا من خلال تركيزه على دعوة القارئ لتبني خطة عملية «للتعلم الذاتي» أو «تعلم التعلم»، بدل التعليم، والقراءة بدل الإقراء، أي أن صاحب الكتاب لم يكن يخاطب قراءه من منبر الأستاذية بقدر ما كان يشركهم في الرأي، ويحثهم على العودة لمصادر ومراجع معلوماته، وذلك في قوله و«الحق أنه إذا كان المغرب مر قبيل الإسلام بفترة غامضة فإنه في المراحل الأخرى سواء حين اتصل بالفينيقيين أو الرومان فتح لنفسه صحائف في التاريخ، وعرف كيف يضطلع بدوره الحضاري والثقافي، متأثرا بمن حوله، ومؤثرا كذلك، وليس مجرد مقلد أو تابع.

ولعلنا – بهذا العرض المحدود – أن نكون أبرزنا بعض ملامح هذا الدور، ولفتنا النظر إلى جوانب حية من تلك الصحائف، عسى الدارسون من شبابنا أن يغروا بالبحث والتنقيب، سواء في آثار العمران الباقية أو الوثائق المنقوشة أو المكتوبة، أو حتى في التراث الشعبي لما يضم من معالم هامة ودقيقة.

وفي اعتقادنا أن البحث سيظل مبتورا إذا هو لم يعتمد على نوعين من المصادر نراهما أساسين:

أحدهما: الآثار التي خلفتها هذه الفترات، وهي رومانية في الغالب، وتحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام، وكذلك الآثار البربرية التي لم تلفت إليها الأنظار بعد.

والثاني: المصادر اليونانية والرومانية اللاتينية المسيحية، وهي تطرح صعوبات في قراءتها، فضلا عما فيها من توجيه يجعلها لا تكشف عن واقع التاريخ المغربي»[21].

وإذا تأملنا هذه الألفاظ والعبارات التحفيزية على البحث والتنقيب ((عسى الدارسون من شبابنا أن يغروا بالبحث والتنقيب - تحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام - لم تلتفت إليه الأنظار بعد...)) فإن أهميتها التربوية تكمن في تحديداتها الدقيقة لمصادر وموضوعات البحث، وهي خطوة أساسية في كل تعلم ذاتي هادف وموجه.

وهكذا نلاحظ أن الملفوظات والعبارات التربوية التأسيسية قد حققت أهدافها المتجلية في كشف المؤلف عن مصادر ومراجع كتابه وإن اضطر أحيانا إلى اعتماد أسلوب التكرار، باعتباره وسيلة تأكيدية على أهمية بعض العبارات التأسيسية الشديدة الصلة بأهداف المؤلف ومحتوياته ومنهجيته وهو تكرار يتوخى توضيح بعض الآراء والتصورات للمتلقي، وهذه سمة تربوية سهلت عملية التواصل مع القارئ ورسخت لديه مجموعة من التصورات المعرفية والمنهجية.

2- **عبارات تحديدية:** تبرز في تلك الدقة والتحديد المقنن لدلالات بعض المفاهيم والمصطلحات الواردة في الكتاب بغية تجاوز كل تشويش اصطلاحي يحول دون إقناع المتلقي بوجهة نظر المؤلف ومن بين هذه العبارات التحديدية ما جاء في تحديده لمفهوم المسرحية، فهي «في جوهر مفهومها لا تعدو كونها قصة تحكيها شخصيات في حوار وحركة، والحركة أهم خصائصها وهي التي تميزها عن غيرها من الألوان الفنية، بل هي محور كل الخصائص الأخرى»[22].

4- **لمن؟:** إن هذا السؤال له أهميته من منطلق أنه يعرفنا بهوية الأجيال الناشئة المتلقية لهذا الكتاب، حيث يعمل المؤلف «على صياغة فكر جديد ينقل من خلاله الفكر القديم إلى الأجيال الناشئة بعد تغيير النظر إليه وإخضاعه لمقاييس النقد العلمي، حتى تتاح لهذه الأجيال أن تتعرف إلى تجارب الماضي وتدرك أسرار التطور، وحتى تتمكن عن طريق دراسته وطرح قضاياه للبحث والتحليل والنقد أن تنمي فكرها وشخصيتها وتربي فيها استقلال الرأي»[23].

فهذه الحاجات المعرفية والمنهجية لأجيال الناشئة هي التي حاول صاحب الكتاب تحقيقها لديهم من خلال نظرة علمية وموضوعية لأدبنا، حين خاطب الأجيال الناشئة كقارىء متمثل حامل لقواسم مشتركة مع بقية القراء يتجلى ذلك واضحا في رغبته في تعميق نظرتهم إلى الأدب المغربي وتقويم آراء بعض المشارقة والمستشرقين فيه، وهذا الاهتمام بالقضايا الكبرى التي تشغل بال القراء المفترضين للكتاب يكشف عن ميزة تربوية متأصلة في وجدان صاحب الكتاب الذي حاول باقتدار كبير تحقيق جملة من الأهداف المعرفية والوجدانية والمهارية بعيدا عن إرضاء الاختلافات الإجتماعية والإيديولوجية والنفسية التي نجدها بكثافة في الكتابات ذات النزعة التخصصية الضيقة.

5- **لاي هدف؟**: إذا تأملنا مقدمة كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» فإننا نجد صاحبها يصرح علانية بأنه يهدف من تأليف هذا الكتاب إلى أن (يحقق المنهج جملة أهداف، في طليعتها الكشف عن مواطن الجمال وعن الدلالات الفنية، وما ينبثق عنها من حرارة يحث تحسسها على إدراك ما يكتنف تلك الدلالات من مضامين فكرية، باعتبار الجانب الفني المتمحور حول اللغة وبنائها التركيبي ظاهرا يبطن فكرا، أو أنه بعد أولي تخفي أبعادا أخرى عميقة، وبذلك تبرز قيمة الإبداع، وتبرز من خلالها كل الشحنات الشعرية والطاقات الفكرية والمضامين الإنسانية، والأبعاد الصراعية سلبا وإيجابا)[24] وإلى جانب هذه الأهداف العامة توجد عدة أهداف تربوية ذاتية تتجلى في أنه من خلال «هذا كله يتحقق هدف ذاتي لا أخفيه، يتلخص في التجربة الفكرية النقدية التي أشعر بها من معاناة البحث، وما ينشأ عن التجاوب مع الموضوع من ردود فعل تعتمل في العقل والاحساس بتلقائية وإمتاع»[25].

فالأهداف العامة والخاصة للباحث لا تقف عند حدود الظاهرة المدروسة بقدر ما تتوخى توجيه السلوك القرائي للمتلقي بغية تصحيح معارفه وتعميق نظرته للأدب المغربي، وذلك من خلال مده بمفاتيح منهجية ومعرفية قمينة بمساعدته على القراءة العميقة لمحتويات قضايا وظواهر الأدب المغربي.

6- **لبلوغ أية نتيجة؟**: إذا قمنا بحفر عميق في أهداف الكتاب، فسنصل إلى نتيجة تربوية هامة مفادها أن منهج الكتاب ((هو الذي سيعلمناً وسيجعلنا نعلم طلابنا كيف يوقف على النصوص والأخبار لاستنطاقها، وكيف تطرح الأسئلة، وإن لم تتيسر الإجابة عليها دائما، وكيف ترفض الأحكام السابقة للنقد، وكيف تقدم

تقويمات جديدة على أساس من البناء العقلي، ومن التفكير في واقع التاريخ ولحظات الأحداث وممارستها وما يحيط بها من ملابسات، ولعلي في غير حاجة إلى القول بأن طرح المعظلات – وما أكثرها في تاريخنا السياسي والفكري – أشق في أحيان كثيرة من حلها، لاسيما حين يجازف الدارس بأحكام وآراء يعرف مسبقا أنها معرضة للنقد والنقض))[26].

ولتحقيق هذه النتيجة التربوية تم بناء المنهاج التربوي العام للكتاب على عدة أسس حضارية واجتماعية ونفسية ومعرفية ويجعلها أهدافا يسعى إلى تحقيقها، وهي كالتالي:

1– **الأسس الحضارية:** نقصد بها مختلف الخصائص الحضارية والإجتماعية للمجتمع المغربي عبر مسيرته التاريخية الطويلة والمتجسدة في تراثه الحضاري والثقافي وقيمه الأخلاقية والدينية الناتجة عن تفاعله التاريخي مع مختلف الحضارات التي رافقت مسيرته الطويلة، والتي جاء كتاب « الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» ليكشف عن طبيعة تفاعل الإنسان المغربي مع بيئته الطبيعية والحضارية ومختلف آماله وآلامه، وهدف المؤلف من ذلك هو جعل القارئ لهذا الكتاب ينطلق من ماضيه الأصيل وحاضره للتفكير في المستقبل المرتبط بالجامعة باعتبارها المؤسسة التربوية القادرة «على نشر الوعي وتوجيه الرأي وصقل الذهن وتوضيح الرؤيا وتعميق المفاهيم وتهذيب القيم وتفتيح الآفاق لنظرة وسلوك علميين، وسيجعلها تلح كذلك على جعل العلم في خدمة قضايا الوطن ومشاكل التنمية، والتوسل به في تحديد ملامح شخصيتنا وذاتيتنا وكشف السبيل لمستقبلنا القريب والبعيد»[27].

2- **الأسس النفسية:** إذا كان المنظور التربوي المؤطر لكتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» شديد الصلة بمسيرة المجتمع المغربي في ماضيه وحاضره وتطلعاته المستقبلية، فإنه جاء أيضا مستجيبا للمراهقين ومحفزا لهم على التحصيل والتنقيب في أدبهم الذي لازالت العديد من أسئلته معلقة إذ «لازال الغبار الكثيف يخفي الكثير من تراثنا المكتوب ويتيح للأرضة التهامه، ومازال التخلف الفكري يفرض مواقف التنكر والإهمال والتشويه ضد التراث الذي صدر عن الشعب في جميع المجالات، ومازال الباحثون يتكبدون من المشارق ويلقون من العراقيل ما يعوق عن الاستمرار إن لم يعق عن البدء، ولكنا مع ذلك نرى حقا لنا نحن أبناء هذا الجيل، وحتما علينا كذلك أن نقول كلمتنا، نضيف بها دما جديدا أو نحرك الدم القديم على الأقل»(28).

3- **الأسس المعرفية:** يتميز عصرنا بالانفجار المعرفي الذي يصعب مواكبته على كل متتبع مهما تسلح بالجد والعزيمة الصلبة، مما يتعذر معه مسايرة مختلف فروع المعرفة بصفة عامة، ودرس الأدب بصفة خاصة، ولتذليل بعض صعوبات المواكبة المستمرة لمستجدات الأدب المغربي قام الأستاذ الجراري بدراسة مفصلة لبعض القضايا والظواهر التي تستجيب لحاجات المتعلمين المعرفية وكل طلاب هذا الأدب الراغبين في الإطلاع على نصوصه الإبداعية التي يصعب الوصول إليها، مما يفرض عليهم «البحث عن هذه النصوص وأخبار أصحابها موزعة في ألوان من المصادر متباينة، ككتب التاريخ العام والخاص، وكتب التراجم والطبقات، وكتب الجغرافيا والرحلات، وكذلك في الفهارس والبرامج، وحتى في ما كتب بالعربية أو اللغات الأجنبية، والفرنسية والإسبانية منها خاصة، والكثير منها منشور في

صحف ومجلات عربية واستشراقية قلما يتيسر الوصول إليها أو إلى جميع ما صدر فيها من أعداد»[29].

وانطلاقا من هذه الأسس الحضارية والنفسية والمعرفية واستنادا إلى تخطيط علمي محكم وتصور تربوي يحدد مواصفات التلميذ أو الطالب القارئ، قام الأستاذ عباس الجراري بانتقاء محاور وقضايا كتابه وفق خطة منهجية دقيقة تتوخى تحقيق مجموعة من الأهداف الخاصة بالمؤسسة التربوية ثانوية كانت أو جامعية.

ويمكننا باختصار شديد حصر مواصفات هذا القارئ المفترض في:

- باعتبار تلميذ السنة الثالثة من التعليم الثانوي في مرحلة تؤهله للتعليم الجامعي، كما أن طالب المرحلة الجامعية يعيش مرحلة انتقالية بين مرحلتي المراهقة والرجولة، وما يلازم هذه المرحلة من تغيرات فيزيولوجية ونفسية وعقلية، ولن يتحقق الاستقرار النفسي لناشئتنا التعليمية إلا بإتاحة الفرصة «لهذه الأجيال أن تتعرف إلى تجارب الماضين وتدرك أسرار التطور، وحتى تتكمن عن طريق دراسته وطرح قضاياه للبحث والتحليل والنقد أن تنمي فكرها وشخصيتها وتربي فيها استقلال الرأي»[30].

ولإعادة الثقة إلى نفس المراهق، وتحفيزه على البحث والتنقيب في تراثه ودفعه للاعتزاز بالذات وحب الوطن والتشبث بالقيم والمثل العليا التي تنبني عليها شخصية المواطن الصالح، تم اعتماد أسلوب التدرج المنطقي والتسلسل التاريخي في تقديم موضوعات الكتاب التي تحتوي عدة قيم ومعارف ومواقف إلى جانب ما

تتضمنه من رصيد دالي ودلالي وتداولي، وكلها تتوخى إكساب المتعلم المواصفات التالية:

أ- مواصفات منهجية: أي تمهير التلميذ/الطالب على قراءة النصوص قراءة منهجية عميقة تتجاوز حدود السواد المسطر على البياض إلى ما تحت سطورها من مواقف وقيم وآراء، ولن يتحقق ذلك لأي منهج مالم يتصف بما يلي:

«**أولا:** أن المنهج – أي منهج – يعتمد مجموعة من العناصر الظاهرة هي التي غالبا ما يركز عليها في موضوع المنهجية، وتتمثل في الأدوات والقواعد والمقاييس وطرق البحث بصفة عامة، ولكن المنهج أولا وقبل كل شيء – وألح على هذه النقطة – يتضح في تلكم الجوانب اللامرئية التي تكون في وعي الباحث، سواء أفصح عنها أم لم يفصح والتي تساعده على تكوين الرؤية وعلى تحديد الهدف، وقد تعمدت في البداية أن أقول كلمة أشرح فيها هذه الجوانب بالنسبة لتجربتي المنهجية.

ثانيا: أن المنهج – ودائما أتحدث عن منهج كيفما كان – يبقى قضية نسبية.

ثالثا: أنه لا يوجد المنهج الذي يمكن أن يقال عنه إنه الصالح والدائم أو الأصلح والأدوم بإطلاق، كما يظن كثير من الدارسين والمبتدئين منهم بصفة خاصة، طالما أن المنهج هو ذلكم الوعي وتلكم الرؤية وذلكم الهدف، أما الطريقة فقد تكون مجدية بالنسبة لموضوع ولا تكون بالنسبة لغيره، وقد تكون مسعفة في فترة ولا تكون لفترة ثانية.

رابعا: أن قيمة أي منهج ليست كامنة فقط في نوع الأدوات التي استعملها البحث، سواء أكانت صالحة أم غير صالحة لمجرد أن البحث أو أن «موضة»

تقتضي نوعا من المناهج، ولكن قيمة أي منهج رهينة بما يحققه في نطاق رؤيته وهدفه، بالنسبة لفترة معينة أو موضوع محدد»[31].

والملاحظ أن هذه المواصفات المنهجية قد تجاوزت حدود المراقي الصنافية* البسيطة كالتعرف والفهم إلى المراقي الصنافية العليا المجسدة، في التحليل والتركيب والتطبيق والتقويم القائم على التخطيط والبحث والاستقراء والاستنباط، مع مراعاة الخصوصية التخيلية للنصوص الإبداعية المدروسة، وبتعبير أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري «اعتبرت النصوص الأدبية إذن وثائق، ولكنها تختلف عن غيرها كوثائق التاريخ مثلا، إذ هي نصوص إبداعية تحتاج إلى أن يتعامل معها من خلال رؤية أو بأدوات معينة تساعد على تحقيق جملة أهداف:

1- الفهم

2- التفسير والتحليل

3- النقد بالتقويم والتقييم..

4- إدراك الحركية داخل السياق.

5- ربط النص بالإطار الذي يحتويه.

وبهذا تدخل عندي في العملية المنهجية عنصر العقل، وكذا عنصر الذوق، مضافا إليهما عنصر النقد»[32].

ب – مواصفات ثقافية : إن التلميذ/الطالب المطلع على كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» لابد أن يخرج بحصيلة ثقافية شديدة الارتباط بتاريخه وواقعه الحضاري والعلمي والأدبي المتفتح على مختلف الحضارات والآداب الإنسانية، رغم أن صاحبه – بتواضع علمي شديد – يصرح قائلا: «في نطاق هذه المعطيات أقدم جزءا من

أدبنا، آمل أن تعقبه إن شاء الله أجزاء أخرى، لا أقصد منها إلى مسح لهذا الأدب أو إلى تغطية تاريخه وتتبع حركته على ما في كمه وكيفه من امتداد، ولكني أقصد إلى تناول جوانب من هذا التاريخ وذلك الأدب من خلال ظواهر وقضايا تشترك بتفاوت في تحقيق الكثير من أهداف المنهج الذي ارتأيت للبحث، وإن كنت طرحتها في مجالات ومناسبات علمية مختلفة، وهي متخيرة من القديم والحديث في غير خضوع لأي تسلسل تاريخي، وإن جاء هذا التسلسل عفوا في بعضها، كما أنها محصورة في إطار المغرب الأقصى إلا في حالات اقتضت تناول الظاهرة أو القضية في نطاق الشمال الإفريقي كموضوعي العصر الجاهلي والتجديد، أو النطاق العربي الواسع كما في موضوع المسرح»(33).

ج - **القيم والمواقف الوجدانية** : إذا كان مجال القيم الوجدانية شديد الصلة بانفعالات ومواقف وعواطف قارئ كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» فإن مسألة البناء الوجداني للتلميذ أو الطالب المغربي نجدها حاضرة بوضوح في مختلف مؤلفات الدكتور عباس الجراري، رغم علمه المسبق بأن هذا الأمر تشارك فيه عدة أطراف تربوية واجتماعية وإعلامية، من بينها المؤسسة التربوية والأسرة ووسائل الاتصال. ولكن ما يميز هذا الكتاب هو طرحه للعديد من الأسئلة المثيرة للاهتمام، واختياره للشواهد والأمثلة التي تغرس القيم النبيلة في نفوس الناشئة، ومن أمثلة ذلك حديثه عن احتفاء عموم الشعراء المغاربة بعيد المولد النبوي وخاصة «الشعراء الصحراويين الذين كان لهم باع طويل في هذا الفن»(34).

ويكمن الجانب الثاني لهذا البناء الوجداني للطالب في تحفيز التلاميذ على مطالعة الآثار الأدبية الحاملة لقيم أدبية خالدة كتلك التي نجدها في قول العالم الفقيه عياض وهو «يخاطب حبيبه في شكوى مبرحة وجناس محكم تام:

يامن تحمل عني غير مكترث لكنه للضنى والسقم أوصى بـ
تركتني مستهام القلب ذا حرق أخاجوى وتباريح وأوصار
أراقب النحم في جنح الدجى سهرا كأنني راصد للنجم أوصابي
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم إلا جنى حنظل في الطعم أوصاب»(35)

وخلاصة القول، إن المنهاج العام الذي يؤطر كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» يرتكز على عدة أسس معرفية ومهارية ووجدانية تتوخى تحقيق عدة أهداف آنية ومستقبلية لدى المتعلم المتشرب لمحتويات هذا الكتاب الذي يحاول صاحبه فيه وفي مختلف آثاره الأدبية والتربوية تحقيق أسمى غاية تربوية تبتغي كل سياسة تعليمية هادفة حصولها لدى نائشتها، وهي المواطنة الصالحة التي تتجسد عمليا من خلال تحقيق الغايات التالية:

«- تكوين المواطن الملتزم بواجباته تجاه الوطن والقادر على تأديتها.

- تكوين المواطن المتحلي بالقيم الحميدة والضامن لاستمرارية الكيان المغربي وهويته الثقافية والحضارية على قاعدة الاقتناع بضرورة الوحدة المغاربية كتمهيد للوحدة العربية الشاملة.

- تكوين المواطن المتفتح على كل إيجابيات الحضارة الإنسانية.

- تكوين المواطن المعتز بمغربيته وعروبته وإسلامه»(36).

* * *

الهوامش

(1) الدكتور عباس الجراري «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» (ج: 1) (ص : 6)، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، (الطبعة الثانية 1982)

(2) الدكتور أحمد أوزي «تحليل المضمون ومنهجية البحث» (ص 37) الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 1993).

(3) الدكتور عباس الجراري (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضياه) (صفحة الغلاف).
(4) نفسه (ص 8).
(5) الدكتور أنوار عبد الملك (الفكر العربي في معركة النهضة) (ص 57) ترجمة بدر الدين عرودكي، دار الآداب بيروت - الطبعة الأولى 9: 1974
(6) الدكتور سعيد علوش «مفهوم المثاقفة في الأدب المغربي (ص 107) (مجلة : «أقلام» عدد 4 فبراير 1977).
(7) الدكتور عباس الجراري (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه) (ص 8).
(8) نفسه (ص 8).
(9) نفسه (ص 8).
(10) نفسه (ص 8-9).
(11) نفسه (ص 9).
(12) نفسه (ص 10).
(13) نفسه (ص 9).
(14) Le gendre (R); Dictionnaire actuel de l'education, Edition La- Paris / 24 Montereál, 1988 P. 146. rousse.
(15) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» (ص 66-67).
(16) الدكتور أحمد أوزي (تحليل المضمون) (ص 39).
* أنظر: الدكتور عباس الجراري «خطاب المنهج» (ص 7-31) و(61-74) و(75-95).
(17) «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» (ص 9).
(18) الدكتور عابد الجابري «مدخل إلى فلسفة العلوم (2): «المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي» (ص 341) مطبعة دار النشر المغربية، البيضاء 1977.
(19) الدكتور عباس الجراري «خطاب المنهج» (ص 69) مطبعة مونتريال، منشورات السفير، مكناس، الطبعة الأولى 1990.
(20) نفسه (ص 71-71).
(21) «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» (ص 37-38).
(22) نفسه (ص 251-251).
(23) نفسه (ص 8).
(24) نفسه (ص 9).
(25) نفسه (ص 9-10).
(26) نفسه (ص 10).
(27) نفسه (ص 9-10).
(28) نفسه (ص 6).
(29) نفسه (ص 5).

(30) نفسه (ص 8).

(31) الدكتور عباس الجراري «خطاب المنهج» (ص 73).

* أنظر:: Bloom B. Set coll, a taxonomie des objectifs pédagogiques: domaine cogntif, trad. M lavallée, Montréal, Education Nouvelle, 1969.

(32) الدكتور عباس الجراري «خطاب المنهج» (ص 70).

(33) «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» (ص 10).

(34) نفسه (ص 158).

(35) نفسه (ص 103).

(36) وثيقة أغراض التعليم الثانوي الصادرة عن قسم البرامج.

* * *

الدكتور عباس الجراري : عالم خصب وواجهات متكاملة

جمال بنسليمان

كيف السبيل الى «اقتحام» عالم الدكتور عباس الجراري ؟

بقدر ما يغري السؤال بالمتابعة والرغبة العطشى في ارواء ظمأ الذات اللاهثة وراء المعرفة، تتلامح منذ قراءته الأولى تضاريسه الوعرة التي يتعذر معها الاحاطة بجغرافيته والالمام بدقائقها ونبضها الداخلي، لذلك لن نكون مغالطين في شيىء اذا اعتبرناه منذ نقطة الانطلاق صعبا وكبيرا، صعوبته لا تعني أنه غير قابل للطرح والاستقصاء، ولكن لأنه مشكل من عالم خصيب متوزع بين عدة واجهات وحقول ومجالات تجعل مسألة الحصر والمعالجة شائكة ومحفوفة بالمزالق والمتاهات والمسالك الوعرة، خاصة اذا علمنا ان ينبوع هذا العالم ما يزال متدفقا وشلال عطائه منهمرا، أما مسألة الكبر فتعود الى شخصية الرجل الكبيرة التي استطاعت أن تفرض صوتها الأصيل الشادي على مدى ثلاثين سنة داخل وخارج المغرب، والتي تتطلب بالنسبة للباحث فيها مجموعة مؤهلات وقدرات تندر ان تجتمع عند مجموعة من الباحثين فكيف بالأحرى عند باحث واحد، وبعد هذا وذاك، فاقتحام عالم الدكتور عباس الجراري والجولان في رحابه، والتمتع بفتوحاته وسمفونية

(*) أستاذ باحث في الأدب المغربي، الثانوية التقنية، المحمدية.

اسرائه، عمل يضيق المقال بذكر افيائه وعطائه، ويحتاج الى بحث أكاديمي رفيع، وعمل محبوك غير سريع.

من قلب هذه التوطئة يظهر ثقل الموضوع وثقل صاحبه، كما تظهر جسامة المسؤولية الملقاة على صاحب المقال وهو يروم الامساك بهذا العالم المنفلت و«اقتحام» بوابته، واضاءة زواياه وابراز مميزاته.

أعود مرة أخرى لأطرح السؤال الاشكال، كيف السبيل الى اقتحام عالم علاّمتنا وعميد أدبنا ؟ في اعتقادي أن خير طريق وأفضل مسلك ينير لنا السبيل، ويساعدنا على فتح بوابة هذا العالم وولوجها والغوص في مجاهلها واكتشاف دررها ونفائسها هو مفتاح الأب عبد الله - رحمه الله - لأنه هو المدخل الصحيح الى عالم الدكتور عباس الجراري، وبغير الحديث عن العلاّمة عبد الله ومدرسته العالمة وشجرته الطيبة، تبقى الصورة غير مكتملة ومنتزعة من اطارها.

مدرسة عبد الله بن العباس الجراري

لقد مثل العلاّمة الجليل عبد الله بن العباس الجراري مدرسة قائمة بذاتها، أبانت عن عبقرية صاحبها، وعبقرية الشجرة الأصل التي انحدرت ارومته من اعطافها. إن عبقرية العلاّمة عبد الله مستمدة من أسرة عريقة، تتفتق أصالة وعذقا طيبا وغصنا رطيبا، «أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»[1]، شجرتها عربية خالصة المعدن تنحدر من «بني جرار من عرب معقل بني عقيل»[2]، ونسبها طاهر شريف «يرفع الى سيدنا عبد الله ابن جعفر من زوجته سيدتنا زينب بنت مولاتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول اللّه (ص) فالأصل هاشمي محقق الشرف بلا نكير عن الثقات»[3]. لقد خوّل النسب الرفيع للأسرة

ذيوعا لا يقاوم منذ أن وفدت سلالتها من الشرق العربي الى بلاد المغرب[4]، توطد وترسخت لبناته بحصول أعضائها وخيرة أبنائها على مراتب عليا في مختلف الحقول والميادين، «فاشتهر منها رجال في العلم والتدريس والاقراء والتصوف والتأليف والقيادة والسيادة والفضل والكرم والاستقامة والوطنية»[5]، وكان من البدهي أن يمتاح المؤرخ الأديب والشاعر اللبيب العلاّمة عبد الله من هذا المعين الصافي، ويشرب من مائه الزلال، ويتفيأ ظلاله، ويستلهم أنواره وأسراره، شاهدنا على ذلك المجالات التي تحرك فيها، والمساهمات التي ساهم بها، والعطاءات المختلفة التي لم تجف دماؤها ولن تجف، والادوار الفاعلة التي نهض بها، والتي ما زالت دورتها الدموية في كامل صفائها وحيويتها حتى بعد رحيله - رحمه الله - الى مثواه الأخير. «إن مدرسة الأديب العلامة عبد الله الجراري التي تخرج منها أجيال متعددة، يصعب على الدارس تحديد عدد المنتمين اليها، لأنه لم يختر عن العمل العلمي والتربوي بديلا... امتدت الى كل بلاد المغرب، وكل المتطلعين للثقافة العلمية والأدبية، مدرسة أعطت الكثير من الروح والعزيمة والوطنية، والعمل الجاد، فضرب بها المثل في المسؤولية والجهاد العلمي والوطني والديني، وفي الاستقامة والاعتماد على النفس، ومكارم الأخلاق المرتبطة بالكرامة العلمية، والاحساس بالأمانة وصدق الرسالة».[6]

لقد عرف العلاّمة عبد الله منذ صغر سنه بجميل الأخلاق، وعظيم السلوك، وسعة الصدر، مما ساعده على الدرس والتحصيل، والاجتماع والمعاشرة، الشيء الذي أهله لكي يغرس هذه البذور الطيبة في أقرب المقربين الى قلبه، فلذات اكباده، وأعضاء أسرته، وأصحابه ورفاقه، ونعتقد أن هذا النهج القويم، والخط السوي

المستقيم، مرده الى النبع الطاهر الذي ارتوى منه «عبد الله»، والمتمثل في القرآن العظيم، معجزة المصطفى محمد عليه أزكى الصلاة وأجل تكريم. لقد قرأه العلاّمة عبد الله قراءات خاشعة، وتدبر آياته المحكمات تدبرا، مما مكنه من امتلاك ناصية البيان، وسحر اللّغة، ورونق العبارة، وجميل الكلم، وهذا هو السبب الأساس في نظرنا الذي جعل حياته العلمية والعملية حافلة بالعطاء العلمي الغزير في مختلف دروب الفكر والثقافة والأدب والسياسة والاجتماع والدين... مما جعله علما ومعلمة «يجسد مجموعة من الرموز والعلامات الذاتية المتميزة في علمه وأدبه وأخلاقه وسلوكه وعلاقاته الأبوية والانسانية، تتحكم فيها قيم ومبادئ ثابتة يشهد بها كل الذين عاشروه عن قرب لقنها لأبنائه وتلامذته».(7)

من الطبيعي اذن ان يعجب أبناء «عبد الله» بوالدهم القدوة، وفي مقدمتهم الابن البار عباس الذي كان شجرة امتداد لوالده عبد الله، يرعاها ويحافظ على ثوابتها ويتلقح بلقاحها ، فكان بحق خير خلف لخير سلف.

بدأت تتوضح الآن ملامح عالم أستاذنا العلاّمة، لكن الشيء الأكيد أننا بدأنا «نقتحمه» برفق، ونلج عتباته بتبتل، وحتى يتحول «الاقتحام» الى استئذان، والولوج الى سابق اعلان واعلام، أستسمح أستاذنا وعميد أدبنا في أن يتأسس مقالي من مجموعة واجهات سطع فيها فكر الدكتور عباس الجراري، وبرزت فيها شخصيته، ونظرا لتعدد هذه الواجهات وخصوبتها من جهة، وضيق الفسحة المتاحة لهذا المقال من جهة ثانية، سأكتفي بملامسة بعضها، آملا أن تسنح الفرصة مستقبلا للاحاطة بها جميعها. وأقترح أن تأتي وهي خاضعة للترتيب التالي :

أولا : واجهة التأليف

ثانيا : واجهة الجامعة

ثالثا : واجهة النادي

رابعا : واجهة المجلس

خامسا : واجهة المسجد

1) واجهة التأليف :

الذين سكنوا قرار مؤلفات الدكتور عباس الجراري التي تزيد على الثلاثين، وتغلغلوا في أعماقها وبحرها الزاخر، يعرفون كيف تفتح لهم الجنة ذراعيها من حيث لا ينتظرون،[8] كوكبة متلئلئة من المصابيح المتوهجة بنور ربها لا تصطاف في مكان قار، ولا تتشكل بلون واحد، أنوارها لا تتعب، وماء كتابتها لا ينتهي، سمفونية جميلة أبدعها قائد جوقة حاذق، استطاع قيادة سفينتها بوعي كبير، وتصور واضح، ومنهج متماسك، وحتى نقترب أكثر من هذه المصابيح الجنة، في اسرائها وتزاحم مواكبها، في كواكبها اللاّمعة، ونجومها الثاقبة الناصعة، أقدم الترسيمة المتواضعة التالية :

مغربيات :

أدب عـــربي : ——> الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، النضال في الشعر بالمغرب...

أدب شـــعبي : ——> القصيدة (الزجل في المغرب)، في الإبداع الشعبي، معجم مصطلحات الملحون الفنية...

أندلسيات :

فنية التعبير في شعر ابن زيدون، أثر الأندلس على اوربا في مجال النغم والإيقاع، صبابة أندلسية...

إسلاميات :

من أدب الدعوة الإسلامية، بحوث مغربية في الفكر الإسلامي، الفكر الإسلامي والاختيار الصّعب...

دراسات :

صفحات دراسية من القديم والحديث، في الشعر السياسي...

فكر وثقافة وسياسة :

الفكر والوحدة، الثقافة من الهوية الى الحوار، الحرية والأدب، الثقافة في معركة التغيير...

مناهج :

خطاب المنهج...

أكبر ملحظ نخرج به ونحن نتلقى بصريا هذه الترسيمة التمثيلية أن أسفار الكاتب ومؤلفاته مشكلة من باقة من المصابيح متنوعة الأشكال والألوان، تمتاز بالتناغم والتكامل.

نفتح أول بوابة فيطل علينا الأدب المغربي بشقيه المدرسي والشعبي.

نفتح البوابة الثانية فيستقبلنا الأدب الأندلسي.

البوابة الثالثة مسكونة بقارورة عطر الفكر الإسلامي.

البوابة الرابعة تحضن وردة تصانيف دراسات أدبية متنوعة.

البوابة الخامسة تجمع المؤتلف والمختلف فكرا وثقافة وسياسة.

البوابة السادسة يقف أمامها حارس رقيب لا ينام ولا تغفو عينه، انه المنهج.

لا أريد تتبع هذه الباقة المصابيح وتحليل آلياتها، والوقوف أمام شاهدها ومكنونها، وإنّما أكتفي بالاستنتاجات التالية مع بعض التطعيمات :

- إن الكاتب قد أعطى للمغربيات مكان الصدارة، سواء تعلق الأمر بالكلام المعرب أو الشعبي. القديم أو الحديث، وهذا الإهتمام لا يمكن أن يفهم الا على ضوء منهج الكاتب العلمي الذي يريد بناء البيت المغربي على دعائم متينة، وتبيان خصوصياته، وابراز أصالته، والحفاظ على النفيس من أثاثه، والدفاع عن حرماته ومقدساته، بعد أن تعرض ولزمن غير يسير لمعاول الهدم وما أكثرها[9]، وهذا الهدف البنائي جعله وباستحقاق راعي كرسي الأدب المغربي والشعبي.

- إيمان الكاتب بالدور الفاعل الذي نهضت به بلاد الأندلس في اثراء الفكر والثقافة والحضارة، وتبعا لذلك وسع دائرة اهتمامه ليخوض في الأندلسيات ويتبحر فيها، ويتقرب الى أعلامها وكبار شعرائها وأدبائها، مما جعله وباستحقاق أيضا راعي الوحدة المغربية الأندلسية، والباحث المجاهد في أدب الغرب الإسلامي.[10]

- إقتناعا منه بعالمية الإسلام، وعظمة محمد (ص) رسول السلام، وحفاظا على النبع الإسلامي الطاهر الذي ارتوى منه في أحضان والده رحمه اللّه، وتشربه من خيرة العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم، فتح

أستاذنا العلامة جبهة ثالثة أبدع فيها وأجاد، لبس فيها لباس المحارب مواجها «الاختراق الثقافي، وحملات المسخ والتغريب واجتثات الأصول، انها جبهة الاسلاميات التي أعاد بها الأعجاز الى الصدور، والفروع الى الأصول «نبعا صافيا وريا شافيا وهديا كافيا، وليس ذلك منه بغريب فهو محب للتراث غيور وحاذق هصور، وعبقري بلا تطاول ولا غرور».(11)

ـ وحتى تزداد الدائرة اتساعا، وتؤكد الشخصية الجرارية نبوغها وموسوعيتها ونضجها المعرفي، خاض الأستاذ الجراري في ادغال دراسات أدبية متنوعة، ومعارف انسانية مختلفة أبان فيها عن حس احترافي رفيع لا يدركه حتى أصحاب الاختصاص، «ان شخصية الدكتور عباس الجراري لم تكن تنظر الى الفكر أو الثقافة من زاوية الاختصاص المتعارف عليه، رغم بروزها في آداب الغرب الإسلامي، وإنما تهدف الى اقتحام البحث في كل أصناف المعرفة الإنسانية، وإن كان الأدب العربي بالمغرب بشقيه المدرسي والشعبي أبرز ملامحها، فإن اسهاماتها في مجالات ثقافية متباينة تؤكد صعوبة حصر اتجاهاتها وملامحها، لأنها شخصية ثرية في سلوكها وأخلاقها، ثرية في وطنيتها وجهادها، ثرية في تلاميذها، ثرية في حوارها وتفتحها».(12)

ـ إن هذه المعرفة المتدفقة، والكتابات الغزيرة، من الطبيعي جدا أن تثمر منهجا متميزا للكاتب، له أسسه ومرتكزاته، قواعده وأدواته، وفي هذا الباب نستطيع أن نقول إن الدكتور الجراري مؤلف منهج هادف، محكوم بالمرونة والانفتاح والتجدد المستمر وبالوعي العميق، والرؤية الواضحة،

يتخذ من الأقليمية منطلقا، دون أن ينوب فيها أو يرزح تحت كلكلها، جاعلا منها نواة أولى لفهم الخصوصيات المغربية، في اتجاه مطمح أكبر، وهو معانقة البيئات العربية الأخرى في شموليتها وامتداد أفقها[13].

2) واجهة الجامعة :

يمكن تناول هذه الواجهة من خلال مهمتين مضيئتين :

أولا : مهمة التدريس

ثانيا : مهمة الإشراف على الرسائل والأطاريح

1) مهمة التدريس :

كانت البداية في عام اثنين وستين تسعمائة وألف بإحدى قاعات كلية آداب الرباط، حيث كان الأستاذ الشاب يلقي دروسه العلمية على طلاب السنة التمهيدية جاعلا من مفهوم الأدب العربي والبحث في مصادره وتاريخه ومناهج دراسته حلقات درس ممنهجة، تحكمها رؤية تربوية مستقبلية تساعد الطلبة وتوجههم الوجهة السليمة[14]، لكن البداية الفعلية انطلقت تباشيرها في ست وستين، وبالتحديد في شهر أكتوبر بكلية آداب فاس[15] بإلقاء دروس شاهدة على طلبة السلكين الأول والثاني تميزت بالدقة والعمق والحيوية الدافقة والأداء المتميز، علما ان أغلب المواد التي كان يقوم بتدريسها كانت بعيدة عن دائرة تخصصه[16]، مما يؤكد أن الأستاذ الشاب وهو في بداية رحلة التدريس كان يحمل منذ الطلائع الأولى علامات النبوغ والعبقرية.

لقد ازدادت هذه المهمة اعباء ومسؤولية بقدوم السنة الجامعية 70 - 71 بعد أن أحدث نظام السلك الثالث، فكان الأستاذ الجراري راعي الأدب المغربي فيه، يأخذ بيده، ويرسم له مساره الأصلح، ويختار لحلقاته ما يقرب الطلبة الى فتوحاته وقضاياه واشكالياته، مما ساعده على «تحقيق جزء من مشروعه الريادي في الجامعة المغربية، مكنه من تكوين العشرات من الباحثين المختصين في الدراسات الأدبية المغربية بصفة خاصة، وفي الدراسات الأدبية العربية على العموم»[17].

حب الأستاذ الجراري للأدب المغربي وشغفه الكبير بعلوم اللّغة العربية، جعله يجاهد في أكثر من جبهة حتى تكون لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، شعبة اللغة العربية لها كيانها القائم الذات، ولقد تسنى له ذلك بحلول السنة الجامعية 73 - 74، وتقديرا لهذا الفضل، واعترافا بجميل الأستاذ وفضائله، أسندت له رئاسة شعبتها[18]. وبانتقاله الى الرباط، دون أن يقطع أواصر التدريس بكلية آداب فاس[19]، تابع الأستاذ الجراري مهمته التربوية، مضطلعا برسالة التنوير، يرسي قواعد مشروعه المغربي ويوطد لبناته تنظيرا وتطبيقا، دون أن يمنعه هذا من الانفتاح على أدب المغرب العربي والأندلس والمشرق، برز هذا بشكل جلي مع طلبة السلك الثاني خاصة الاجازة، وبلغ ذروته مع طلبة السلك الثالث حيث كان يختار محاوره بذكاء، ويوجه طلبته التوجيه السليم، ويخط لهم النهج القويم مما أهله لكي يحمل أجمل النعوت، وأفضل المكارم.[20]

2) مهمة الإشراف على الرسائل والأطاريح :

من الصعب فصل مهمة الاشراف عن مهمة التدريس، ما دام الأمر يتعلق بمشروع علمي كبير يروم تأثيث بيت الأدب المغربي، والحفاظ على هويته بجمع

متفرقه وتحقيق نصوصه واحياء شخصياته ورجالاته واسترجاع تاريخه وحضارته، ولقد كانت واجهة الاشراف منبرا علميا آخر استطاع من خلاله الدكتور عباس الجراري أن يكسب طلبة الجامعة المغربية الفتية قوة ومضاء، وشخصية سليمة البنية والتكوين، وحضورا فاعلا على شتى الأصعدة والمناحي، وحبا عاشقا للأدب المغربي خاصة، والمغاربي والأندلسي والعربي بشكل عام، وانسجاما مع الدور النبيل، والمشروع الرائد الذي نهض به في مجال التدريس، والأخلاق العلمية الرفيعة التي عرف بها، تدفقت الرسائل الجامعية والأطاريح على أستاذنا العلاّمة، وغدت شلالا مباركا لا تقف أمامه الرياح الهوج، ولا عقبات الجمود والتحجر والعبث.

لقد بيّن الدكتور محمد خليل وبلغة الأرقام أن العلاّمة عباس الجراري يأتي في الدرجة الأولى بالنسبة للأساتذة المشرفين على الرسائل والأطاريح منذ أن تأسست كلية آداب الرباط عام سبع وخمسين الى متم عام تسع وثمانين[21]، وجاء كتاب «خطاب المنهج»[22] ليعضد هذه الصورة المتوهجة، ويرسم طقسها الاحتفالي الخاص بها، والذي ظل في عرس دائم، متسلسل الحلقات، متكامل الفصول، ما زلنا نعيش أفراحه، ونتذوق ألوانه وأشكاله، ونستمتع بجوقته الطروب التي تتوجه نحو ذلك الخفي الذي يتجدد في خفائه.

قراءة فاحصة لعناوين هذه الرسائل[23] والأطاريح[24] تكشف بعمق عن عبق في المقام، واخلاص لروح المشروع الجراري في خريطته الكبرى وعوالمه الممتدة، يتوزع بين قديم وحديث، مدرسي وشعبي، شعري ونثري، قصصي مسرحي وروائي، لغوي وقرآني...

من خلال ما تقدم يمكن أن نخرج بنتيجتين أساسيتين :

تؤشر الأولى لمعطى أخلاقي رفيع، موشوم بإرث جراري متأصل، حمل بين جوانحه عالما فاضلا يقدر المسؤولية ويخلص لها قلبا وقالبا، وهذا المعطى هو الذي جعل النبع الطلابي يصاحب أستاذنا العلاّمة في رحلة سفر ممتعة لا يخمد اوارها ولا ينضب ماؤها، يكفي أن نقول في هذا المقام إن الاشراف «الجراري» كانت له أكثر من بصمة :

1) **بصمة الالتزام بالوقت والمحافظة عليه**، وهو الحريص أن يستقبل طلبته في شعبة اللغة العربية بكلية آداب الرباط صبيحة كل اثنين، وتحديدا في الثامنة والنصف، وكان دائما يحضر في الموعد العلمي، وقبل مجيئ موكب الطلبة.

2) **بصمة العدل** إن الدكتور عباس الجراري كان لا يرتاد في اشرافه الدهاليز الضيقة، ولا يفتح مسالك الظل التي تقسم الطلبة الى أصناف، تبعا لمقاييس منحطة، وأفكار وضيعة، فكل الطلبة وبدون استثناء طلبته وأبناؤه وأصدقاؤه وأحبابه.

3) **بصمة الاشراف الحق** تبدأ فصولها باختيار الطالب لعنوان رسالته أو اطروحته، فيتعهد الأستاذ المشرف العنوان بكامل الرعاية والعناية، ويقدم للطالب الباحث النصح والتوجيه، تاركا له فسحات أمل وحرية يتجول في رحابهما، دون أن يفرض رأيه، أو يتعصب لطرحه، وتستمر بتتبع عمل الطالب، خطوة خطوة، مرحلة مرحلة، وبتقديم الدعم له، نصيحة ودعاء تارة، ووثائق وكتب ونصوص تارة أخرى.

بعد انتهاء الطالب من عمله الجامعي، وتقديمه لأستاذه المشرف، يقوم هذا الأخير بقراءته قراءة فاحصة، مدونا مجموعة من الملاحظات والتصويبات حتى يتسنى للطالب أخذها بعين الاعتبار، ويأتي يوم المناقشة ليقدم الأستاذ المشرف تقريرا علميا مفصلا عن موضوع البحث، وعمل الطالب، والمراحل التي قطعها ومر منها، والصعوبات التي اعترضته، وكذا ايجابيات البحث ونتائجه، واذا تبين له ان الباحث قد قصّر في بحثه، أو أساء الى اللّغة العربية وضوابطها صدح بقول الحق، ونبه الطالب الى ذلك، مؤكدا ان العلم رسالة نبيلة، وأخلاق علمية رفيعة، يجب أن نحمل مشعلها، أو نتركها للقادرين على حمل لوائها.

هذه الصور المضيئة من الاشراف الحق، تؤكد أن تأطير علاّمتنا وعميد أدبنا للرسائل والأطاريح «لم يكن تأطيرا شكليا، قصاراه أن يشرف على الباحثين اسميا، ويقدم أعمالهم للمناقشات، ولكنه إشراف وتأطير بمعنى التوجيه العلمي الهادف الى تطبيق المنهج المطلوب في تحقيق النصوص، اذا كان الأمر يتعلق بالتحقيق، والمنهج المطلوب في البحث واعادة التركيب، ان كان الأمر يتعلق بالدراسة لظاهرة أو شخصية من شخصيات الأدب المغربي».(25)

أما النتيجة الثانية فتؤكد أن اشرافه على الرسائل والأطاريح لا يتم بشكل عشوائي، بل يخضع لمنهجية محكمة، ورؤية ثاقبة، وتصور متماسك للظواهر والقضايا، مما بوأه مكان الريادة بامتياز، تأصيلا وامتدادا تفعيلا واغناء وانفتاحا وجعل عمله بحق «عملا منفردا ومتفردا»(26)، جعله يؤسس «قواعد البحث العلمي الجامعي الأكاديمي الهادف الى توسيع دائرة البحث الى أقصى الحدود، والى تنويع ميادينه ومجالاته، والى تشجيع الباحثين الشباب بشتى الوسائل لتخطي

الصعاب التي تعترض الباحثين كيفما كان موضوع البحث الذي يشتغلون فيه».[27]

وحتى تكتمل صورة المشروع، وتترسخ جذورها أكثر، كان الأستاذ الجراري في حضور شبه دائم داخل لجان مناقشة الرسائل والأطاريح، وكانت توجه اليه رسائل المشاركة من جميع الكليات المغربية[28] فيتقبلها بصدر رحب، ويكون دائما في الموعد العلمي، يجود بالأفكار، وغرر التوجيهات، وسديد الملاحظات، الشيء الذي انعكس ايجابا على الجامعة المغربية، والثقافة الوطنية، وجعل قاطرة البحث العلمي في المغرب، تشق طريقها بثبات، وتحفر أخاديدها بعمق.

3) واجهة النادي الجراري[29] :

تمثل في نظري صورة مشرقة مفعمة بالأنوار العلمية الساطعة، والمحبة الأخوية الصادقة، والرعاية الأبوية الرشيدة، صحيح اني لم ألج بوابة النادي الجراري إلا في نهاية شهر شتنبر من السنة الماضية[30]، ولم يكن لي شرف الدخول الى رحابه المعطرة بأنوار اليقين الا مؤخرا، لكن هذه الفترة القصيرة علمتني أشياء ما كان لي أن ادركها أو أتذوق نكهتها، أو استمتع بحلاوتها لو بقيت بعيدا عن النادي الجراري، أكتفي بتتبع أخباره وأنشطته، اصداراته وأعمال أعضائه، ومن أهم الخلاصات التي خرجت بها وتوصلت اليها :

<u>أولا</u> : إن عميد المجلس وعمدته، رجل أخلاق تفوق الوصف، رأيت فيه تواضع العالم الحق، وطيبوبة الأب المثال، وحميمية الصديق المخلص، ونبل الرجل الشهم، مما جعل حبّي له يزداد، وتعلقي بشخصه يقوى، وتأكدت ان جميع أعضاء النادي يعمرون ناديه محبة لشخصه، وايمانا بجميل أخلاقه، وجلال سلوكه، وقويم تربيته.

ثانيا : إنه علاّمة كبير، لا يعرف الاختصاص له طريق، اذا تحدث في الدين أغنى وأفاد، وإذا فُتح ملف النحو كان قادحا للزناد، واذا دار الحديث عن النقد كان من كبار النقدة، وعن الأدب والبلاغة كان من الجهابذة...

ثالثـا : إنه شخصية دقيقة الملاحظة، سريعة البديهة، لها قدرة غريبة على إدراك حقائق الأشياء، ومعرفة ما يدور بين الحضور.

رابعـا : إنه رجل بسط ومعاشرة، حلو الحديث، جميل الكلم، اذا نطق كان أحلى من الشهد، واذا تحدث كان حديثه أشهى من الوعد.

خامسا : ان ناديه الذي أسس على تقوى من الله ناد علم بامتياز، وان عميده شاعر ممتاز، دليلي على ذلك ما عرفه المنتدى من نشاط دؤوب هذه السنة، وقّع فصوله الأولى الأستاذ الشاعر مصطفى الشليح الذي أتحف النادي الجراري بمقامة بديعة[31]، مليحة جميلة، تحدث فيها عن العُدوتين (سلا والرباط)، والتي من خلالها برزت قدرة الأستاذ الشليح على ابداع أصيل في هذا الفن، كما برزت «سلاوية» مصطفى، وحبّه الفائق لسلا وشعرائها وكبار أعلامها، والذي جعل كأس أديبها يترقرق حليبه بذكرها حتى وان احتاط، وقصد من كلامه الانبساط.

وحتى يتورد خدّ النادي بمليح الوجنات، أبدع عميد المجلس رائية بليغة، ردّ فيها على مقامة الشليح، جمع في أبياتها بين الحسنيين، وأنصف في أعجازها وصدورها العُدوتين، يكفي أن أمثل لها بهذه الأبيات :

مهلا أيا مصطفى تلقي مساءلة ... لربة الشعر عن إبداعها الدُّري
هل نبعه في رباط الفتح أم بسلا ؟ ... وهل بروضهما من أنجم زهر ؟

إني – على العلم – لا أبغي مفاضلة ولا استباقا الى الميدان اذ أدري
أن الشعور بما يوحيه دافقه في الضفتين غدا رقراقه يسري
لا أبتغي ذكر فرسان لنا رحلوا بالعدوتين عدوا في المد والجزر
ترد أصداءه آفاق ذا البحر يتقاد شعرهم سلسا بلا كلف

ولم يقف نشاط المجلس عند هذا الحد، بل تتابعت حلقاته وحركته الدافقة بمقامة عذبة(32) للأستاذ الأديب محمد احميدة، أعاد بها الاعتبار للرباط وشاعره أبي جندار، فاتحا جسور مودة وصفاء، بين الاخوة الأصدقاء في كل من سلا العلياء، والرباط جنة الموحدين الفيحاء، لتنهض همم أخرى من قلب النادي، مفجرة طاقاتها الابداعية الثاوية، ممتحة من روح مقامة الأستاذ مصطفى، وقصيدة العميد عباس(33).

إنها بعض الصور النّورانية التي تؤكد بجلاء ان النادي الجراري ناد علم ومدرسة معارف، «يواصل عمله في حشمة وحياء، وسرية تامة، ووفاء عجيب، والذي يعد نموذجا حيّا للملتقيات العلمية والأدبية العصرية المفيدة»(34)، وأن عميده رجل مآثر، بشائر وذخائر.

4) واجهة المجلس العلمي :

واجهة مضيئة رابعة يبرز فيها اسم الدكتور عباس الجراري، ومن قلبها يتدفق ينبوع شخصيته ويفيض مجراه، يتعلق الأمر بالمجلس العلمي للعُدوتين الذي تحمل أعباءه، وتقلد مأموريته في فترة عرفت ضغطا في مهام الرجل وتعددا في المسؤوليات المسندة اليه،(35) لقد استطاع في ظرف جد قصير أن يمنح هذه المؤسسة الثقافية أصالتها وطابعها الحركي، ودورها الاشعاعي الذي

يروم بناء الفرد المغربي المسلم، وتوجيهه نحو الصالحات، وتعميق وعيه الرّوحي بتغذية عقله وتطعيمه بخيرة الأفكار، ومختلف التجارب. بدأت هذه الملامح تتوضح في الفترة التي أسميها انتقالية، بدأت من مرض رئيس المجلس السابق الشيخ محمد المكي الناصري وتعيين الأستاذ الجراري نائبا له[36]، والتي انتهت بتعيين الدكتور عباس الجراري رسميا وافتتاح المقر الجديد للمجلس[37]، في هذه الفترة يمكن تسجيل سلسلة من الأعمال الجادة الملتقطة من خندق الحياة، وحبل العقيدة يمكن أن نذكر منها على سبيل التمثيل تنظيم المجلس لمجموعة من المحاضرات[38] والاجتماعات[39] التي كان الغرض منها ارساء قواعد العمل الإسلامي على ركائز متينة، وترسيخ المنهجية الجديدة للمجلس التي تتبنى على التوجيه المعقلن، والارشاد السليم، والانفتاح الواعي، والحركية الدائبة.[40]

قراءة فاحصة لهذه الأنشطة والأعمال تقودنا الى الاستنتاجات التالية :

أولا : قيادة الدكتور عباس الجراري لسفينة المجلس العلمي في كل الأعمال التي خطط لها المجلس، وحضوره الفعلي لأنشطتة، وحضوره له أكثر من حضور.

ثانيا : اعطاء رئيس المجلس للوعظ قيمة كبرى وأهمية بالغة، لأنه هو اكسجين الحياة بالنسبة للفرد المسلم، يهبه الأمن والطمأنينة، ويزرع في قلبه حب الاسلام، وهذا يتطلب شروطا في الواعظ حتى يستقيم وعظه وتصل رسالته، وهذا هو الباعث في نظري الذي جعل رئيس المجلس يعجل باجتماع الوعاظ والمرشدين، ويضع خطة محكمة لترشيدهم، وتوجيههم الوجهة المثلى.

ثالثا :اشراكه لفعاليات جامعية من مستوى ثقافي رفيع في تبليغ رسالة المجلس، وخدمة مقاصده الدينية والدنيوية.

رابعـــا : اهتمامه بقضية الأسرة بآعتبار هذه الأخيرة بؤرة المجتمع وقلبه النابض، اذا صلحت صلح المجتمع الاسلامي وتقوت أركانه، واذا فسدت فسد المجتمع وتهدمت جدرانه وحيطانه.

خامسا : وعيه الكبير برسالة التنوير جعله يوسع دائرة التثقيف والارشاد على جميع الأقاليم التابعة للمجلس بنوع من القسطاس لا فرق بين مركز ومحيط، وهذا الصنيع يشي برؤية اسلامية بعيدة المدى، عميقة الغور.

سادسا : الشروع في تطبيق المخطط العلمي الجراري الذي يطمح رئيس المجلس الجديد تحقيقه خدمة للعدوتين والأقاليم التابعة لهما[41]، وهذا ما تؤكده أنشطة المجلس لسنة خمس وتسعين تسعمائة وألف والشطر الأول من سنة ست وتسعين، وللمزيد من الاضاءة نقدم بعض هذه الأنشطة والأعمال.

أنشطة مختلفة

دورات تدريبية :

دورة لخطباء العدوتين[42]

دورة لخطباء اقليم الخميسات[43]

دورة لأئمة العدوتين

اختبارات للامامة والخطابة وحفظ القرآن الكريم

مباريات حفظ القرآن الكريم وتجويده[44]

استقبال زوار أجانب

وفد من علماء اندونيسيا[45]

وفد من علماء ماليزيا[46]

وفد من علماء النيجر[47]

الإجابة عن الأسئلة الدينية والفتاوي :

الوعظ النسوي : «الاسلام دين الاخلاص»[48]

مناقشة الدروس الحسنية الرمضانية[49]

أنشطة الشطر الأول من عام 1996

تسير في نفس الخط النوراني الذي شقت أخاديده بعمق أنشطة خمس وتسعين بغية هندسة فعلية للمجلس ولعمله الثقافي الهادف الذي يتوخى الصلابة والاستمرارية، ونظرا لخصوبة هذه الأنشطة والأعمال من جهة، واستمراريتها من جهة ثانية مادامت السنة لم تنته بعد، والخارطة الثقافية لم تتبلور بشكل نهائي، فإني أكتفي بالمحاضرات بأعتبارها مشهدا ثقافيا معبرا، وعملا فكريا رائدا.

المحاضرات :

نظام السوق في المعاملات التجارية بالمدينة الإسلامية[50]

- من مظاهر الحسبة في الإسلام واقامة شؤون السوق الإسلامية[51]
- الإسلام دين انسانية وسلام[52]
- الهجرة النبوية وأثرها في ترسيخ العقيدة وارساء مقومات الدولة الإسلامية[53]
- دور العقوبات الشرعية في التخفيف من الإجرام[54]

إن هذه الاطلالة على بعض أنشطة المجلس العلمي للعدوتين، تبين قيمة الأعمال المقدمة والأنشطة المقامة، ونوعيتها وروح الجدة المصطبغة بها، ومدى ملاءمتها للعصر وظروفه، والمستجدات الطارئة عليه، وكذا التخطيط المعقلن الذي

تخضع له، والدراسة القبلية التي تمر منها، وهذا يؤكد العمل الجدي لمجلس العدوتين والأعضاء المشرفين عليه. ويأتي في طليعتهم رئيس المجلس الدكتور عباس الجراري الذي استطاع ان يوظف منذ التحاقه بالمجلس، تجاربه المتعددة وخبراته الكثيرة وثقافته الموسوعية لصالح المجلس ومسيرته، ويبدو أن هذه المعلمة الدينية والثقافية ستترسخ أكثر، وستنجب دررا وقلائد ماس اذا أخذنا بعين الاعتبار طموحات الرئيس التي تتوق الى توسيع دائرة المجلس لمعانقة بقية المجالس العلمية الأخرى، بغية مد الجسور، وخلق فعل اسلامي جسور ترعاه شخصيات فاعلة في مجال الفكر الإسلامي بهدف تبادل الأفكار، وتقويم الاعوجاج، وتفعيل التراث، بالاضافة الى فتح مكتبة المجلس وتطعيمها بخيرة الكتب، القديم منها والحديث، وجعلها في متناول كل طالب علم، وإخراج نشرة دورية تعرف بشتى ألوان نشاطه ومختلف انجازاته... وانها لخطوات مباركة ستمتن الجبهة الثقافية للمجلس، وستفسح المجال أمام الطاقات المخلصة للاشتغال والبروز.

5) واجهة المسجد :

ونحن نقدر هذه الأعمال ونباركها، كان لا بد من استحضار الدور البنائي الذي ينهض به الدكتور عباس الجراري كخطيب جمعة متميز في مسجد «سكينة» بالرباط.

والحديث عن خطبة الجمعة وخطيب المسجد ينصرف اليوم أساسا الى الأهداف المتوخاة من الخطبة بشكل عام، والموضوعات التي تطرقها، والطرائق التي توظف فيها، والنتائج التي تصل اليها، من هنا ينبع الاهتمام – في الظرف الحالي – بما سيكون عليه كل من المسجد والخطيب والحضور المؤمن، بعدما فقد

أغلب الخطباء حضورهم الفاعل داخل بيوت الله، بفعل تكوينهم الهش، وشخصيتهم الضعيفة، ولغتهم المهلهلة، وطريقتهم العقيمة، وموضوعاتهم المملة، مما انعكس سلبا على الأمواج البشرية الوافدة لتأدية صلاة الجمعة التي بدأت تتقزز من الخطبة والخطباء الذين بدأوا - عن دون قصد طبعا - ينفرون الاسلام من اسلامهم، والمؤمنين من عقيدتهم الغراء، في زمن تفشت فيه أنياب الصليب، وألصقت تهم مغرضة بالإسلام وأهله. هذه الصورة القاتمة ما كان لها أن تحجب عنًا بعض الصور المشرقة، وهي بالرغم من قلتها تجسد بحق نموذجا متوهجا يجب الاعتزاز بوجوده، ولعل صورة العلاّمة أجمل صورة، يحق على كل مغربي ومغربية أن يفتخر بها ويتمتع برؤيتها، ويتذوق جمال مكوناتها.

انشطة عام 1995

محاضرات

ثوابت الأسرة وعوامل الإنهيار(55)

منظور الإسلام للمال ومجتمع التكافل(56)

بعض أفكار ابن خلدون من خلال مقدمته(57)

التعاون والتكافل الإجتماعي وترشيد استعمال الماء والمحافظة عليه(58)

ندوات

«الفوائد البنكية»(59)

«تعديلات مدونة الأحوال الشخصية»(60)

«دور علماء الرباط في بعث النهضة المغربية الحديثة» (61)

لقد استطاع الخطيب عباس الجراري في ظرف ست سنوات من عمر المسجد أن يؤسس مدرسة جرارية في الخطبة قائمة بذاتها، بحكم الرباط الذي توطدت لبناته بين الخطيب وجمهور المصلين، بعد أن وجدت الجماعة المؤمنة ضالتها، وعثرت على الامام القدوة الذي يفتح لها في كل جمعة نافذة على الدين والحياة والمجتمع، بلغة عربية فصيحة، غير صعبة واد متمنعة، وبطريقة جميلة تدفع السامع الى متابعة لذة النصات دون أن تتسرب الى ذاته النفرة، بعد أن تناغمت جاذبية الموضوع مع جمالية الالقاء، وتصافح الشاهد القرآني بالشاهد الحديثي، فاتحين معا أبوابا مشرعة على قضايا المجتمع المغربي والعربي والاسلامي يصدق هذا على كل المواضيع التي يفتح جبهتها الخطيب عباس، والمطالع لها، والمنصت اليها يجد في كل موضوع ذاته، زمنه الخاص، ونفسه التواقة الى نشدان الخلاص، نكتشف هذا في «البوسنة والهرسك» و «عيد العمال» و «ميلاد الرسول محمد ص»، و «امتحان التلاميذ والطلاب» «هجمة الغرب» الذي غزا دار الاسلام، وتفشت أنيابه في كل المرافق والمجالات، وغدا عند أبناء جلدتنا نموذجا ومثالا فريدا للنظام والريادة والقيادة والالتزام، نحتفل بأعياده، ونضبط ساعتنا على ساعته، ونعتد بنظامه الميلادي، وندبج شهور السنة على مزاجه كأننا كائنات طفيلية لا أصل لها ولا كيان، ممسوخة الجذور، غريبة الملامح والقسمات، في حين نجد أن ديننا الاسلامي ومنذ أربعة عشر قرنا يحبل بكل العلامات النّورانية من نظام قويم ونهج سليم، وسلوك مستقيم وخطة محكمة متراصة البنيان على المستويات العقدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، تحتاج الى مجتمع إسلامي طليعي ورائد، قوي الايمان، ينقلها من المستوى النظري الى الحيز

الاجرائي، ويخرجها من نصوص القرآن والحديث الى دنيا الواقع المعيش حتى تصبح سلوكا وممارسة وفعلا وحقيقة ساطعة، وهذه هي الرسالة النبيلة التي يحمل مشعلها خطيب مسجد سكينة، والتي يروم تأثيتها وتحقيق أهدافها وفق رؤية اسلامية واضحة المعالم، محكمة الأواصر، تجد سندها في النبع الإسلامي الشريف الذي انحدرت منه أسرة الخطيب، والممارسة الدينية السليمة التي عرفت عند والده العلاّمة عبد اللّه، والتكوين العميق الذي وجد ضالته عند المصلح عباس، والذي جعله صورة متوهجة تتفتق وعيا ورؤية ثاقبة وفكرا تنويريا ونفسا مسلمة ومسالمة، تستلهم رسالتها من شعار الاسلام المؤسس على السلام، ومكارم ديننا الحنيف المبني على العمل والوسطية والاعتدال. فليس بغريب اذن ان يتهافت جمهور المصلين في كل جمعة على مسجد سكينة للتمتع بفتوحات الخطيب عباس، وتغذية فكرهم بصائب الحديث، آيات كريمات، وأحاديث شريفات، وأمثلة حية، تدفع المستمع الى اعادة النظر في الكثير من مواقفه، والرجوع الى ينابيعه، والاعتزاز بهويته الاسلامية، وعقيدته الغراء، وليس بالغريب أيضا أن ترتفع بعض الأصوات الغيورة، وتنادي بضرورة الحفاظ على هذا الارث الصافي والدرر اللاّمعة والكلام الطيب، بتسجيل خطب العلاّمة عباس، وجعلها في متناول طلاب العلم وأنصار العقيدة(62)، حتى لا تنساب وتظل ثابتة على الدوام، مقاومة حملات المسخ والتغريب التي فرضت وجودها داخل مجتمعنا، بفعل أسلحة الغرب المدمرة، وتقنياته المتطورة التي وصلت مع الثورة الإعلامية التي يشهدها العالم اليوم الى مرحلة معقدة تزداد تعقيدا وخطورة بفعل منطق الثورة الاختراقي الذي يعزف على وتر التخطي المستمر، والذي يتطلب تجنيدا وتأطيرا وتوعية وتهييء النفس

واعدادها، وجعلها قادرة على مقاومة حمّى التحولات القيمية والثقافية والاجتماعية والايديولوجية التي تطال مجتمعاتنا الاسلامية والتي تتغيا قطع الأواصر بالجذور والينابيع الأولى للاسلام.[63]

نستطيع أن نقول في خاتمة هذا المقال الذي كان حيزه ضيقا والذي لم يستطع استيعاب مشروع العلاّمة عباس الجراري الممتد واللامتناهي، إن عالم الدكتور عباس الجراري مشكل من مجموعة من العوالم التي لا حصر لها، يتفتق خصوبة وغنى، وان الواجهات المختلفة التي ارتأينا الوقوف عندها، واجهات متكاملة، عناصرها متلاحمة متناسقة لا يمكن أبدا أن نفصل بينها، لأنها تنسجم مع شخصية العلاّمة عباس التي قدحت زناد كل اختصاص[64] ومع مدرسته «العباسية» التي أصبحت معروفة بـ «أصولها الثابتة، وقواعدها الراسخة، وتلاميذها في كل مكان»[65]، لهذه الاعتبارات وغيرها، بادرت حاضرتان خالدتان وقلعتان عظيمتان بتكريم عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، والاشارة هنا الى مراكش[66] الحضارة، وفاس[67] العلم، ويكفي أستاذنا فخرا أن التكريم جاء من قلب هذين المعقلين الكبيرين، فمراكش وفاس لولاهما لما ذكر المغرب، وبتكريم العلاّمة الجراري في تربتيهما، كأن نسائم التكريم هبت عطورها وعبق عبيرها من جميع تراب المغرب، فهنيئا لأستاذنا بما أعطى وأسدى، وحفظه الله في صحته وبيته، وجزاه الله أوفى الجزاء، وبارك في تواضعه وعلمه وعلو نجمه، ولنردد في نهاية هذا المقال مع الشاعر قوله :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا   فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى   ويدنو الضوء منها والشعاع

الهوامش :

(1)سورة ابراهيم : الآية 24.

(2) عبد الله الجراري : «هذه مذكراتي». (مرقون). ج. 1. ص. 1.

(3) نفس المرجع السابق. ج. 1. ص. 4.

(4) من أجل توسيع دائرة الاطلاع، انظر عباس الجراري : «العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري». (سلسلة شخصيات مغربية). العدد السابع. مطبعة النجاح الجديدة. البيضاء. 1983. ص.13 .

(5) مصطفى الجوهري : «عبد الله بن العباس الجراري الأديب». منشورات النادي الجراري. 4. 1995، ص.10 .

(6) نفسه، ص، 29.

(7) نفس المرجع السابق.

(8) من اشراقات قلم الكاتب : الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي ، «القصيدة» (الزجل في المغرب)، «من وحي التراث»، «الحرية والأدب»، «الثقافة في معركة التغيير»، «موشحات مغربية»، «من أدب الدعوة الإسلامية»، «في الشعر السياسي»، «ثقافة الصحراء»، «النضال في الشعر العربي بالمغرب»، «قضية فلسطين في الشعر المغربي»، «وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ»، «عبقرية اليوسي»، «صفحات دراسية من القديم والحديث»، «فنية التعبير في شعر ابن زيدون»، «معجم مصطلحات الملحون الفنية»، «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه»، «الفكر الإسلامي والاختيار الصعب»، «في الإبداع الشعبي»، «العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري»، «بحوث مغربية في الفكر الإسلامي»، «الثقافة من الهوية الى الحوار»، «معركة وادي المخازن في الأدب المغربي»، «أثر الأندلس على أوربا في مجال النغم والإيقاع»، «الفكر والوحدة»، «معالم مغربية»، «خطاب المنهج»، «مع المعاصرين»، «صبابة أندلسية».

(9) للمزيد من التفصيل انظر : ذ. عبد المجيد عينية : «معالم الحضور المغربي في الأدب والفكر والسياسة كما يراها الدكتور عباس الجراري». حوليات كلية اللغة العربية (عدد خاص بتكريم الدكتور عباس الجراري. العدد الثاني1993 - 1414 . ص، 27 وما بعدها.

(10) من أجل توسيع دائرة الإطلاع راجع ذ. مصطفى الجوهري : «الدكتور عباس الجراري وجهوده في البحث في أدب الغرب الإسلامي». (ملامح الشخصية والمنهج». نفس المرجع السابق. ص. 125 وما بعدها.

(11) ذ. سعيد الأيوبي : «اسهام الدكتور الجراري وجهوده العلمية في خدمة التراث العربي». (قراءة في كتابه «من أدب الدعوة الإسلامية»). نفس المرجع السابق. ص. 41.

(12) ذ. مصطفى الجوهري : الدكتور عباس الجراري وجهوده في البحث في أدب الغرب الإسلامي». نفسه. ص. 127.

(13) طالع. ذ. عباس الجراري : «خطاب المنهج». منشورات النادي الجراري : 8 ، رجب1416

هـ. دجنبر 1995 م. (طبعة ثانية مزيدة)، ص، 83 وما بعدها.

(14) انظر : د. عباس الجراري : «خطاب المنهج»، ص، 131.

(15) انظر المرجع السابق. ص. 132.

(16) من أجل توسيع دائرة الإطلاع راجع : د. محمد خليل : «جهود عباس الجراري في تكوين الباحثين الجامعيين». حوليات كلية اللّغة العربية (عدد خاص بتكريم الدكتور عباس الجراري). العدد الثاني1993 - 1414 . ص.20 - 19 .

(17) د. محمد خليل : «جهود عباس الجراري في تكوين الباحثين الجامعيين». ص. 21.

(18) راجع : د. عباس الجراري : «خطاب المنهج». ص. 135.

(19) ظل مستمرا في أداء رسالته العلمية بدار فقه المغرب (فاس)، وملتصقا بطلبة السلك الثالث لأزيد من عشر سنين. للمزيد من التفصيل راجع : «خطاب المنهج». ص. 136.

(20) كان نموذجا للأستاذ العالم، والأب الرحيم، والراعي المسؤول، والمربي الفاضل، والصديق الحميم...

(21) طالع : «جهود عباس الجراري، في تكوين الباحثين الجامعيين». حوليات كلية اللّغة العربية. العدد الثاني1993 - 1414 . ص. 23 - 22 - 21.

(22) مؤلف للدكتور عباس الجراري، صدرت طبعته الثانية المزيدة في شهر رجب1416 هـ. دجنبر1995 م. انظر ص141 . وما بعدها.

(23) بلغ عددها مائة وخمسة عشر رسالة نوقشت منها خمس وستون. أنظر : «خطاب المنهج». ص.150 وما بعدها.

(24) أشرف الدكتور عباس الجراري على خمسين أطروحة نوقشت منها واحد وعشرون وهي موزعة عبر كلية آداب الرباط وكلية آداب فاس وكلية آداب مكناس وكلية آداب المحمدية وكلية آداب أكادير ودار الحديث الحسنية وجامعة عين شمس بمصر. طالع : «خطاب المنهج». ص. 142 وما بعدها.

(25) د. محمد الكتاني : «كلمة بمناسبة تكريم الأستاذ الدكتور عباس الجراري». حوليات كلية اللغة العربية. (عدد خاص بتكريم الدكتور عباس الجراري). العدد الثاني1993 - 1414 . ص320 - 319 .

(26) د. محمد خليل : «جهود عباس الجراري في تكوين الباحثين الجامعيين». مرجع سابق. ص. 21.

(27) نفسه.

(28) كانت آخرها أطروحة جامعية نوقشت بكلية آداب مكناس بمدرج الامام مالك يوم الثلاثاء 2 يوليوز1996 ، أنجزها الطالب علال معكول لنيل دكتوراه الدولة في الآداب «تخصص الأدب المغربي والأندلسي»، في موضوع : «النثر الأدبي في المغرب في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني»، ولقد تكونت لجنة المناقشة من الدكتور عباس الجراري رئيسا والدكتور محمد السرغيني مقررا والدكاترة محمد الكتاني وابراهيم السولامي وسعيد الأيوبي واحمد الدويري أعضاء.

(29) نسبة الى العلامة عبد الله الجراري الذي أسسه على تقوى من الله سنة1930 م. من أجل توسيع دائرة الاطلاع، انظر : ذ. مصطفى الجوهري : «عبد الله بن العباس الجراري الأديب». مرجع سابق. ص. 67 - 66.

(30) سنة 1995.

(31) عنونها بـ «مقامة الاغتباط بذكر ما جرى بين سلا والرباط».

(32) عنونها بـ : «من وحي الرياض في الذود عن الحياض».

(33) الاشارة هنا الى الدكتور محمد المختار ولد باه (بدون عنوان)،
والدكتور علال الغازي (أصوات للوفاء)،
والشاعر محمد بن الراضي (سلاف النهر ورضاب الثغر)
والأستاذ بنسليمان جمال (تقرير مختصر لما تم عرضه من فكر ومستملحات ودرر).

(34) ذ. عبد اللطيف أحمد خالص : «الدكتور أبو الفضل عباس الجراري أو مذكي جذوة الوعي الثقافي في بلادنا». حوليات كلية اللغة العربية. مرجع سابق. ص. 344.

(35) بدأ العبء بعد مرض رئيس المجلس السابق العلاّمة الشيخ محمد المكي الناصري، مما حدا بوزير الأوقاف – بعد الاتفاق مع الشيخ المرحوم – الى تعيين الأستاذ الجراري نائبا للرئيس، وبلغ ذروته بعد أن عين الأستاذ الجراري رسميا بأمر ملكي بناء على رسالة وزارية مؤرخة في 22 ذي الحجة1415 هـ02 يونيو1994 ، وهي مهمة جسيمة انضافت الى مهام جسام أخرى حملها أستاذنا العلاّمة بأمانة واخلاص (التدريس + الاشراف على الرسائل والأطاريح الجامعية + التأليف + المشاركة في الندوات + الخطابة بمسجد سكينة + عضوية أكاديمية المملكة المغربية + ...).

(36) تم التعيين برسالة وزارية مؤرخة في 15 رمضان1414 هـ26 فبراير1994

(37) يوجد المقر الجديد للمجلس العلمي بباب شالة أمام مدارس محمد الخامس (المدينة العتيقة) بالقرب من المسجد الأعظم، ولقد فتح أبوابه بعد حفل التدشين الذي حضره وزير الأوقاف يوم الجمعة29 جمادى الأولى1415 / 4 نونبر1994

(38) نشير فقط الى محاضرتين بليغتين : محاضرة : «قراءة في بعض مشاكل الأسرة» ألقاها الدكتور أحمد الخمليشي – عضو المجلس العلمي – عشية الأربعاء15 ذي القعدة1414 هـ موافق27 أبريل1994 بدار الشباب بمدينة الخميسات، ومحاضرة : «الضوابط الشرعية لبناء الأسرة الصالحة». ألقاها الدكتور عمر الجيدي – أستاذ بدار الحديث الحسنية – عشية الاثنين27 ذي القعدة1414 هـ موافق03 ماي1994 بقاعة المركز الثقافي بمدينة تمارة.

(39) تكفي الاشارة الى اجتماع الوعاظ والمرشدين العاملين في الاقاليم التابعة للمجلس الذي عقد يوم السبت27 شوال1414 هـ الموافق09 أبريل1994 .

(40) هذه الروح عبر عنها بوضوح رئيس المجلس الجديد في الكلمة التي ألقاها يوم تعيينه بشكل رسمي، والتي وعد فيها الحضور بـ «أن يكون المجلس في نشاط علمي دائب، مفتوحا لجميع الرواد على اختلاف فئاتهم، قائما برسالته التثقيفية على النحو المطلوب».

(41) انظر نص الكلمة التي ألقاها رئيس المجلس الجديد بمناسبة تعيينه بالكتابة العامة للمجلس والتي عرض فيها لأهم المرامي التي يهدف المجلس بلوغها والوصول اليها.

(42) نظمت بمقر المجلس ولقد جرت يومي : 13 - 12شعبان 1415 الموافق 14 يناير و15 يناير1995 .

(43) نظمت في23 رجب 1416 الموافق16 دجنبر1995 .

(44) نظمت في حلقتين. جرت الأولى بالمسجد الأعظم يوم الأربعاء 23 شعبان1415 هـ الموافق 25 يناير1995 . ونظمت الحلقة الثانية في السنة الموالية.

(45) كان يضم جامعيين وقضاة ومسؤولين. ولقد أثيرت مسائل تتعلق بالمذاهب الفقهية والاجتهاد وبالعمل الاسلامي. حصل هذا بتاريخ19 أكتوبر1995 .

(46) جرى الاستقبال بتاريخ 22 جمادى الثانية1416 هـ الموافق23 نونبر1995 . ولقد غلبت على النقاش قضية المذاهب وموضوع البنوك الاسلامية وتعليم اللّغة العربية لغير الناطقين بها.

(47) جرى الاستقبال بتاريخ29 جمادى الثانية1416 هـ الموافق23 نونبر1995 م وكان محور النقاش موضوع التخطيط العائلي وتحديد النسل واستعمال العوازل الطبية.

(48) ألقت المحاضرة الأستاذة كريمة بوعمري بمركز التربية والتشغيل في حي السلام بمدينة سلا يوم29 جمادى الأولى1416 هـ الموافق25 أكتوبر1995 .

(49) رمضان1415 هـ.

(50) ألقاها الأستاذ عبد القادر العافية بتاريخ 15 يناير1996 .

(51) ألقاها الأستاذ عبد القادر العافية بمدينة الصخيرات يوم 17 يونيو1996 .

(52) ألقاها الأستاذ عبد الله اكديرة بمدينة القنيطرة يوم 17 يونيو1996 .

(53) ألقاها الأستاذ محمد برو بمدينة تمارة يوم 20 يونيو1996 .

(54) ألقاها الأستاذ سعيد بوركبة بمدينة سلا يوم 20 يونيو

(55) ألقاها الدكتور أحمد الخمليشي ببلدية سلا يوم5 ذي القعدة1415 هـ الموافق 5 أبريل 1995.

(56) ألقاها الدكتور عباس الجراري بقاعة المجلس العلمي للعدوتين بتاريخ7 محرم1416 الموافق 6 يونيو1995 .

(57) ألقاها الدكتور ابراهيم حركات بقاعة المجلس العلمي للعدوتين بتاريخ 20 رجب الموافق 13 دجنبر1995 .

(58) ألقاها الدكتور محمد الروكي بقاعة المجلس العلمي للعدوتين بتاريخ28 صفر1416 هـ الموافق27 يوليوز1995 .

(59) جرت فصولها يوم فاتح صفر1416 هـ الموافق30 يونيو1995 م بقاعة المجلس، شارك فيها الأساتذة محمد فاروق النبهان، وأحمد الخمليشي ومحمد حكم وعبد الحميد عواد ومحمد باية، وأدارها رئيس المجلس.

(60) نظمت بقاعة المجلس العلمي للعدوتين بتاريخ13 شعبان1416 هـ الموافق4 يناير1995 ،

شارك فيها الأساتذة محمد ميكو وأحمد الخمليشي وعبد العلي العبودي ومحمد حكم والسعدية بلمير.

(61) نظمت بقاعة المجلس يوم14 شوال1415 هـ الموافق15 مارس1995 ، شارك فيها الأساتذة الفقيه محمد حكم وعبد المجيد عينية ومصطفى الجوهري ومحمد احميدة وأدارها رئيس المجلس. 1996.

(62) من الأصوات الطيبة التي كانت تحث على القيام بهذا العمل النبيل الأستاذ عبد اللّطيف أحمد خالص.

(63) يجب أن لا يفهم من هذا أن هذه الثورة لها حد سلبي فقط، بل نجدها تتضح بالكثير من الايجابيات خاصة في المجالات الكتابية والسمعية والبصرية. من أجل توسيع دائرة الاطلاع، انظر «الاتحاد الاشتراكي» (ملحق اذاعة وتلفزة). العدد 28. 25 غشت 1996. ص. 5.

(64) راجع ذ. مصطفى الجوهري : «الدكتور عباس الجراري : ملامح الشخصية والمنهج». مرجع سابق. ص. 127.

(65) محمد الظريف : «قراءة في كتاب صبابة أندلسية». مجلة «المناهل». العدد51 يونيو1996 . ص367 .

(66) نقصد الندوة التكريمية التي نظمتها كلية اللّغة العربية بمراكش لتكريم الدكتور عباس الجراري، والتي جرت فصولها أيام 12 - 13 - 14 نونبر1992 .

(67) نعني الملتقى الشعري الثامن في فاس، والذي عقد أيام 24-25-26 ماي 1996 والتي عرف تكريم الدكتور عباس الجراري بأعتباره رمزا من رموز الدراسة الأدبية المنصبة على الشعر المغربي.

* * *

قضايا ومواقف في صبابة أندلسية

عبد الحق بنطوجة(*)

تقديم :

لعل الحديث عن الأندلس وحضارتها، يلفه شعور من الحسرة والتأسي على فقدانها واندثار معالمها التي كانت في يوم من الأيام ترفل في أحضان العروبة والإسلام، وتعج أبهاء قصورها الخالدة بمحافل الشعر والأدب وما إليهما من فنون أخرى.

وليس من شك، أننا كمغاربة أقرب إلى الاكتواء بهذا الشعور من غيرنا، نظرا لمتانة الروابط التي ربطتنا وإياها عبر أحقاب زاهرة من التاريخ. وهي أحقاب عملت عملها في توثيق عرى هذه الروابط، والدفع بها إلى درجة الانصهار والاندماج، حتى أنه أصبح من الصعوبة بمكان - تاريخيا - الفصل بين العدوتين والتفريق بين أوجه حضارتهما وثقافتهما. ومن ثمة، فإننا اليوم، نحرص أشد مايكون الحرص على استلهام جوانب من هذه الحضارة - عبر بحوث ودراسات ترتجي الموضوعية ولا تبغي الاعتساف -، لاعتقادنا مخلصين، بأنها تشكل جزءا من تاريخنا المشترك، وحياتنا الماضية الناجزة.

وانطلاقا من هذا الشعور أو المعطى، يأتي مؤلف الدكتور عباس الجراري (صبابة أندلسية)[1] ليزكي هذا الطرح الذي نذهب ونميل إليه.

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

وليس من شك، أن الدكتور الجراري - وهو الخبير في الدراسات المغربية الأندلسية - كان يعي تمام الوعي وبحس منهجي مسؤول، الدور الكبير الذي لعبه المغرب وأمراؤه في الحفاظ على الأندلس وحضارتها ضد هجمات النصارى المتكررة، بدءا بالمرابطين وقائدهم العظيم يوسف ابن تاشفين، ومرورا بالموحدين وخلفائهم، وانتهاء بالمرينيين والوطاسيين الذين أفل نجم الأندلس في عهدهم.

لقد وفق الدكتور الجراري في تطريز عنوان مؤلفه هذا، ب (صبابة أندلسية)، حيث حدد لنا بواعث اختياره لهذا العنوان بقوله:" وإنه لعنوان ذو دلالة في ذهني، لعلها أن تكون في ذهن القارئ كذلك، توحي بها الصبابة بضم الصاد - إذ تعني في مفهومها الحقيقي ذلكم الشيء اليسير الذي يبقى في الإناء بعد الشراب بمقدار ما يمكن صبه. وهي عندي في معناها المجازي المساير للسياق الذي أقصد إليه، ترمز إلى ما تبقى من الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، مما يتصاببه العرب والمسلمون متلذذين منتشين تارة بما خلفوا في هذا الإقليم من حضارة وثقافة، وآسين أسفين تارة أخرى على الفردوس الذي فقدوه"[2].

وقد توزعت الكتاب مباحث حيوية لأهميتها في بلورة جملة من القضايا السياسية والفكرية والفنية التي عززت الاتصال بين العدوتين عبر قرون متعددة.

وقد خاض فيها الدكتور الجراري - كعادته دائما - بروح علمية تتوخى الدقة والموضوعية، مغترفا من المصادر الموثوق بأصحابها لتعزيز ما يذهب إليه من نظرات حول هذه القضايا الشائكة.

وهكذا، سنعمد في هذا الحيز المحدود إلى تتبع مفاصل هذا المؤلف ومباحثه الأساسية، ومحاولة قراءتها والنظر إلى محمولاتها الإشكالية، وفق الترتيب المنهجي الذي وضعه لها المؤلف.

غائية التأليف :

وبدءا، تأخذنا فقرات مقدمة الكتاب إلى تحديد غائية التأليف لدى المؤلف، ومحاولة تلمس الدوافع المصاحبة لها، فهي وإن ارتبطت من جهة عند المؤلف بذلك الحس القومي التاريخي الذي يجذبه - ويجذبنا معه جميعا - نحو الفردوس المفقود (اسبانيا والبرتغال)، فقد ارتبطت عنده من جهة ثانية بمهمة " إنصاف لشخصية يوسف بن تاشفين من الحيف الذي تعرض له اسمه على امتداد التاريخ ومازال يتعرض له كلما ذكر أو ذكرت دولة المرابطين، لا سيما حين يثار اتجاهها الفقهي ودورها في الأندلس وماكان لابن تاشفين مع أمراء الطوائف وابن عباد على الخصوص"[3].

وهنا يأخذنا الدكتور الجراري عبر مبحث مستقل اختار له عنوان (قضايا مرابطية في منظور بعض المستشرقين) للوقوف على ادعاءات بعض المستشرقين ومن اقتفى نهجهم من العرب المحدثين ضد المرابطين واعتمادهم الكلي على الإصلاح الديني والفقه المالكي، وما نتج عن ذلك من ضعف للفكر وانحطاط للأدب في عهدهم.

ولعل السؤال المركزي الذي يفرض نفسه في هذا السياق، هو إلى أي حد يمكننا تصديق هذه الروايات الادعائية الاستشراقية ضد المرابطين!؟ خاصة وأنها كانت " صادرة عن دوافع دينية ووطنية زادت شحنها بما قوى حدتها " [4].

المرابطون والنهضة الفكرية :

إن قيام المرابطين على مبادئ الإصلاح الديني، وانطلاق دولتهم من رباطات العلم والمعرفة، كان أمرا حتميا تقتضيه طبيعة وتكوين الدولة المرابطية وسلوك أمرائها وملوكها." فكان طبيعيا ـ والمرابطون يقيمون إصلاحهم على المذهب المالكي ـ أن يعتمدوا فقهاءه بدءا من الداعية عبد الله بن ياسين إلى أولئك الذين تحملوا مسؤولية تسيير الدولة، علما بأن مفهوم (الفقيه) لم يكن قد حيا ـ كما هو اليوم ـ إذ كان يومئذ وصفا للعالم المتمكن من فقه المذهب وغيره، وسمة رفعة وتشريف كذلك "(5).

ومن هنا، فإننا لا نستغرب أن يتبوأ الفقيه المنزلة العليا وينال في ظل هذه الدولة رتبة المسؤولية. فقد كانت مراتب القضاء تسند إلى الفقهاء، ولم يكن هذا لينتقص من شأن المرابطين لولا الحملة الشنعاء التي شنها بعض الشعراء الذين عاشوا في هذه الفترة، نتيجة لتقلص ظل الشاعر ولجوئه إلى الكدية والاستجداء (6).

وعلى عكس ما حملته الأطروحات الاستشراقية ضد المرابطين حول ضعف الفكر والأدب في هذا العهد، فقد خلص الدكتور الجراري إلى أن المغرب والأندلس عرفا نهضة شاملة في ظل المرابطين مست مجالات معرفية مختلفة ومتعددة في نفس الآن، تتراوح بين العلوم الدينية والعلوم اللغوية والفلسفة والطب والحساب وغيرها. مما يبرهن بجلاء عن مدى الشأو الكبير الذي بلغه الفكر في الأندلس والمغرب في هذه الفترة.

حول فقهية الأدب وقضية المعتمد بن عباد :

ومن ثمة، ينقلنا الدكتور الجراري عبر سؤال عريض يتحدد في مدى تأثير فقهية المرابطين في الأدب، وذلك من خلال الوقوف على مسائل ثلاث: الأولى : معاملة المرابطين للمعتمد بن عباد، وهي مسألة يراها الدكتور الجراري مقحمة على الأدب، لأنها قضية سياسية أولا وأخيرا، ولا مجال لإقحامها في الشعر." فهي حين تطرح على بساط التحليل السياسي المرتبط بما آلت إليه أوضاع الأندلس في ظل المعتمد وصحبه من أمراء الطوائف لا يكون لها أي مبرر للطعن في سلوك ابن تاشفين. أما حين تعرض على بساط الشعر فإنها تجد مرتعا للطعن في معاملة ابن تاشفين له. وهذا ما يجعلها مسألة شعرية أولا وقبل كل شيء"(7).

ولاندري إلى أي حد يمكننا تصديق الروايات الأندلسية بشأن قصة المعتمد مع يوسف بن تاشفين، وإن كنا نرى أن المبالغة قد لفتها لفا وحاكت بردتها حياكة !؟

لقد اختلف النقاد في تحديد منزلة المعتمد بن عباد الملك الجليل والعالم الذكي، والشاعر المحسن الذي مثل ذؤابة الأرومة العربية في الأندلس. وكان علم ثقافة فكرية وقومية قدر لها أن تنطوي قبل أن تؤدي دورها الحاسم في مصير شبه جزيرة إيبيريا.

ولكن من الإنصاف التأكيد هنا، على أمرين اثنين : أولهما أن المعتمد لم ينطو تحت ظل المرابطين كما يقول دوزي، بل كان انهيار ملكه نتيجة حتمية لشعب أفسد الترف طبعه، ولسوء الوضع السياسي والإداري في البلاد التي كتبت صفحة خالدة في التاريخ العربي.

وثانيهما، أن يوسف بن تاشفين بقضائه على ملوك الطوائف ـ الذين كان في " تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفقوا سوق العلوم وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم "[8] ـ أخر سقوط الأندلس العربي في أيدي الإسبان نحوا من أربعة قرون، محافظا بذلك على المجد العربي في هذه الديار التي ضاعت وبكاها أبو البقاء الرندي كما بكاها كل العرب وكل المسلمين.

ثم إننا لنستغرب غاية الاستغراب من هؤلاء المتحاملين على المرابطين وأميرهم ابن تاشفين، ومعاملته للمعتمد. إذ أن هذا الأخير، كان له موقف أدهى وأمر مع شاعره ابن عمار الذي قال فيه قصائد " لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره أو إلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع"[9]. ومع ذلك فقد قتله بيديه كما يحكي صاحب المعجب.

الثانية : اتهامات باطلة في حق المرابطين ترميهم " بقلة المعرفة وانحطاط الذوق "[10] وهي اتهامات لا يسع الدارس الموضوعي إلا أن يتحفظ في قبولها، لا سيما وأنها " تدخل في نطاق محاولة إبراز فضل الأندلس على المغرب مع كل ما يبرر هذا الهدف من مبالغات، وإن زادت على الحد كما عند الشقندي "[11] ـ الذي تناول شخصية يوسف بن تاشفين محاولا النيل منها والتنقيص من قيمتها. علما أن يوسف بن تاشفين كان تلميذا في رباط عبد الله بن ياسين الديني المتشبث بالأصولية الشرعية، مما هيأه ليكون " كفوءا من الوجهتين النظرية والعلمية للمهمة العظمى التي أسندت إليه وقام بها خير قيام"[12].

وتحكي لنا أسفار التاريخ أنه بدخول الأندلس تحت سيطرة المرابطين، انتقل مركز الثقل إلى العاصمة مراكش، فاستقطبت العلماء والأدباء الذين قصدوها من جميع أنحاء الأندلس " وانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"(13).

والمسألة الثالثة التي طرحها الدكتور الجراري قيد المناقشة، في محاولة لإزالة الكثير من الالتباسات التي رانت حولها، هي ظهور فني التوشيح والزجل في هذه الفترة، معتبرا ازدهارهما في ظل المرابطين دليلا على الرغبة في التطوير والتجديد والقدرة عليهما. كما اعتبرهما أيضا مرآة صافية لتجذر اللغة المدرسية في الألسنة والأفهام والأذواق.

ومجمل القول أن هذه الاتهامات جاءت تعريضا بالمرابطين ومن ورائهم أهل بر العدوة. فأغلب التراجم الأندلسية، وخاصة منها ما كتب بعد دخول المرابطين جزيرة الأندلس قاسية على الذين عبروا إلى الجزيرة من الضفة الأخرى. وقد سبق للشقندي أن تهكم على يوسف بن تاشفين والملثمين بصورة عامة.

تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين :

جاء هذا المبحث لمحاولة رصد مظاهر تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، وهو تطور يرى الدكتور الجراري - أنه مس جوانب متعددة وتجلى في مظاهر كثيرة، بعضها كان متأثرا بالتيار المرابطي، وبعضها كان منطلقا من هذا

التيار. ففي مجال الشعر مثلا، لم يكن غريبا أن تأخذ موضوعات كاللهو والمجون والخمر في الضعف والأفول، لأنها اصطدمت بواقع جديد توجهه معايير دينية وخلقية صارمة تغاير كل المغايرة ما كان سائدا عهد ملوك الطوائف. على أن أهم مظهر لتطور الشعر وازدهاره في هذه الفترة، هو ظهور شعر المعارضة السياسية والفكرية والذي تمثل - كما يرى الدكتور الجراري - في أربع واجهات :

* ضد الطوائف
* ضد المرابطين
* ضد الفقهاء
* واجهة التعاطف مع المعتمد.

ولعل هذه الواجهات الشعرية المتباينة تنبئ لنا عن طبيعة الأجواء السياسية والفكرية في هذا العهد، وما يكتنفها من حرية في التعبير والقول. وهو أمر يدحض مختلف الأطروحات الاستشراقية التي صدرت ضد المرابطين " تدينهم - لصحراويتهم وفقهيتهم - بعدم العناية بثقافة الأندلس وحضارتها، وترميهم بالعجز عن هضمهما والعمل على تحطيم ما عرفته الأندلس في هذا المضمار من قبل" (14).

والواقع أن عناية المرابطين بمختلف الفنون والعلوم والآداب كانت عناية فائقة، حيث برز في عهدهم أدباء أندلسيون نعموا بالكتابة في دواوينهم، ونالوا عندهم حظوة عظيمة.

على أننا - ونحن في معرض الحديث عن تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين - لابد أن نشير إلى ماكانت تستلزمه الظروف السياسية والاقتصادية آنذاك من صرف الاهتمام إلى تحصين البلاد وترميم الحصون وتسليح الجند،

وهذا ماكان يشغل بال المرابطين، وما صرفوا إليه عنايتهم، بالإضافة إلى سياسة الدولة الأساسية القائمة على سياسة التقشف التي بنت أركانها القوية على أساسها. ومتى استطعنا تفهم هذه السياسة المرابطية، أدركنا سبب عزوف الأمراء المرابطين ـ وخاصة ابن تاشفين ـ عن الشعر والشعراء وإقامة محافل لهم. وهذا ما تنبه إليه الدكتور إحسان عباس محاولا أن ينصف عصر المرابطين في قوله :

" ومهما نحاول أن ننصف عصر المرابطين بالمقارنة مع عصر الطوائف، فلا بد من أن نقر بأن شيئا من الاهتزاز قد أصاب القيم التي ينظر بها رعاة الأدب من الشعراء. وأن هذا الاهتزاز يرجع إلى عدة عوامل منها الاختلال السياسي في عصر ملوك الطوائف نفسه، ومنها الالتفات إلى الجهاد في عصر يوسف بن تاشفين بخاصة واعتباره الغاية الأولى في الدولة، واصطباغ الدولة بالصبغة الدينية، وضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر البليغ وبين الشعر نفسه. ولكنا أيضا يجب أن نقدر أن هذا قد أصاب النظرة إلى الشعر والأدب في عصر الطوائف، وبدأ قبل حلول المرابطين"[15].

موضوعات أندلسية صرف :

وتمشيا مع الخطة التي رسمها الدكتور الجراري في مقدمة كتابه هذا، يصل بنا للحديث عن موضوعات أندلسية صرف، تدخل في إطار البرهنة والتدليل على ما أدركته الأندلس الإسلامية من تطور في مجالات مختلفة كالتسامح الديني والموسيقى والغناء.

إن التعدد والتنوع صفتان تسمان المجتمع الأندلسي في مختلف مظاهره، سواء منها الطبيعية أو البشرية أو الثقافية. ومن ثم يحاول الدكتور

الجراري أن يستجمع لنا مختلف هذه العناصر وفق متابعة متأنية ورصد محكم لأهم ملامح هذا التعدد والتغاير في المجتمع الأندلسي، محددا إياها عبر الإشارات التالية :

ـ تنوع طبيعة الأندلس

ـ اعتبارها ملتقى أجناس مختلفة

ـ وجود طبقات اجتماعية تختلف الواحدة منها عن الأخرى سواء في مستوى عيشها أو أشكال تعاملها .

ـ ظهور تيارين مغايرين : تعبدي زاهد أخذ على عاتقه نقد المجتمع والسياسة من أبرز شعرائه السميسر وابن العسال.

وتيار ماجن متهتك انصرف إلى اللهو والدعة ويمثله كل من ابن زيدون والمعتمد وابن خفاجة.

ـ تساكن المسلمين بغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، مما " يكشف عن تسامح ديني نادر لأنه سمة حضارية وثقافية من حيث أنه يدل على وعي حضاري وثقافي يمثل درجة متطورة ومتقدمة بل راقية في مضمار التعايش والتساكن والتآلف إلى حد الاندماج والانصهار."[16].

وقد صور الشعر جوانب من هذه الظاهرة الفريدة في أبعادها المختلفة انطلاقا من المظاهر التالية :

* تغزل المسلمين في بعض النصرانيات على نحو ما تغزل به أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد في نصرانية بالذات هي نويرة.

* تبريز اليهود في الثقافة العربية وعنايتهم بها مثل إسحق بن شمعون اليهودي القرطبي الذي أبدع قصائد رائعة، واسماعيل بن يوسف بن النغريلة الذي كان " كذلك شاعرا يقرض بالعبرية، وتعد خمرياته فيها من عيون الأدب العبري"[17].

* ما كان لغير المسلمين ـ واليهود منهم خاصة ـ من نفوذ كبير في شؤون الدولة على غرار ما بلغه صمويل اللاوي ابن يوسف بن النغريلة الذي عينه باديس بن حبوس وزيرا له نفوذ في الأمور الداخلية والخارجية، بل حمله حتى شؤون الحرب.

وهكذا نستطيع أن نخرج من هذا السياق بملاحظة، مفادها أن المجتمع الأندلسي بروافده الأجناسية المختلفة قد حقق طفرة نوعية في التسامح الديني، وهو ما يسر له أن يحافظ على وحدته وتكامله، من دون أن يكون هذا التسامح على حساب المس بالعقيدة والمقدسات الإسلامية.

ولعل الكونت سيركور Comte de circourt كان محقا حينما ذهب إلى القول في كتابه : تاريخ عرب اسبانيا Histoire des arabes d'espagne بأن عرب اسبانيا اتخذوا التسامح أساسا لحكمهم وسيطرتهم، وقد تسامحوا مع رعاياهم المسيحيين في كل شيء: الدين والمؤسسات العامة والتقاليد والأخلاق"[18].

ودائما، وفي إطار الحديث عن الأندلس وحضارتها، ومظاهر هذه الحضارة، جاء المبحث الموالي ليكشف عن مكون أساسي من مكونات الحياة في الأندلس وهو المرتبط بفن الموسيقى والغناء ومدى أهميتهما في تكوين هذه الحضارة.

لقد تناول الدكتور الجراري هذا الموضوع، وذلك من خلال التركيز على مايلي :

ـ تحديد المراحل التطورية التي اجتازها فن الغناء والموسيقى بالأندلس قبل أن يحرز كيانه ويستقل بذاته. وهي مراحل تتراوح بين التراث المحلي النصراني الذي كان شائعا أيام الفتح الإسلامي، وبين مختلف الإيقاعات العربية المشرقية التي انتقلت إلى الأندلس، لاسيما ماجاء به موسيقي بغداد زرياب الذي هاجر إليها ووجد مجده الفني في قصورها. ثم بين ما أبدعه علماء الأندلس وفنانوه في هذا المضمار، سواء على المستوى النظري أو التطبيقي.

ـ إبراز أشكال اغتناء هذا الفن بعد اكتمال نهضته.

وقد أفاض الدكتور الجراري الحديث عنها، محددا إياها في اتجاهين :

شعبي يعتمد العفوية والتلقائية، وهو شكل متنوع ومتعدد في آن معا، يأخذ في التأثر والتأثير.

ومدرسي ينبني أساسا على التنظيم المحكم لهذا الفن من حيث الخوض والتأليف فيه، وذلك " في نسق تشكيلي متطور عما كان شائعا من أنماط محلية متداولة"(19)

– تحديد عوامل ازدهاره وتداوله بين أوساط طبقات المجتمع. ولعل أهمهما اثنان :

الأول : نبوغ جوار ماهرات في الأداء استطعن أن يحتلن مرتبة في الغناء والعزف على العود. وقد ساعد على ظهورهن وجود مراكز لتعليمهن وتكوينهن في مختلف فنون الآداب.

الثاني : التوسل بآلات كثيرة ومتنوعة في العزف والأداء وهي آلات رافقت تطور هذا الفن بالأندلس منذ بداياته الأولى.

ـ تأثيرات هذا الفن وامتدادها عبر الأقاليم المجاورة والنائية. ولعلنا في غير حاجة إلى التذكير بدور الموسيقى الأندلسية بالمغرب، فقد ظلت محافظة على أصلها الحقيقي وطلاوتها الطبيعية، ممثلة لنا بذلك براعة الأندلسيين وماكانوا عليه من تقدم علمي وأدبي.

المغرب والبرتغال :

وإذا كانت الأندلس قد ارتبطت تاريخيا بالمغرب منذ المرابطين وحتى نهاية الوجود العربي بها، فإن البرتغال (الجانب الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية) تشكل هي الأخرى وجها آخر من هذا الترابط التاريخي القائم على " معالم ثابتة واضحة ينتهي إليها ويستعيد ما تحمل من ذكريات كل من وقف عليها واستنطقها، بالإضافة إلى من يقرأ عنها في صحائفه ووثائقه"[20].

من هنا، تناول الدكتور الجراري عبر مبحث مستقل صفحات من التاريخ المشترك المغربي البرتغالي، وذلك من خلال التركيز على جانبين :

ـ تاريخي يقوم على تبيان أوجه الترابط التاريخي بين البلدين، وهو ترابط يسير في اتجاهين مضادين:

* اتجاه عربي إسلامي أخذ انطلاقته الأولى من الجنوب إلى الشمال مع الفتح الإسلامي للأندلس، وهو اتجاه أفرز لنا جوانب حضارية وثقافية " كيفت شبه الجزيرة الايبيرية بملامح متفردة لم تفقد تميزها على توالي الأزمنة والعصور"[21]

* واتجاه معاكس للأول تمثله الحملات البرتغالية التي كانت توجه باستمرار لاحتلال بعض شواطئ المغرب ومدنه الساحلية.

ـ ببليوغرافي حرص فيه على إبراز دور بعض العلماء والمؤرخين البرتغال في مجال التنقيب عن الوثائق والمستندات، ودراسة جوانب من هذه الفترة، وهي وثائق من شأنها أن تنير درب الباحثين المهتمين بالعلاقات المغربية البرتغالية في سبيل استكمال أوجه الترابط التاريخي بشبه الجزيرة الايبيرية.

خلاصات عامة :

وهكذا نستطيع أن نخلص من هذه القراءة إلى تسطير الخلاصات التالية :

ـ إن البحث في الأدب والفكر الأندلسي لا يمكن النظر إليه بمعزل عن السياق العام ـ التاريخي والسياسي ـ الذي رافقه واحتضن أهم قضاياه وظواهره.

ـ يتغيا الدكتور الجراري في هذا المؤلف إلى إزالة الكثير من الأحكام السلبية التي ألصقها بعض المستشرقين ـ ومن لف لفهم من العرب المحدثين ـ بالمرابطين، وحكمهم للأندلس بعد القضاء على ملوك الطوائف.

ـ إن مؤلف صبابة أندلسية يرمز في جانب من جوانبه إلى ذلك الصراع الذي احتدم بين الأندلسيين والمغاربة ـ لا سيما بعد دخول الأندلس رسميا تحت حكم المرابطين ، حيث تولد لدى الأندلسيين شعور بذاتية أندلسية متميزة، فلم ينسوا أن القادمين من بر العدوة، يعاملونهم بنوع من الاستعلاء تشتم منه رائحة الفتح والمن بنشر الدين الإسلامي والثقافة العربية في بلاد تعيش على تخوم النصارى.

ـ إن مؤلف صبابة أندلسية مسكون بكثير من الأسئلة ذات البعد التاريخي والمعرفي، وهي أسئلة رام الدكتور الجراري من وراء طرحها في هذا المؤلف إلى إبراز دور المغاربة عموما والمرابطين خصوصا في النهوض بالحياة الثقافية

والإجتماعية بالأندلس، حيث سعى إلى مناقشتها وفق النظرة الموضوعية بعيدا عن أي تعصب أو انحياز.

* * *

الهوامش

(1) صدر ضمن منشورات النادي الجراري تحت رقم 9 دجنبر 1995
(2) صبابة أندلسية ص 5
(3) نفسه ص 6
(4) نفسه ص 22
(5) نفسه ص 27
(6) نذكر منهم: التطيلي والأبيض واليكي. أنظر أخبارهم في رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي والقلائد لابن خاقان.
(7) صبابة أندلسية ص 37.
(8) نفح الطيب ج 5 ص 190 طبعة احسان عباس بيروت 1968.
(9) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 73 مطبعة الثقافة سلا ـ المغرب 1938.
(10) صبابة أندلسية ص 38.
(11) نفس المرجع والصفحة.
(12) عبد اله كنون: الثقافة المغربية ـ عدد 8 السنة 78 ص 10.9.
(13) المعجب ص 97.
(14) صبابة اندلسية ص 51.
(15) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) دار الثقافة بيروت 1962 ص 77.
(16) صبابة أندلسية ص 71.
(17) نفسه ص 75.
(18) نقلا عن: إشارات حول كتاب محنة العرب في الأندلس قاسم عزيز الوزاني مجلة كلية الآداب مكناس عدد 9 ـ 1995 ص 78.
(19) صبابة أندلسية ص 95.
(20) نفسه ص 112
(21) نفسه ص 111.

* * *

«مشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي في أعمال الدكتور عباس الجراري : إشكالية التنظير وأبعاد الممارسة

محمد البوري(*)

مقدمة

يستهدف هذا البحث دراسة الخلفية الفكرية التي يقوم عليها مشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي، في أعمال الدكتور عباس الجراري. ومنهجه تحليلي تركيبي، ينطلق من قراءة كل المؤلفات التي نشرها الدكتور عباس الجراري، وتفكيكها، وتحديد الأسئلة الرئيسية التي تطرحها، وتجميع الآراء التي تقدمها أجوبة لها، وتركيبها لابراز المواقف الفكرية التي يدافع عنها، وتشكل بالتالي خلفية المشروع الفكرية.

وإذا كان هذا البحث قد تمكن فعلا من تحديد وضبط الأسئلة الفكرية المركزية في هذا المشروع. فابراز طبيعة الأجوبة التي يقدمها، ووضوحها، وعمقها، وتماسك المواقف التي تصوغها والحماس الذي يميز الدفاع عنها، كل ذلك يقتضي أن نورد في متن هذا البحث تلك الأجوبة بعباراتها الأصلية، دون الاقتصار على تلخيصها، أو إحالة القارئ على مضادرها. وهناك سببان آخران يشجعان على الإقدام على هذا الاختيار: أحدما عملي والآخر علمي. ويكمن السبب العملي في الحرص على

* أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط.

تمكين القارئ من استيعاب وتمثل مواقف الدكتور عباس الجراري بسهوله. ومعلوم أن تيسير القراءة مظلب يفرض نفسه دائما على كل بحث جاد. ويرد السبب العلمي إلى حرصنا الشديد على تجنيب هذا البحث شبهة سوء التأويل، وهي تهمة واردة باستمرار في كل تحليل أو قراءة للمواقف الفكرية أو الايديولوجيات...

ولضمان مزيد من الوضوح والموضوعية لهذا البحث قسمنا كل محور من محاوره، أو مكون من مكونات اشكاليته، إلى قسمين متواليين: أولهما لعرض آراء الدكتور عباس الجراري، والثاني لابراز مواقفه الأساسية. وأنهينا المحاور بتعليق تركيبي عام.

وأملنا كبير في أن يكون هذا البحث، قد نجح فعلا، في الكشف عن الأصول الفكرية لمشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي، في أعمال الدكتور عباس الجراري، كشفا سياعد على فهمه بدقة وموضوعية، وتقديره حق قدره، وتعميق النقاش حوله، وبالتالي تطويره وتوسيعه، والاستفادة منه.

* * * *

تعتبر الكتابة التاريخية مظهرا من مظاهر «تطور وعي الانسان بذاته، وبما يجري حوله»[1] سواء أكان مجالها سياسيا أم اجتماعيا أم فكريا أم فنيا، ولذلك فهي تقوم في أساسها على خلفية ايديولوجية، لها أطروحاتها الفكرية التي تؤطرها وتوجهها.

ووراء كل كتابة تاريخية أهدافه ايديولوجيه «لأن الناس لا يكتبون التاريخ من أجل مجرد رغبة في الكتابة، ولا يكون تدوين وقائع الماضي مقصودا في ذاته، بل

يكتب التاريخ دائما في ضوء الحاضر وانطلاقا من شروطه واسئلته، ولا يكتب التاريخ انطلاقا من رغبة في الحصول على معرفة تتعلق بوصف حالة مجتمع ما في ماضيه، أوانطلاقا من رغبة في تأسيس هذه المعرفة فحسب، بل يكتب انطلاقا من الارتباط بأهداف حاضرة في بناء المجتمع، ان للمعرفة التاريخية دائما قيمة بالنسبة لارادة التأثير في سيرورة المجتمع في الزمن الراهن أوهذا ما يؤمل الحصول عليه من تلك المعرفة »[2]

ولاشك أن دراسة هذه الخلفية الايديولوجية ضرورة يفرضها تعدد الكتابات التاريخية وتنوعها وغزارتها. وأمام التراكم العلمي، لابد من مراجعة الأسس الفكرية التي تقوم عليها، والمقابلة بين النظرية والممارسة، أو بين الأطروحة الفكرية والكتابات التاريخية التي تقوم عليها، وكشف ما بينهما من علاقات جدلية أو انعكاسية.

وقبل ذلك،فالوعي بهذه الخلفية الايديولوجية، وتمثل أطروحاتها ونقائضها يمكن مشروع كتابة التاريخ الوطني من التطور. وإذا كان لهذه الكتابة عمق وأثر، فهي مدينة بهما لهذا الوعي، لأن تلك الخلفية «لا تؤثر في الرؤية – التي تتحكم في الكتابات التاريخية – فحسب، بل توجه الاختيارات المنهجية أيضا، ولهذا كله أثر على النتائج التي يتوصل إليها »[3].

وتجسد كتابة التاريخ الوطني الأدبي في أعمال الدكتور عباس الجراري كل تلك الأبعاد. ففيها تبلور، وعلى مدار ما يقارب ثلث قرن من الزمن، وعبر أكثر من ثلاثين مؤلفا، مشروع متكامل له خلفيته الفكرية، وتطبيقاته العملية.

ويعني هذا المشروع عمليا بالتأريخ للأدب المغرب قديمه وحديثه، وبتحقيق تراثه، والتعريف برجالاته وأجناسه وفنونه واتجاهاته وعصوره، ودراسة قضايا أدبه وفكره في علاقاته ببيئاته وعصوره.

ويستهدف هذا المشروع نظريا صياغة أطروحة مركزية للثقافة الوطنية المغربية المعاصرة، استجابة لمتطلبات حاضر يتميز بتشكيل الدولة الوطنية الحديثة، بعد الحصول على الاستقلال، وتعميق مفهوم المواطنة، والولاء للوطن،المتميز بحدوده الجغرافية والسياسية، ومجاله الثقافي، وعلاقاته التاريخية مع المشرق العربي وأوربا وافريقيا. وبانتماءات الجنسية المتنوعة، وبمجتمع تتداخل وتنصهر العناصر العربية والبربرية والافريقية فيه... ويعتمد الاسلام عقيدة وشريعة له.

ويعيي الدكتور عباس الجراري وعيا تاما التقاطع بين التأريخي والأدبي والفكري في مشروعه. ولذلك يخصص ثلث مؤلفاته لمناقشة مختلف الأبعاد النظرية في المشروع. ويفصح بالتالي للباحثين في الأدب المغربي، ولعموم المثقفين عن الخلفية الايديولوجية التي يقوم عليها.

ولذلك كله يمكن أن ندرس مشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي لدى الدكتور عباس الجراري في مستويين،أحدهما نظري، والآخر عملي، أي أن نتحدث عن اشكالية التنظير للمشروع مقابل أبعاد الممارسة فيه.

تتركز التحليلات التنظيرية لمشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي في مؤلفات الدكتور عباس الجراري التالية :

1- من وحي التراث، ونشر سنة 1971.

2- الحرية والأدب، ونشر سنة 1971.

3- الثقافة في معركة التغيير، ونشر سنة 1972.

4- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، ونشر سنة 1976.

5- الفكر الإسلامي والاختيار الصعب، ونشر سنة 1979.

6- الفكر والوحدة، ونشر سنة 1984.

7- بحوث مغربية في الفكر الإسلامي، ونشر سنة 1988.

8- في الابداع الشعبي، ونشر سنة 1988.

9- خطاب المنهج، ونشر سنة 1990.

10- معالم مغربية، ونشر سنة 1991.

11- الثقافة من الهوية إلى الحوار، ونشر سنة 1993.

ويمكن أن نستنتج من استعراض مولفات هذه القائمة ملاحظتين أساسيتين: أولاهما جوهرية، وهي أن نشر مؤلفات التحليلات التنظيرية يوازي نشر مؤلفات الاتجاه العملي، إذ ألف الدكتور عباس الجراري ونشر، في نفس الفترة أكثر من عشرين كتاب آخر حول جوانب عديدة في الأدب المغرب قديما وحديثا. نذكر منها :

- موشحات مغربية، ونشر سنة 1973.
- النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912، ونشر 1975.
- قضية فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان ونشر سنة 1975.
- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ونشر سنة 1979.
- عبقرية اليوسي ونشر شنة 1981.
- معركة وادي المخازن في الأدب المغربي. ونشر سنة 1985.

ويعني هذا الواقع وجود تفاعل بين التنظير والممارسة من هذا المشروع العلمي...

وثانيتهما، ملاحظة شكلية، فبالرجوع إلى تلك المؤلفات نستخلص أن الدكتور عباس الجراري عبر عن آرائه ومواقفه بأساليب متنوعة ومتكاملة إذ اعتمد تارة أسلوب المحاضرة، وتارة أخرى أسلوب المقال، وثالثة أسلوب الدراسة الأدبية والفكرية. ويفصح هذا التنويع عن الحرص الشديد على التعريف بالرأي وإذاعته، والتواصل مع عموم المثقفين على أوسع نطاق.

وإذا قرأنا مواضيع تلك المؤلفات قراءة عمودية فسنجد ثلاثة محاور كبرى، تتوزع تحليلات ومناقشات الدكتور عباس الجراري هي :

أولا : محور مكونات الشخصية المغربية.

ثانيا : محور الأسئلة المطروحة على الفكر العربي الإسلامي اليوم، أو قضاياه المعاصرة.

ثالثا : محور مفهوم الثقافة الوطنية وتجلياتها الأدبية والفكرية.

وتكمل هذه القراءة العمودية قراءة أفقية تبرز تمايز ثلاث مراحل أساسية في هذه التحليلات التنظيرية كالآتي:

- مرحلة أولى تمتد من بداية العناية بالكتابة والنشر في مستهل الستينيات، إلى سنة 1972، وقد أثمرت هذه المرحلة المؤلفات الأولى وهي «من وحي التراث» و«الثقافة في معركة التغيير» و«الحرية والأدب»، وفي هذه المرحلة يعني الدكتور عباس الجراري بدراسة الثقافة كوسيلة من وسائل النهضة والتقدم، ودراسة أهمية

وقيمة التراث العربي في مواجهة حضارة القرن العشرين. وتعكس هذه المرحلة تجاوب الدكتور عباس الجراري العميق مع التيار القومي العربي، والأطروحة الناصرية، ولا نستغرب ذلك إذا تذكرنا أن الدكتور عباس الجراري نفسه خريج جامعة القاهرة، وان اقامته الطويلة في مصر كانت في ظل الناصرية.

- مرحلة ثانية تحقب بين سنتين 1976 و1988. وقد خلفت هذه المرحلة مؤلفات عديدة وهي: «وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ» «الفكر الإسلامي والاختيار الصعب» و«الفكر والوحدة» و«بحوث مغربية في الفكر الإسلامي» و«في الإبداع الشعبي». وفي هذه المرحلة يهتم الدكتور عباس الجراري بصفة أساسية بتحليل مقومات الدين الإسلامي، وإبراز خصائص المذهب المالكي في المغرب، وكشف التحديات التي يواجهها الفكر الإسلامي اليوم. وتحديد الأصول النظرية للأدب الشعبي.

وقد تبلورت هذه المرحلة نتيجة إقامته الدائمة في المغرب والتطورات السياسية والفكرية التي عرفتها سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين داخل المغرب وخارجه. ولذلك فهي تعكس اصداء الأجواء السياسية التي خلقتها في المغرب المسيرة الخضراء واسترجاع الصحراء المغربية. والتطورات التي عرفها العالم العربي بعد موت عبد الناصر، وبعد حرب أكتوبر 1973. وبروز العالم الإسلامي ككيان مؤثر وفاعل في الساحة الدولية من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي، التي عقدت اجتماعها التأسيسي في المغرب، وظهور الدين الإسلامي كعامل من عوامل للتغيير السياسي والإجتماعي. أو الحديث عما يعبر عنه البعض «بالإسلام السياسي»... ويمكن أن توصف هذه المرحلة بأنها ثمرة جدل الفكر مع الواقع، أو تفاعل الدكتور عباس الجراري، مع الأحداث الوطنية والدولية العربية والإسلامية.

– مرحلة ثالثة تبدأ من سنة 1990 وتمتد إلى سنة 1993 وقد أنتجت هذه المرحلة مؤلفات متنوعة هي: «خطاب المنهج» و«معالم مغربية» و«الثقافة من الهوية إلى الحوار» وفي هذه المرحلة يولي الدكتور عباس الجراري أهمية كبرى للأسس النظرية لمناهج دراسة الأدب المغربي، ويتعمق تحليل الهوية المغربية الثقافية، ويعرف بالأسس السياسية للدولة المغربية، وبنهضة المغرب الأدبية الحديثة في عهد محمد الخامس قدس الله روحه. والجوانب الأدبية الإبداعية في شخصية جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، واشعاع المغرب الثقافي في عهده.

وتتناسب اهتمامات هذه المرحلة، مع تطور مشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي، وتزايد اهتمام الباحثين الجامعيين به، وتعدد الأعمال المنجزة في إطاره، أو باختصار حصول تراكم علمي هام يقتضي مراجعة الأسس النظرية، أو توجيه الأعمال العلمية اللاحقة في إطار المشروع. ولذلك وجدنا كتاب «خطاب المنهج» يطبع ويعاد طبعه في ظرف وجيز. نسبيا... ولاحظنا أن الدكتور عباس الجراري يتحدث فيه عن أعماله العلمية، وما أنجزه طلابه أو سينجزونه في إطار المشروع، معرفا بايجابيات أعمالهم، محددا آفاق أخصابها وتطويرها. ووجدنا بالمقابل الباحثين في الأدب المغربي يولون للكتاب عناية كبرى جسدها اقبالهم الشديد على دراسته وتحليله(4).

ولا يعني الحديث عن تمايز تلك المراحل استقلال كل مرحلة بقضاياها استقلالا تاما، بقدر ما يعني هيمنة القضايا على مرحلتها، وتوسع الدكتور عباس الجراري في معالجتها خلالها فقط فالاهتمام بالأدب الشعبي مثلا دائم في كل الفترات، وبامكانك أن تقرأ (فصولا عنه أو إشارات اليه، كتبت في كل المراحل)

ونراها في كتابيه «من وحي التراث» و«الفكر والوحدة» وبعدهما يظهر كتاب خاص بالموضوع هو «في الإبداع الشعبي»... ومثل ذلك يمكن ان يقال عن كل القضايا النظرية التي عالجها. وهذا الواقع يسمح بالقول أن الأسئلة الفكرية في كل المراحل أسئلة ثابتة، وأن المتغير بين مرحلة وأخرى هو جوانب النظر، أو زوايا الرؤية، أو العناصر التكميلية في الاشكالية المركزية.

وتشكل هذه الأسئلة الثابتة المحاور الأساسية في الخلفية النظرية التي يقوم عليها مشروع كتابة التاريخ الوطني الأدبي في أعمال الدكتور عباس الجراري، أو قضايا الاشكالية الفكرية المركزية فيه. وتعالج مقومات الشخصية المغربية، وقضايا الفكر العربي والإسلامي المعاصر، ومكونات الثقافة الوطنية. وللدكتور عباس الجراري في كل هذه القضايا حقائق يقررها، ومعطيات موضوعية يقدمها، وآراء ومواقف فكرية شخصية يدافع عنها، سنتعرف عليها في الآتي:

أولا: حول مقومات الشخصية المغربية :

في محور مقومات الشخصية المغربية درس الدكتور عباس الجراري ثلاث قضايا رئيسية هي: الهوية الثقافية، وخصائص المغربي الذهنية والنفسية، ومعتقداته الدينية والروحية:

– وقرر الدكتور عباس الجراري أن الهوية الثقافية تكون بتفاعل عناصر البيئة والدين واللغة والتراث. ودافع عن الآراء الرئيسية التالية"

1– «ان الهوية المغربية يمكن أن ترتبط عن طريق بعض العناصر المشتركة مع هويات أوسع، أو هي تشترك في تشكيلها. كالهوية العربية أو الإسلامية أو الإفريقية»(5).

2- «ان الهوية الثقافية يمكن أن تتفرع إلى هويات صغيرة فرعية أو جزئية، لاسيما حين تكون تلك الهوية متصلة ببيئة تتميز بالتعدد والتنوع كما هو الشأن بالنسبة للمغرب، مع كل الخصوصيات التي تتفرد بها البيئات الصغرى المشكلة للبيئة الأم، مما يتضح في بعض المظاهر الطبيعية والظواهر الحضارية، وما يكون لها من تأثير على الفكر والذهن والسلوك وعلى أنماط الابداع وأشكاله. وفي اعتقادي - يقول الدكتور عباس الجراري - أن الهوية - أية هوية - بقابليتها للتوسع، والتفرع تكتسي خاصية تكسبها القدرة على الحياة والنمو وعلى التعايش والتكامل أي على الأخذ والعطاء، انطلاقا مما لها من ملامح متميزة وسمات خاصة »[6].

3- أما التراث «فلا مجال لتجاهله أو إلغائه أو الاستبدال به، وقد أكدت الممارسةأن الثقافة مهما كانت متطلعة للجديد، لاغنى لها عن التراث، أو هي لا تستطيع أن تعيش خارجه، أي أنها أكدت أنه يقوى الاحساس بالذات، وأنه يشكل رافدا للابداع، ويعطيه مزيدا من القدرة على العطاء المتطور والمتجدد »[7].

4- ان اللغة العربية أو «اللغة الأم أي اللغة الوطنية- هي وحدها مجال الخلق والإبداع والوسيلة إليهما. وأنها بفكرها ومضامينها، والروح النابع منها - إحدى وسائل حماية الذات والدفاع عنها، وتخليصها من التبعية والاستعمار. وأن استعمالها في التعليم، والبحث العلمي والتعبير الأدبي. والتسيير والاتصال بالآخرين وفي مختلف ميادين الحياة العامة والخاصة هو وحده الكفيل بتطويرها، وإمدادها بالجديد، وجعلها قادرة على مواكبة العصر »[8].

5- اما مبررات التفكير في الهوية «فيمكن إجمالها في الأسباب التالية :

أ- تعرف إلى الذات والكيان، وتحديد القدرات والامكانات، وهو أمر لا مناص منه للانطلاق في المسير، وإمكان الاستمرار فيه.

ب- توجيه الرؤى والمنظورات واختيار المواقف والعلاقات وتوضيح الوجهة والخط، أي فلسفة الحياة والمستقبل.

ج - استحضارها الدائم باعتبارها الملجأ الحصين حين تشتد المحن والأزمات، والطاقة الدافعة إلى الصمود تم إلى التغلب، وهو استحضار يتم بعفوية وتلقائية على حد ما كشف تاريخ الكفاح الوطني، لاسيما في عهد الحماية حين كان المرحوم علال الفاسي،. وأمثاله من رجال الوطن المخلصين يلحون على الهوية الثقافية المغربية، وخاصة على عنصري الدين واللغة ايمانا منهم بأن الإسلام، وما واكبه من لغة وفكر كانا أساس توحيد المغاربة، بل أساس جمع كلمة المسلمين يوم كانت العقيدة قوية في النفوس، وقبل أن تضعف وتتغلب عليها بقية مقومات الهوية، وربما الهويات الفرعية الخاصة بكل إقليم، مما كانت نتيجة شيوع ظاهرة التمزق والانفصال. وان التاريخ الذي نصنعه اليوم - وان كنا لا نشعر به - لأكبر دليل على ما للهوية الثقافية من دور فعال في معركة استرجاع الأراضي المغتصبة، واستكمال الوحدة الترابية»[9].

وفي كل تلك الآراء يدافع الدكتور عباس الجراري عن مفهوم أصيل وفعال ومتفتح ومرن للهوية: يجعل مغرب اليوم وطيد الصلة بجذوره العربية والإسلامية، وكيانا موحدا يستوعب ظاهرة اختلاف وتنوع مكوناته وعناصره العرقية واللغوية

والجغرافية، وكيانا قويا قادرا على مقاومة أخطار التمزق أو الذوبان في كيانات أخرى لتمسكه بتراثه، وباللغة العربية، والإسلام. ويؤكد أن وعي المغاربة اليوم بمختلف أبعاد الهوية يساعدهم على التخطيط لغدهم، واستكمال وحدتهم الترابية، والرد على مختلف التحديات التي تواجههم.

ومن ناحية ثانية، حدد الدكتور عباس الجراي مقومات الشخصية المغربية النفسية والذهنية فيما يلي :

«1- الميل إلى الإستقرار.

2- قوة الإحساس بالذات، مع القدرة على التفتح، في وعي بضرورة الترابط والتكامل والعمل مع الآخر والانضمام إليه. والإجتماع معه والتعاون.

3- حب الحرية، ورفض الخضوع والاستسلام لأي قوة مهما كانت، في قدرة فائقة على الصبر والتحمل.

4- مواجهة الأشياء والتعامل معها بروح عملية وبواقعية واستعداد للبث والحسم.

5- النزوع إلى الاعتدال والتوسط في كل شيء»[10].

وواضح أن الدكتور عباس الجراري في حديثه عن ميل المغربي قديما وحديثا إلى الاستقرار، ورغبته في التفتح على الآخر، والتعاون معه، وحرصه على العمل والإنتاج في صبر وواقعية واعتدال، يبرز كل المؤهلات الذاتية التي تمكن المغاربة اليوم وغدا من الاسهام في انتاج الحضارة كما فعل أسلافهم في العهود الماضية الزاهرة.

وتتركز الأبعاد الدينية والروحية للشخصية المغربية في الدين الإسلامي وتفاعل المغاربة معه ويقدم الدكتور عباس الجراري في هذا الجانب الحقائق والآراء التالية:

1- ان الدين «أهم عنصر ثقافي يكون الشخصية المغربية إن لم يكن أهم عناصرها على الاطلاق، وباعتباره كذلك يتبادل التأثر والتأثير معها، من حيث هو نسق يتفاعل مع الأنساق الأخرى[11] للشخصية».

2- «ان المغاربة عرفوا بالتدين، وإذا كان هذا التدين تطور معهم مسايرا مراحل تاريخهم، فان ذلك كله مهد عندهم للاسلام الذي احتوى الشخصية المغربية احتواء كاملا، وأعاد تكوينها بالتصحيح والتقويم، فجعلها تتلاءم مع تصوراته ومقاصده»[12].

3- «استعداد الشخصية المغربية لاعتناق الاسلام وفهمه والاندماج فيه، باعتباره عقيدة وبنية ونظاما متكاملا، تشكل في النظرية والتطبيق من خلال النموذج السني الذي هو أقرب إلى الصورة المثلى، باعتباره مرتبطا بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين ومن سار على هديهم من السف الصالح. وفي نطاق هذا التفسير يتأكد أن عنصر الدين أساسي وجوهري ليس باعتباره فاعلا بمفرده، ولكن باعتباره يحتوي جميع العناصر التي لها مفعولها في انشاء أنظمة الدول، كالسياسة والايديولوجيا والعصبية بكل مكوناتها من قوة بشرية أو عسكرية أو اقتصادية.

لقد أذاب الإسلام ما كان في المغرب من غلبة قائمة على العصبية والقبلية، بل إنه استقطب جميع العصبيات والقبليات، من حيث هو عقيدة دينية، ومن حيث هو

نظام سياسي واقتصادي واجتماعي، ومن حيث هو فكر يتوسل بأداة واحدة هي العربية. مما أتاح له أن يحتوي جميع عناصر التفريق والتشتيت، ويصهرها في بوتقة لتصبح عوامل تقوية للمؤسسة الوطنية السياسية في اطار الإسلام. وهذا يعني أن قيام الدولة في المغرب على ذاك الأساس وتلك الأجهزة أتاح للمغاربة أن يلتئموا، وأن يكونوا وحدة، أي أن يكونوا شعبا يعيش في وطن تسوده قيم الوطنية، وفي طليعتها الحرية والسيادة. ان المغاربة ما كانوا ليتصوروا الوطنية والسياسة خارج الإطار الإسلامي الذي ارتبط بالامامة الشرعية في مجموع شروطها ومقوماتها. ولعلنا من هنا نفهم سر الاجتماع حول الإمام، والاتفاق والاجماع عليه حتى في حال قيام معارضه أو نزاع »[13].

4- تنتج عن هذا التفاعل «ظاهرتان هما الميل عند المغاربة إلى الوسطية والاستعداد للتجديد »[14] و«تتجلى الوسطية في عدة مظاهر: أولهما التمسك بالاعتدال المذهبي ورفض التطرف... أما الملمح الثاني في هذه الوسطية فيكمن في الموقف بين العقل والنقل في مسائل العقيدة... وأما الملمح الثالث والأخير للوسطية فيتجلى في التوازن بين الشريعة والحقيقة، أو بين الظاهر والباطن، أي بين الظاهر الفقهي الذي قد يصل إلى الجمود والتحجر، وبين الباطن الصوفي الذي قد يغرق في الفلسفة.. »[15].

5- ان المغاربة مالكيون :

أ- و«ان اجماع المغاربة على المذهب المالكي وتوحدهم في ظله يعتبر ظاهرة متميزة في الفكر المغربي، إن لم تكن أهم وأبرز ظاهرة في هذا الفكر، بسبب رسوخها واستمرارها والأبعاد المختلفة والمتعددة الناتجة عنها. وهي ظاهرة تمثل

اختيارا بكل ما في كلمة الاختيار من معنى، أي أن أخذ المغاربة بالمذهب ليس من قبيل المصادفة، كما أنه ليس من قبيل القسر والقهر والفرض والتعسف، ثم إنه ليس من قبيل الحدث الطارئ العابر. ونعتقد أن وجود هذه الظاهرة ظاهرة الوحدة - ينسجم مع نزوع المغاربة إلى التوحد، وهو نزوع ناتج عن طبيعتهم الميالة إلى الاتصال والالتقاء، وإلى التجمع والانصهار والاندماج، والميالة بسبب ذلك إلى الاستقرار في جميع مفاهيمه وأبعاده وفي طليعتها الاستقرار السياسي والفكري»[16].

ب- ان اقبال المغاربة على المذهب المالكي يرد إلى «أسباب وعوامل داخلية مرتبطة بذات المغاربة، وفي ارتباط وتفاعل بين هذه الذات وطبيعة المذهب... وحين ننظر في الأسباب والعوامل الداخلية نجدها تنسجم مع الكيان الذهني المغربي المرتكز على قيم ومقومات من شأها أن تكون أكثر انتشارا بين المغاربة، وأقواها إلحاما بينهم، وبذلك تكون أقدر على إبراز خصوصياتهم المميزة لهم. ونستطيع أن نذكر من هذه المقومات مجموعة من الضوابط تتحكم في الفعل وتنظمه، وتتدخل في التفاعل والانفعال، ويغلب عليها الميل إلى الاعتدال والنزوع إلى العمل أكثر من القول وكذلك يغلب عليها التعامل مع الأشياء لتطويعها والسيطرة عليها أكثر من التعبير عنها أو الوقوف أمامها للتأمل والوصف والتحليل»[17].

ج- ان المذهب المالكي يضمن للمغرب وحدته، ويمكنه من القيام بمهام قيادية في افريقيا.

- فبالمذهب المالكي «سيتسنى للمغرب - كما تسنى له من قبل أن يعيش في كنف وحدة، تحافظ على كيانه، وتحول دون وقوعه في براثن النزعات الطائفية التي من شأنها أن تشتت أوصال البلد الواحد»[18].

- ان الهدف من حماية الدولة عبر التاريخ لهذا المذهب «هو الحفاظ على نقاء العقيدة وصفائها في هذا التجاوب، وفي هذا الانسجام بين طبيعة المذهب وطبيعة ذاتية المغرب وكيانه، والهدف قبل هذا وبعد هو الحفاظ على الوحدة. وأن علينا في الظروف الراهنة وأكثر من أي وقت آخر أن نستحضر هذه الوحدة»[19].

- وفي استكمال الوحدة الترابية واسترجاع الصحراء المغربية «ويستحضر الدور الحضاري والثقافي الذي ينهض به المغرب في افريقيا عبر الصحراء، وفي خط السنة ومذهب الإمام مالك، وقد أدى المغاربة هذا الدور، وعليهم أن يستمروا في أدائه إلى يوم الدين لأنه قدرهم الذي لابد لهم في حياتهم منه»[20].

وفي ذلك كله يرى الدكتور عباس الجراري أن الإسلام، في المغرب صاغ شخصية الفرد وكيان الجماعة في مختلف أبعادها الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والفكرية، وضمن للبلاد وحدتها. ولاحظ أن الممارسة الدينية، أو التدين، هنا، تميز بنزعة وسطية قوامها رفض التطرف والوقوف بين العقل والنقل، والتوازن بين الشريعة والحقيقة، أو بين الظاهر والباطن. وأكد أن المذهب المالكي في المغرب اختيار يتلاءم مع خصائص الشخصية المغربية، وبفضل التمسك به تمكن المغرب قديما من أن يلعب دورا تاريخيا في افريقيا، بل انه هو الذي حمى وحدة المغرب بالأمس وسيمكنه اليوم وغدا من التصدي للنزعات الطائفية والانفصالية.

ثانيا حول قضايا الفكر العربي الإسلامي المعاصر :

I- الفكر العربي الإسلامي وتحديات الحاضر

يعتقد الدكتور عباس الجراري أن الفكر العربي الإسلامي المعاصر يواجه اليوم تحديات كبرى شخصها في ملاحظتين أساسيتين :

أولاهما «أننا نعاني على الصعيد الوطني، وكذلك على الصعيد العربي الإسلامي، من ضغط القيم والمفاهيم المختلطة علينا، لأننا صدمنا بالاتصال المباشر مع الغرب»، ووجدنا نفسنا نواجه فكرا مسايرا في تطوره لتطور المجتمعات التي نشأ فيها، ولكنه غير منسجم مع واقع مجتمعنا، والمرحلة الحضارية والثقافية التي نجتاز، وصعب علينا أن نختار لأننا نعاني من ضغط آخر هو الحاج الحاجة إلى قيم ومفاهيم نابعة منا. ومنسجمة مع وجودنا، في الماضي والحاضر»[21].

وثانيتها: «أن الثقافة الإسلامية اليوم تعاني تخلفا يمس جميع بنياتها متمثلا في ظواهر تبدأ من تفشي الأمية إلى القصور العلمي وتعاني تمزقا داخليا تتجلى سماته في شيوع سلبيات الازدواجية التفكيرية والشعورية والتعبيرية والسلوكية، وفي التناقض الصارخ بين الفئات والأجيال، وفي تباين الانتماءات المذهبية، التي زاد في تعميقها تفتيت الاستعمار للرقعة الإسلامية، وترك ألغام فيها، بعد خروجه الرسمي منها، قابلة للانفجار في أي وقت أو في الوقت الذي يراه هو. وتعاني الثقافة بعد هذا عدم اعتراف أصحابها بما لها من قيمة وفعالية، في مجال التوعية والإبداع، وصنع النفوس وتجديد الأفكار، إذا مازالت تعد ترفا أو متاعا يمكن الغاؤه والاستغناء عنه، أو في أحسن الأحوال، إخضاعه ليكون مجرد صدى خال من أي روح حق، وأي تجاوب صادق»[22].

وللرد على تلك التحديات، وتجاوز المأزق الذي يعيش فيه الفكر العربي الإسلامي يقترح الدكتور عباس الجراري تبني المبادئ والمواقف الخمسة التالية :

1- **الإيمان بالفكر**: لأن «الفكر في مجتمع ماهو خلاصة مبدعات الانسان في هذا المجتمع، وفق الشروط التاريخية والظروف التطورية التي تطرأ عليه، وتلبية

لاهتماماته الفورية وتطلعاته المستقبلية، وفي نطاق معطياته التراثية والواقعية. وفي حدود حاجاته الروحية والزمنية وامكاناته الشعورية والعقلية. به يتوصل الإنسان عن طريق التنظير والممارسة، إلى ابتكار وسائل وأنماط متجددة للعيش. وبه يهتدي إلى تجديد مقومات حياته، ومعايير علاقاته الكونية والإنسانية، والقيم التي تزيد من تطوره ورقيه، وتشعره بحريته وكرامته، وتحفظهما له. وبه يستطيع أن يشكل كيان نفسه ومجتمعه، ويبلور هويته باعتباره غاية، يتوسل بكل ما تيسره له الطبيعة ليحقق تقدمه وسعادته، وليتحرر من كل أنواع العبودية، التي تعوق قدراته الابداعية عن تطوير إنسيته واثبات وجوده»[23].

2- **الولاء للفكر الإسلامي** لأن «أمة في مثل الموقع والموقف اللذين توجد فيهما الدول الإسلامية معرضة باستمرار لألوان من الاختيارات والصعوبات والضغوط والتحديات، وهي لا تستطيع أن تواجهها إلا إذا كانت مسلحة بفكر شمولي متكامل له منهج تعبأ داخله قوى المسلمين في وحدة متراصة تزيل من طريقها كل الطفيليات وعوامل التسميم والتخريب، وتذيب الفوارق الفكرية التي من شأنها أن تخلق اتجاهات متضاربة وتيارات متصادمة.

وان التزام المسلمين بهذا الفكر هو الذي سيجعلهم يبرهنون عن فعاليته في حياتهم الفردية والجماعية، أي أن يخرجوا هذه الفعالية إلى مجال العمل المثمر الجاد.

وان ارتقاء المسلمين بهذا العمل في مختلف ميادين التطور والتقدم هو الذي سيجعلهم في موقع قوة، متحررين من كل ألوان الحصار والتطويق، متحكمين في زمام المبادرة، قادرين ليس فقط على اجراء الحوار أو القيام بالمواجهة - ولكن على فرض الحل الصحيح للمشكلات التي يعانون منها..»[24].

3- الرهان على البديل الإسلامي «أي طرح المنهج الإسلامي الصالح للعصر، وهو منهج يقوم على المبادئ التي جاء بها الإسلام، والتي لا يجادل أحد في سلامتها، سواء منها ما يمس الجانب التعليمي التربوي والخلقي السلوكي، أو ما يمس الجانب المالي والسياسي والفكري، وكل ماله صلة بتنظيم الحكم والعلاقات المجتمعية والإنسانية الخاصة والعامة. وهي مبادئ تحتاج إلى أن يكيف تطبيقها بما يساير مقتضيات التطور، وفق ما ينتهي إليه علماء الإسلام ومفكروه انطلاقا من كون الإسلام عقيدة ودنيا أي دينا ودولة، وانطلاقا كذلك من كون الإسلام خاتم الأديان والشرائع، وانطلاقا بعد هذا من كونه مؤسسا على مقومات إنسانية وقيم فطرية، هي الحق والعدل والخير والقوة والرحمة والمحبة والكرامة، والعلم والعقل والتقوى، وعليها تقوم مختلف ألوان التعامل التي يقتضيها المجتمع الإسلامي، سواء بين أفراده أو مع غيرهم، ولاسيما مع الغرب، مما يجعل المسلمين قادرين في خطوة أولى على الاندماج في العالم المتحضر والمتقدم، ومؤهلين في خطوة ثانية لادماج هذا العالم في بوتقة المنهج الإسلامي القائم أساسا على الوسطية، رغم تعدد جوانبه وتعقد ملامحه»(25).

4 - الثقة بالنفس والايمان بالقدرة على الابداع والعطاء «لأن الثقافة الإسلامية.. لا تستطيع أن يكون لها موقع كيفما كان، سواء في خط الريادة أو ركاب المواكبة أو حتى مجرد الوجود، ما لم يتهيأ لها عنصر أساسي تفتقده، أو بالأحرى نحن المسلمين نفتقده، وهو الذي كان عند أجدادنا الأوائل يوم أبدعوا هذه الثقافة، وهو الذي انطلق منه الغرب أمس، وينطلق مه اليوم كذلك، في محاولة تركيز تفوقه واثبات رؤياه، وفرض نمطه على العالم - أقصد الايمان بالذات، والثقة

في النفس، والنظر المتفائل إلى المستقبل والحياة، واعتبار المتحلي بهذه الصفات مسؤولا وصاحب رسالة ينبغي أن يعمل من أجلها لنفسه وللانسانية، مستفيدا من تراثه، وإرث الآخرين، ومن ثقافة العصر العلمية المتطورة، وفي حرص جاد على تلافي العيوب والأخطاء التي وقعت فيها الحضارة الراهنة، وعلى معالجة الأمراض التي تولدت عن وجهتها المادية الصرف، وهي أمانة لا شك أن البشرية جمعاء تتوق إلى من يحملها ويبشر بها، صونا لوجود الإنسان وبيئته ورسالته من دمار موشك محدق »[26].

5- **الانتباه إلى نقائص الغرب والتعالي عليه** «لأن اليقظة في بعض المراحل تفضي إلى نوع من التشكيك في تفوق الغرب، إن لم نقل الكفر واليأس من نموذجه، وتجريده من كل قيمة أو صلاحية، بسبب ما يقوم عليه من أسس تتنافى مع أبسط مقومات الحرية والكرامة والحياة الإنسانية ويكفي أن نذكر من ذلك :

– توظيف التقدم العلمي والتقني للتخريب والتدمير.

- كثرة التناقضات التي تصاحب هذا التفوق الحضاري والثقافي، وأبرزها انغامسه في المادية، وتحلله من كل العناصر الخلقية السلوكية والمقومات الإنسانية الروحية.

- السعي إلى استغلال الآخرين واستعبادهم بجميع الوسائل.

- زرع الكيان الصهيوني في قلب الجسم الإسلامي لاستنزافه ولضمان النفوذ الغربي المستمر في هذا الجسم.

المواجهة إذن ضرورية، وهي مفروضة لأنها سبيل التخلص من التبعية المجسدة للتخلف، ولأن المسلمين في المسيرة البشرية القائمة على الصراع، متجهون طوعا أو كرها لمواجهة التاريخ »[27].

شخص الدكتور عباس الجراري في التحليلات السابقة حالة الفكر العربي الإسلامي الذي يواجه تحديات القيم الحضارية الغربية الغازية للمجتمع العربي الإسلامي. وغير الملائمة له، وكذا حالة الثقافة الإسلامية التي تعاني من أمية الأغلبية والازدواجية في الفكر والتناقض بين الأجيال. ولمواجهة هذه المعضلات يدعو الدكتور عباس الجراري المجتمع إلى الايمان بالفكر، والولاء للفكر الإسلامي، والرهان على البديل الإسلامي، والثقة بالنفس والانتباه إلى نقائص الغرب. وفي العمق فالدكتور عباس الجراري يدافع عن الهوية الوطنية والقومية والدينية ويتصدى لمخططات الاستلاب الفكري، وكل ما يهدد المجتمع افرادا وجماعات من تنافر وعدم انسجام وعدته وعتاده في دفاعه: الفكر أو العقلانية والدين الإسلامي وقيم الحضارة الإسلامية الزاهرة.

II- التراث والمعاصرة:

يعالج الدكتور عباس الجراري قضية التراث في فكرنا المعاصر من جانبين متكاملين في أحدهما مفهوم التراث. وفي الآخر نظرة المعاصرين إليه.

وفي الجانب الأول، يرد التراث بمفهومين أولهما موضوعي والآخر وظيفي أو مؤدلج

- **وبالمفهوم الأول** «التراث هو ذلك الإرث الذي وصلنا على مر العصور والأزمان والذي لا يزال ماثلا في حياتنا، متمثلا في جميع ما انتجته عقول الأجيال السابقة، وما أوحت به قلوبهم من علوم وفنون وآداب هي خلاصة حضارة هذا البلد وثمرة عبقرية ابنائه، وهو نوعان أحدهما معطل في المتاحف والخزائن لا يحيا

إلا بقدر ما نبعث فيه من روح والثاني تضمّه العادات والتقاليد والفنون وما إليها من المأثورات الشعبية التي ما زلنا نمارسها ونمدها بالحياة»[28].

- **وبالمفهوم الثاني** «التراث الحق ليس هو كل الماضي أو ما صدر عن الأجداد دون تحديد ولكنه الجانب المضيء منه الذي يكشف عن الظواهر الثقافية والحضارية التي وصلت على مر الأجيال عبر فترات تطورية متعددة كانت تتجذر فيها وتتجدد، وتتغير بخصوبة وتلقائية متأثرة بما تعانق أو يعانقها من ظواهر ثقافية وحضارية أجنبية .وهو كذلك الجانب الذي يمثل أنماطا من وعي الإنسان العربي ومراحل من واقعه ووجوده الفردي والإجتماعي خلال التاريخ، ويعبر عن الذات العربية وتجربتها، ويعطيها مميزاتها، ويذكر بوجودها، ويبرز ملامح شخصيتها وأصالتها الذاتية، ويحدد منظورها القومي الخاص. هو بهذا ملك للامة، وجزء من وجدانها، به نستطيع التعرف إلى التغييرات التي طرأت عليها وإلى الشروط التي يمكن أن تصنع فيها تاريخها أن تستمر في صنعه»[29].

وفي الجانب الثاني عرض الدكتور عباس الجراري مواقف المحدثين من التراث ونقدها. واقترح موقفا آخر بديلا لها، له أهدافه المحددة، وخطته العملية الواضحة.

- ويلاحظ الدكتور عباس الجراري أن هناك رأيين متعارضين يستقطبان مواقف المحدثين من التراث: أحدهما «يقدس التراث العربي الإسلامي ويجمد عنده، ولا يحاول التفتح على الثقافات العالمية بل يبالغ فيتكلف ارجاع المخترعات والمكتشفات والنظريات العلمية وحتى المذاهب والإتجاهات الأوربية في الفكر والأدب إلى أصول عربية»[30]. والآخر يرفض التراث العربي ويلغيه و«يرتمي في أحضان التراث الغربي ارتماء كليا ومطلقا»[31].

- ويتلخص موقف الدكتور عباس الجراري من التراث في قوله: «ان النظر في التراث لا يعني أن ننغلق على أنفسنا، ونغمض أعيننا، وننصاع للماضي والقدر، وللتبعية والتقليد، ونثبت جامدين حيث نحن، دون أن نحكم تجاربنا وتفكيرنا وواقعنا وما يعتمل فيه وفي نفوسنا من صراع، بل يعني أن ندرسه ونبحث فيه للكشف عن روح الأصالة في أمتنا، من أجل متابعة مسار التقدم الذي تحتمه حركة التاريخ الدائبة، ومن أجل تهيء انطلاقة متفتحة يلتحم فيها التراث بتأثيره على معركة التغير مع المكتسبات الجديدة، بفعاليتها المبدعة الخلاقة... وينبغي حين نتحدث عن التراث، الا نفعل ذلك على اعتبار أن هذا التراث كامل ومقدس لا يمكن مناقشته بل على أساس من المنهجية العلمية القائمة على التحليل والنقد، بقصد البحث عن الجانب القابل للتطور والتكيف مع الواقع لتغيير بنياته، وبهدف فتح آفاق للمستقبل وبث الأمل وتقويته في النفوس، والالقاء بشعاع من نور على الطريق، واثارة الجماهير للعمل، أي بالتنقيب في التراث عن كل ما هو بناء وتقدمي ليصبح عنصرا ايجابيا قادرا على مواكبة معركة التحول، وامدادها بقوة وفعالية»(32).

وفي رأي الدكتور عباس الجراري أن أهداف دراسة التراث تتحدد في:

1- الكشف عن الأصالة والمحافظة عليها لأننا «لا ندرس التراث دراسة تجريدية أو دراسة تاريخية متحفية ولكننا ندرسه سواء في قالبه المدرسي أو الشعبي، وندعو إلى دراسته على ضوء تجاربنا وتفكيرنا وما يعتمل وفي واقعنا ونفوسنا من صراع للكشف عن روح الأصالة في أمتنا – وعندنا أن الأصالة هي مجموع مقومات الذات ذات الفرد وذات الجماعة، حتى نستطيع متابعة مسار

التقدم الذي تحتمه حركة التاريخ الدائبة، وحتى ستسنى لنا تهيىء انطلاقة متفتحة يلتحم فيها التراث بتأثيره على الواقع، ومعركة التغيير من جهة، مع المكتسبات الجديدة بفعاليتها المبدعة الخلاقة من جهة ثانية»[33].

2- فهم الذات والتخطيط للمستقبل «والتراث في حاجة إلى رعاية من أبنائه تحفظه من الضياع وتصحح النظر إليه، ولن تكون هذه الرعاية غير عملية احياء هي السبيل إلى فهم تاريخنا على غير ما فسرته لنا مدرسة الاستعمار. وإلى معرفة حضارتنا والوقوف على آثارها ومقوماتها وأسباب ازدهاراها وانهيارها، وبالتالي ادراك الصلة الحقيقية بين ماضينا والحاضر، وتمثل ملامح هذه الصلة وسماتها. والاحياء قبل هذا وبعد صون لوجودنا وفهم لقيمنا وجمع لاشتات كياننا والقوة الدافعة لنا في نهضتنا وبناء مستقبلنا »[34].

3- الحفاظ على الكيان الوطني وانسجام مكوناته وفي ذلك يقول الدكتور عباس الجراري «اننا مقبلون على معركة فكرية حاسمة من أجل تحقيق مصير الثقافة العربية في بلادنا ومن أجل اقامة كيان شخصيتنا ومعالم قوميتنا، ومن أجل تنشئة جيل عارف بلغة وطنه ودينه وأدبه وتاريخه وفنونه متجانس في تفكيره، وأننا لخوض غمار هذه المعركة مزودون بإيماننا بالمستقبل وبتراثنا على مختلف أشكاله وألوانه، وأننا لذلك نرفض كل من يشككنا في مقومات هذا التراث.. »[35].

ويقترح الدكتور عباس الجراري خطة عملية للتعامل مع التراث «تسبق بالكف عن البكاء على الماضي أو تعظيمه، والافتخار بامجاده، لنسير في عملية احياء غير آلية، تقصد إلى اجلاء معالمه الخصبة الغنية، وملامحه التقدمية الثورية، وإلى تحويل فكرنا العربي المعاصر إلى فكر علمي وثوري أصيل. وتبدأ العملية بحصر ما عندنا وعند غيرنا من كنوز تراثنا، لتنطلق بعد ذلك في ثلاث مراحل :

أولا : التحقيق، وهو وإن كان من اختصاص المحققين، فإنه لا ينبغي أن يبقى خاضعا لرغباتهم الفردية أو لرغبات الدور التجارية. بل يجب أن يخضع لخطة تتفق ومتطلبات المعركة والقضايا المصيرية. ويخطئ الذين يرون ترك هذه العملية للمستشرقين، بل اننا مطالبون باعادة النظر فيما حققوه لأن بعضهم كان يتخذ من العناية بالتراث مجرد قناع للدس والتخريب والتشويش.

ثانيا : الدراسة وهي من اختصاص الباحثين والنقاد، ويجب أن تبتعد عن التجميع والسرد والقبول، وتلجأ إلى التحليل والتعليل العلميين، وإلى فحص جزئياته بما يمكن من الفرز والاستنتاج والتركيب، واستخلاص نظرة شمولية. وإلى التساؤل والشك المنهجي، وأعمال النقد والعقل المنطقي، بحرية وارادة واعية ترى بعين العصر، حتى يبدو التراث وكأننا نصنعه ونخلقه من جديد، وتنطلق من المشاكل والقضايا الملحة لتكشف عن كل ما يقوى نزعة التحرر وحوافز الثورة، أي أن نراه بمنظار العلم كمنهج، ومنظار الوطنية كدافع. وتقتضي دراسة التراث تصفيته من الصنمية والقداسة، ومن الخرافات والأساطير، وكل الانحرافات من تواكلية واستسلام، وتقليد وفردية ونفعية وارتجال، لامكان تحرير عقليتنا منها، وبالتالي لامكان الافادة من كل ثقافة متحررة. كما تقتضي استجلاء جذور الحاضر، ودوافع الحركة فيه، وروابطه في مراحل، تطوراته الذهنية، ومعالم توتراته التاريخية ومدى ارتباطه، بواقع منشئيه، وأصالته وقدرته على التفاعل والتأثير والاستمرار باطلاق ممكنات هذا الواقع ومقدراته.

ثالثا : استحاؤه في الخلق والابداع شعرا وقصة ورواية ومسرحا ورسما وفنا، في مختلف ألوانه وأشكاله، بما يبرز منطلقات الحرية، والمضامين الإنسانية،

وبما يساعد على تفجير الواقع وتغييره، وبما يكشف كل ما يصلح أن يكون سلاحا نضاليا للثورة، ويعمق الوعي النقدي وينمي روح المبادرة.. »[36].

وعلى العموم فالدكتور عباس الجراري يميز وهو يحلل مكانة ودور التراث في حياتنا المعاصرة بين أشكال عديدة فيه منها: التراث المعطل في المتاحف، والحي في حياة الناس[37]. والتراث المدرسي الذي يكتب ويقرأ والتراث الشعبي الذي تتداوله الأجيال شفويا جيلا بعد جيل[38]، ويؤكد الدكتور عباس الجراري ان في التراث جوانب مضيئة سجلت مختلف مراحل تطور الأمة، واسهامها في الحضارة الإنسانية. مقابل جوانب أخرى ضعيفة. ويعرف بمواقف المحدثين من التراث التي تراوحت بين تقديسه وبين الإعراض عنه. وهو يقترح تجاوز تلك المواقف كلها إلى موقف آخر أصيل ومتفتح يستلهم من التراث ما يحفظ به الكيان، ويضمن وحدته، وقوته في مواجهة تحديات العالم المعاصر، وله خطة متكاملة أساسها النظرة العقلانية، ومن وسائلها تحقيق التراث ودراسته دراسة نقدية واستيحاؤه في الإبداع. وقراءته قراءة معاصرة وظيفية.

وهذا الموقف في عمقه دعوة إلى اعتبار التراث وسيلة من وسائل الحفاظ على هوية المغرب ووحدته، وتسهيل نهضته وتقدمه.

III- قضية الوحدة

أولى الدكتور عباس الجراري، في فكره، أهمية كبرى لقضية الوحدة. وقد أفضت تحليلاته ومناقشاته إلى ابراز عدة عناصر رئيسية فيها، تمحورت حول مبرراتها، وشروطها، وعوائقها، وأبعادها.

1- وللوحدة في فكر الدكتور عباس الجراري مبررات كثيرة أهمها:

أ - قيام النظام السياسي الإسلامي على أساس مفهوم الأمة «فالنموذج الإسلامي قائم على نظام الأمة الموحدة التي يسودها العدل وتعتمد الشورى، في نطاق إمامة أو إمارة أوجب كثير من الفقهاء أن تكون واحدة، على أن تكون قادرة على السهر على مصالح الإسلام والمسلمين»[39].

ب- التعلق الوجداني الجماعي بالوحدة «فالوحدة ليست مجرد خاطرة أو فكرة عابرة كما قد يتوهم، ولكنها مطلب كامن في أعماق الجماهير، وفي أعماق النخبة والقيادة كذلك. وأن هذا المطلب ليتحرك من حين لآخر، متطلعا إلى صيغة مناسبة تتيح له أن يتحقق وتحث عليه عوامل موضوعية معروفة، أبرزها الحاجة إلى الوحدة كي يخرج العالم الإسلامي مما هو فيه، ويأخذ طريقه نحو التطور والتقدم»[40].

ج- الماضي العربي الإسلامي الوحدوي، فدوافع الوحدة ودعائمها تتمثل «في عناصر التراث المتناقلة عبر الأجيال والمتطورة خلال العصور، وتتلخص في الحيثيات المشتركة وعناصر التقارب التي كونت امتنا من جنس وتاريخ ولغة ودين وثقافة ووجدان ومواقف وقضايا مصيرية مشتركة.. »[41].

2- ومن أهم الشروط التي يلح الدكتور عباس الجراري على توفرها لقيام الوحدة شرطان :

أ- التخطيط المحكم لقيام الوحدة «وحين نقول مشروعا محكم التخطيط، نعني مشروعا يعتمد إعادة تشكيل بنيات الأمة وهياكلها، بدءا من تفجير وعي بالوحدة

يكون مؤهلا لخلقها ، ويكون في نفس الوقت قادرا على حمايتها من كل محاولة داخلية للاجهاض، أو محاولة خارجية للنَّسْف، ولا يمكن لهذا الوعي أن يترعرع إلا في ظل الحرية المقرونة بالانضباط. وإذا كان الانضباط هو الذي سيبعد تلقائيا كل فوضى، وكل تسلط وكل إرهاب وكل قمع، فان تلك الحرية هي التي ستترك العيون والقلوب مفتوحة، وتمنحها القدرة على بناء الوحدة وعلى صيانتها ورد كل خطر محتمل»[42].

ب- دعم عوامل الاتحاد والتخفيف من حدة دوافع الفرقة: «وإذا كانت الوحدة لا يمكن أن تكون ايجابية إلا إذا تجسدت على بساط يلتقي فيه كل رأي وكل إبداع وكل اجتهاد وكل نقد، فانها في نفس الوقت تقتضي الجاما محكما بين الخصوصيات الاقليمية وعناصر الوحدة، كما تقتضي تقريبا بين المذاهب المختلفة بتنقيتها من الشوائب، ومن المظاهر التي لم يعد لوجودها داع أو مجال، وبتصفيتها من الخلاف القائم في بعض الجزئيات والقضايا التطبيقية وبالاتفاق على عدد من الأسس والمبادئ والغايات»[43].

3- أما عوائق الوحدة فهي في رأي الدكتور عباس الجراري «عميقة موضوعية وأبرزها ثلاثة :

- **أولا** : كون المسلمين وقد انغلقوا على أنفسهم داخل دويلات وطنية تمزق معظمها نزعات قومية ونعرات إقليمية تهدد حتى كيان هذه الدويلات، لم يعودوا يفكرون في امكان قيام الدولة الإسلامية الموحدة...

- **ثانيا** : وجود رواسب للفكر الانفصالي تجذرت في عقلية المسلمين عبر فترة غير قصيرة من التاريخ لم يكن المسلمون فيها ماسكين زمام أمرهم، بل هناك

رواسب خلافية بين المسلمين عنصرية مذهبية وطائفية سياسية، ما زالت تعمل عملها في النفوس والأفكار، تحرك وتثير وتنمي العصبيات الاقليمية والقوميات والوطنيات، مما عمق الهوات والفواصل وأبعد المسلمين عن روح الشخصية الإسلامية وأبعدهم بالتالي عن الوحدة...

ثالثا : تبعية المسلمين للقوى الأجنبية المختلفة، وهي تبعية متكرسة، ومتجذرة على عدة أصعدة، ولاسيما الثقافية والإقتصادية، حائلة دون تجميع الكلمة، ومحققة هدف تلك القوى المعادية للاسلام والمسلمين... »[44].

4- وللوحدة في تحليلات الدكتور عباس الجراري ثلاثة أبعاد متداخلة أحدها عربي، والآخر مغاربي، والثالث إسلامي.

أ- هو يعتقد أن الوحدة في بعدها العربي، «ضرورة عصرية... وأنها في نفس الآن مسؤولية تاريخية تجعلنا مخيرين بين أن نوحد أو ننهار. وما أحوجنا في الظروف الراهنة إلى أن ندْرك وجودنا القومي وكيفية التعامل معه، وندرك أن انقسامنا يشكل أخطر ثغرة ينفذ لنا منها الاعداء – والوحدة ليست حدثا مستجدا أو ظاهرة مرتجلة بل هي طبيعية لها أساس تاريخي وجذور ضاربة في أعماق الحياة العربية... »[45].

ب- وفي رأيه أن الوحدة في بعدها المغاربي «قائمة على خصوصية التنوع والتعدد والتكامل، وهي خصوصية تقوم بدورها على الحق في التفرد والتميز... »[46]، وان سياسة المستعمر «رغم ما كانت تسعى له من تمزيق وتشتيت عملت بأسلوب غير مباشر أو جعلت الوطنين يعملون على اذكاء روح الوحدة بين

أقطار المغرب العربي، كما تشهد بذلك مختلف الأحداث والمواقف... »[47] وهو يؤكد على «أن وحدة المغرب العربي ليست هدفا نهائيا بقدر ما هي هدف مرحلي، من شأنه أن يساعد على تحقيق الوحدة الكبرى في نطاق العروبة والإسلام. ولعل هذه المرحلية أن تجنبنا أخطاء الماضي – ويقصد – أخطاء التجارب الفاشلة على صعيد الوحدة العربية، ولعلها كذلك أن تتم بخطى وئيدة ومتدرجة.. »[48].

ج- ويؤمن الدكتور عباس الجراري بأن الوحدة في بعدها الإسلامي «موضوع تلح الساعة عليه بسبب واقع المسلمين المتمزق، واستفحال النزاعات والتناحرات، وتضخم النعرات والعصبيات، في وقت تسعى الدول المتقدمة إلى المزيد من التكتل والتجمع في صيغ شتى، بدءا من الأسواق المشتركة والأحلاف العسكرية إلى إقامة الكيانات المتحدة مما هو معروف... وضرورة تغيير المسلمين خططهم التبريرية الترقيعية بخطط أخرى بناءة تطرح فيها المشاكل الصميمية لتعالج بحسم، بعيدا عن الحلول المؤقتة المسكنة، وفي نطاق مقومات الإسلام وقيمه الحق، وفي إطار المعطيات العالمية والإنسانية »[49].

ويؤكد الدكتور عباس الجراري أن الوحدة في مختلف أبعادها لا تعادل القطيعة مع الآخر أي «أن الوحدة في بعدها المغربي أو العربي الإسلامي، لا تعني الانغلاق عن العالم، بل تعْني التفتح على الآخرين، وليس من شك من أن المغرب العربي مؤهل بحكم موقعه الجغرافي والفكري ليكون جسرا بين العالم العربي والإسلامي من جهة، وبين الغرب من جهة أخرى »[50].

ويلح الدكتور عباس الجراري، في تحليلاته لمختلف جوانب قضية الوحدة على ابراز توجهات المغرب الوحدوية القومية والإسلامية عبر التاريخ ولذلك يقول ان

«المغرب كان نزاعا إلى الوحدة، يشهد تاريخه الطويل أنه كان دوما يتحرك ويتطور في اطار قومي نحوها»[51].

ويقول كذلك «انطلاقا من وعي عميق بمبادئ الإسلام وبأبعاد نظامه السياسي، حاول المغاربة طوال التاريخ رأب صدع الدولة الإسلامية، وارجاع المسلمين إلى الوحدة سواء فيها انتجوا من فكر وأدب، أو فيما اتخذوا من قرارات سياسية»[52].

واعتمادا على هذا التراث يرى الدكتور عباس الجراري أن على مغاربة اليوم أن ينهضوا بادوار قيادية في الأمة الإسلامية. وفي ذلك يقول «ان الأمة الإسلامية مقبلة على منعطف جديد، وأن المغرب بموقعه الممتاز والمتميز في الساحة الإسلامية، وبتجربته التاريخية الغنية في مجال الوحدة، وبموقفه المعاصر والفعال، والمدعم من القيادات والجماهير الإسلامية، مؤهل ومدعو للنهوض بالدور المرتقب الحاسم، أي باحداث التغيير النوعي الذي يعيد الأمة الإسلامية إلى خط سيرها الطبيعي في نطاق تطورها السياسي والإقتصادي والثقافي والإجتماعي، وبكل الموضوعية التي تتيحها مختلف امكانات هذه الأمة وفعالياتها...»[53].

في هذا التحليلات أوضح الدكتور عباس الجراري أن للوحدة مبررات تتمثل في قيام النظام السياسي الإسلامي على مفهوم الأمة الواحدة الموحدة، وتعلق قيادة الأمة وقاعدتها الوجداني بالوحدة. ووحدة التراث والتاريخ والدين والثقافة واللغة ووحدة المصير.

ولابد لقيام الوحدة من تعميق الوعي بضرورتها وأهميتها، والتصدي لكل ارهاب فكري أو قمع، وتعزيز الحرية المشروعة التي لا تؤدي إلى الفوضى. واحترام

الخصوصيات الاقليمية، وتجاوز الخلافات المذهبية الجزئية، والالحاح على المبادئ الكبرى والأساسية والمشتركة التي تجمع بين المذاهب الفقهية الإسلامية. وتبدو عوائق الوحدة في الانغلاق على الذات، والنزعات القومية والعرقية، ومخلفات الاستعمار والميول الانفصالية والتبعية للاجنبي.

وللوحدة ثلاثة أبعاد تتقاطع وتتداخل وتتكامل احدها عربي والآخر إسلامي والثالث مغاربي:

ويفرض الوحدة العربية قانون تنازع البقاء بين الكيانات والبقاء في عالم اليوم للكيان الأقوى. وعلى الوحدة المغاربية ان تراعي خصوصيات البلدان الأقليمية، وهي مرحلية وفي الطريق إلى الوحدة الإسلامية، وقد قواها الكفاح المشترك ضد الاستعمار. وتبقى الوحدة الإسلامية مطلبا استعجاليا، بسبب تضخم النزعات العرقية والميول الانفصالية في العالم الإسلامي مقابل اتجاه الغرب نحو التكتلات السياسية والاقتصادية والعسكرية. وعلى العموم فالوحدة لا تعني القطيعة مع الآخر بقدر ما تؤكد على التفتح عليه.

وفي رأي الدكتور عباس الجراري أن المغرب نزاع إلى هذه الوحدة، وقد أكد تاريخه ميولاته القومية العربية والدينية الإسلامية الوحديوية. وعليه اليوم بحكم تاريخه ومؤهلاته السياسية والبشرية، أن يقود العالم الإسلامي إلى هذه الوحدة المنشودة.

ومن خلال هذا التركيب يمكن أن نستنتج بسهولة أن موقف الدكتور عباس الجراري تميز بالتنصيص على التقاطع بين العربي والمغاربي والإسلامي في الوحدة، وباحترامه للخصوصيات الاقليمية، وتجاوزه للتعارض الفكري بين مفهوم

الوحدة القومية ومفهوم الوحدة الدينية، وبالتأكيد على دور المغرب التاريخي القيادي في العالم الإسلامي. وبامكاننا أن نلاحظ كذلك أن مشروع الوحدة في هذا الموقف مطلب حيوي لأنها ضرورية وممكنة. وان على المغرب اليوم أن ينهض بأدوار قيادية فيه.

ثالثا حول مكونات الثقافة الوطنية

درس الدكتور عباس الجراري مكونات الثقافة الوطنية، وأفضت تحليلاته ومناقشاته إلى ابراز العناصر الأساسية فيها، من خلال تحديده لخصائص الثقافة الوطنية الحية، ومواصفات المثقف والأديب الفعّالين فيها. وطبيعة أدبها وأنواعه ولغاته. والاختيارات المنهجية والفكرية التي تشكل قاعدة دراسته. والشروط الموضوعية لقيام الجامعة بدورها في دعم الثقافة الوطنية وإسهامها في جهود التنمية.

1- ويرى الدكتور عباس الجراري انه «لابد للثقافة الوطنية حتى تلعب دورها في التغيير أن تتوفر لها الملامح الآتية:

- **أولا** : أن تكون أصيلة تقتبس من التراث جوانبه الإيجابية والتقدمية.

- **ثانيا** : أن تكون معاصرة تعيش ثقافة العصر وحضارته في تجاوب وتفاعل.

- **ثالثا** : أن تكون واقعية تمثل الصراع من أجل تحقيق الوجود الوطني، وتخلقه وتنميه، وتوجد التوازن في حاضرنا بين الماضي والمستقبل وتطرح الحلول للمشاكل التي تواجهنا...

- **رابعا** : أن تكون انسانية تتجاوب مع القضايا المصيرية للانسان كيفما كان وأينما كان...

- **خامسا** : أن تكون ابداعية تقوم على الخلق والابتكار بعيدا عن مجرد النقل والتقليد.

- **سادسا** : أن تكون علمية تعتمد البحث عن الحقيقة وستخدم مناهج التجريب والتحليل والنقد، وتجارب الشعوذة والخرافة. وتبتعد عن التجريد والتغييب.

- **سابعا** : أن تكون عملية تجمع بين الفكر النظري والممارسة التطبيقية.

- **ثامنا** : أن تكون جماهرية تعطي الجماهير – وليس للنخبة – حق السيادة والقيادة، في غير عزلة عن التيارات السياسية والإجتماعية.

- **تاسعا** : أن تكون مسؤولة تجعل حامليها يدركون ويتحملون مسؤوليتهم التاريخية...

- **عاشرا** : أن تكون حرة تشيد بالحرية وتناضل في سبيلها.

- **الحادي عشر** : أن تكون ثورية تفضح الفساد، وتكشف الزيف، وتخطط للتغيير وتطبقه وتلبي الحاجات الملحة التي تفرضها المرحلة التاريخية الحاسمة التي نجتاز...

- **الثاني عشر** : أن تكون عقدية تبشر بعقيدة سياسية تقديمية واضحة صالحة لكي تؤمن بها الجماهير وتلتف حولها وكفيلة بأن تخرجنا من البلبلة الفكرية التي نعاني منها... »(54).

2- ويعتقد الدكتور عباس الجراري أن المثقف «هو الذي يجعل من تكوينه العلمي حجر أساس ونقطة انطلاق، فلا يقف عنده، ولا يجمد عند حدود مهنته، ولا

يدفن نفسه داخل تخصصه، ولا يعيش لذاته، ولكن يتفتح على الحياة والناس وعلى عصره وعلى العالم ويعانق المشاكل ويكون له فيها رأي ويتخذ منها موقفا – هو الوطني المنتمي للجماهير الذي يلتزم في عقيدته وفكره بقضايها المصيرية يحس بها وينفعل معها، ويخلق من إحساسه وانفعاله فكرة العمل وممارسته... يعرف – باعتبار دوره القيادي – حركات الجماهير ومطامحها وتحفزاتها وافتراحاتها، واعتراضاتها فيدرسها وينظم شتاتها ليستخلص منها، ثم ليقدمها لها بعد ذلك منسقة وموجهة وجهة سليمة... وهو سياسي يلجأ إلى السياسة يستخدمها ويتوسل بها وينشرها في الجماهير... لأن السياسة عامل أساسي في توعية المواطنين.. »[55].

3- ويصف الدكتور عباس الجراري الأديب بكونه «صاحب رسالة انسانية، يعي الماضي بحيوية، وعمق انطلق من دوافع التأمل والتجديد فيه، ويواجه الحاضر بايمان صادق لينفعل مع ظروفه ويدرك ما يكتنفها من مشاكل ونزعات، ويستشف المستقبل بإحساسه المرهف، ليكشف آماله وتطلعاته وكل خباياه. فهو بعين الضمير، وفراسة القلب وبموهبته وبصيرته وخبرته، ومن خلال شخصيته الواعية، وذاتيته المنفعلة ستطيع أن يصل إلى أعماق مواطنيه وستوعب مشاعرهم، وما يدور في خلدهم، ويمثل حقيقة الانفعالات التي تعتمل في نفوسهم حتى ما كان منها كامنا في اللاشعور، وفي أكثر الحالات ابهاما وأشدها غموضا وتعقيدا. هو انسان مواطن ينفعل مع مواطنيه بالأحداث، ويلتحم بالصراع الذي يخوضونه جميعا، فيعمل ويخلق ويتجاوز من أجل الأحسن والأفضل. ولكنه فيهم طليعة واعية، يمهد السبيل لحركة التغيير، ويحدد لها الرؤيا والبعد، ويحشد لها الطاقات ويفجرها، ويلهم الجماهير حركة الكفاح وحب الحرية والتطور والتقدم... »[56].

ويعتبر الدكتور عباس الجراري «الأدب رمز كيان الأمة، والجهاز الموجه في حياتها والمرآة التي تنعكس عليها صورة هذه الحياة كما كانت، وكما هي وتَنْبَثِقُ منها كما يجب أن تكون يبث فيها قوة الدفع حين تضعف وتنحل، وينفث فيها روح العزة حين تذل وتنكسر، ويوقظ وعيها حين تغفو وتميل»[57].

ويؤكد الدكتور عباس الجراري أن الأدب يقترن بالحرية فهما «ظاهرتان متلازمتان، فانطلاق الأدب يحقق الحرية وانطلاق الحرية يحقق الأدب المبدع، وكلاهما لا يمكن النظر إليه بمعزل عن فكر الإنسان ووعيه وواقعه ومصلحته... وحرية الأدب بطبيعتها تعني رفض كل أنواع الوصاية، ولكنها لا تعني الفوضى وإطلاق العنان للأدب المكشوف، أو أدب المجون الرخيص، أو أدب الثورة المضادة، أو حتى للأدب الحر السلبي الذي يكتفي فيه صاحبه بتحقيق ذاته بالقلق والغضب، دون أن يتخطى فرديته للالتحام بالجماهير، ومهما بلغ هذا الأدب من الروعة والإبداع والعبقرية في شكله وفحواه، فإنه لا يمكن أن يحدث أثرا في المتلقين لأنهم لن يحسوا فيه تعبير منتجه عما يعتمل في نفوسهم، والتحامه مع مشاكلهم، وهذا يقتضي ربط الحرية بالعقيدة السياسية والمفاهيم النضالية والأهداف القومية الكبرى التي تدين بها الجماهير، وربطها كذلك بالقيم الأخلاقية التي يتجاوب معها الوجدان الشعبي، كل ذلك حماية لجوهر الحرية نفسها من أن يمس أو يداس وصونا لبنائها من أن تتسرب إليه عوامل الهدم والتخريب.

والأديب داخل هذا الإطار متروك للاحساسه بالمسؤولية لا يأتيه أمر أو تشريع من أية سلطة مهما كانت، ولا تفرض عليه أية رقابة سوى رقابة الضمير الفردي والجماعي، وربما كان في هذا تقييد للحرية، ولكنه تقييد جماهيري تلقائي لا يقصد إلى غير كبح جماح الذاتية الفردية»[58].

4- ويحظى الأدب الشعبي في تحليلاته الدكتور عباس الجراري بكثير من الاهتمام، بل له فيه موقف فكري متكامل، ورؤية واضحة، نقرأ فيها تحديداً لمفهوم الأدب الشعبي، وقيمته التاريخية، ووظيفته الايديولوجية في تشكيل الهوية ودعم الوحدة الوطنية. والقضايا الفكرية المترتبة عن تعدد لغاته ولهجاته :

أ- يعرف الدكتور عباس الجراري الأدبي الشعبي قائلا «الأدب الشعبي ليس هو الأدب الرخيص أو الوضيع المبتذل كما قد يظن، ولكنه الأدب الذي يستوحي من الشعب في مختلف طبقاته، ويفيض بروحه، ويعبر عن ذوقه ومشاعره، ويصور عقليته ومستوى حياته، ويميز شخصيته وثقافته لا فرق بين أن يكون مسجلا بالكتابة أو مرويا بالشفاه، صادرا عن فرد أو جماعة ناشئا في قرية أو مدينة، لا اشتراط الا أن يكون بلغة عامية»[59].

ب- وحدد الدكتور عباس الجراري القيمة التاريخية والوظيفة الايديولوجية للتراث الشعبي فقال انه «يمثل لنا الدور القومي الذي أداه في الماضي للمحافظة على ذات الفرد والجماعة، وقلنا كذلك.أنه تعبير عن نفسية الشعب ومفتاح شخصيته، والنافذة التي يمكننا الاطلال منها على أصول ثقافتنا وما طرأ عليها من تطور وتغيير... ونضيف قيمة أخرى للتراث الشعبي، وهي أنه متى جمع ودرس وقوم، ومتى صفي من الشوائب والخرافات التي تسربت إليه في الفترات المضطربة من تاريخنا، ومتى أجلي منه كل ما هو أصيل وعريق، كان أصلح قاعدة يمكن أن نقيم عليها حاضرنا ومستقبلنا، في سلسلة ترتبط بصلات متينة من تاريخنا الثقافي والحضاري ويوم نعي حقيقة هذه القيمة، نستطيع أن نخلق ثقافة قومية تمثلنا بحق، وتملأ الفراغ الكبير الذي نحسه، وتحمينا من الغزو الفكري المنظم

الذي يوجه إلينا دون أن نشعر به، فمن حق الشعب أن تكون له ثقافة وطنية ذات طابع قومي متميز تمثله وتحفظ كرامته، وتصون استقلاله، وتبرز خصائصه وملامح شخصيته، تستمد أصالتها من الجذور الحضارية في أعماق تاريخه، وتستوحي روحها من الفروع التي امتدت إليه عبر الأزمنة والعصور»[60].

ج – وأضح الدكتور عباس الجراري العناصر الوحدوية في الأدب الشعبي بقوله : «هناك في التراث الشعبي ملامح وحدوية أريد أن ألفت الانتباه إليها، وألح في ذلك، وفي طليعة هذه الملامح روح التراث الشعبي، ويمكننا أن نقول فلسفة التراث الشعبي، هذه الفلسفة يمكن أن ننظر إليها من زاويتين اثنتين الأولى أن هذا التراث يبدو لنا في ظاهره وكأنه ألوان مختلفة وألوان مشتتة ومبعثرة، ولكنه في باطنه صادر عن فلسفة معينة، يمكن أن نعتبرها فلسفة شعبية، هذه الفلسفة تقوم على الالحام بين الأفراد بعضهم مع بعض في المجتمع الواحد من جهة ومن جهة ثانية الالحام بين هذا المجتمع كأفراد، وبين الأرض التي يعيش عليها هؤلاء الأفراد... »[61] والثانية هي أن «الروح العربي الإسلامي سيطبع تراث هذا البلد ويكيفه ويصبح العامل الفعال في الشخصية المغربية، والمحرك الأول في توجيه المسيرة الحضارية والثقافية، والعنصر الأساسي في تشكيل الأخلاق ومعايير السلوك... »[62] وهذه «الفلسفة التي اقتصرنا فيها على هاتين الزاويتين، تعطي للتراث الشعبي أبعادا تتعدى البيئة وتتعدى الاقليم، وذلكم عنصر أول من عناصر الوحدة أو سماتها في التراث المغربي، ثم أن هناك استعدادا فطريا لدى الشعب لتجاوز الحدود أي لتجاوز الحدود البيئية والاقليمية، لأن العقلية الشعبية لا تعرف تلك الحدود، انها لا تعرف الحدود لا في الزمان ولا في المكان... »[63] ومن ناحية

أخرى «فالتراث الشعبي ليس كما نظن ملكا لاقليم معين أو بيئة محددة، التراث الشعبي ملك شائع داخل الوطن وخارجه... فنحن في المدن نطرب للفن الشعبي البدوي أو الجبلي، وفي البوادي والجبال بل في المناطق التي لا نتصور أن يكون فيها تجاوب مع فن ما نجد أن هناك أصداء واسعة. هذا التراث يتعدى نطاق الاقليم إلى الوطن بل إلى الأمة... وهناك ملامح في التراث الشعبي لم تعد ملكا لإقليم معين، بل لم تبق ملكا للوطن، وتعدته إلى نطاق الأمة العربية الإسلامية.. »(64).

5- وحلل الدكتور عباس الجراري الواقع اللغوي المغربي دارسا علاقات الفصحى بالعامية وباللهجات المحلية.

أ- وهو يعتقد أنه لا خطر للعامية على الفصحى وأننا «لم نعد نخشى من العامية على الفصحى، لأننا نعتبرها عاجزة عن أن تتعدى نطاق التعبير الشعري إلى نطاق الفكر، الذي يجد في الفصحى مجاله الرحب، ولأننا تحررنا من الاستعمار الذي لم يكن يحاول القضاء على الفصحى ليحل محلها العامية كما قد يظن. وإنما كان يحاول القضاء عليهما معا ليحل لغته هو. وأهمية دراسة العامية لا تكمن فقط في أنها وسيلة التعرف إلى ما انتج فيها من أدب ولكن في انها كذلك وسيلة لامداد الفصحى وتزويدها بكثير من الجديد. وليس هذا فحسب بل ان دارسة العامية المغربية وغيرها من العاميات العربية ستكون السبيل لاقامة وحدة لغوية إذا ما استخلصت صفات هذه اللهجات وخصائصها وعناصرها الأصيلة والدخيلة، وبوبت معانيها، وحصرت الكلمات التي تستعمل لكل معنى، وبحث عن الدخيل المشترك فيها. فليس من العسير إذ ذاك أن تكون لهجة موحدة إذا ما

أتيحت لها وسائل النشر السمعية والبصرية في كل البلاد العربية للتغلب على الفوارق الصوتية والاختلاف في النطق»[65].

ب- ويلاحظ الدكتور عباس الجراري من ناحية ثانية «أن هناك واقعا لغويا في المغرب نعرفه جميعا. هذا الواقع تبدو فيه اللغة العربية في الطليعة... هذه اللغة لا يجادل أحد في أنها لغة الدين والعلم والتعلم والإدارة، أو هكذا ينبغي أن تكون، رغم التعثرات التي تصادفها، هذا واقع واستمرار تاريخي وفكري لا يمكن أن نجادل فيه، ولكن إلى جانب هذه اللغة هناك لهجات متعددة، هناك اللهجة العامية العربية المتداولة بين الجميع، ثم هناك اللهجات البربرية: تمازيغت، تاشلحيت، تاريفيت، وهناك لهجة الصحراء الحسانية. وكما نعترف بأن اللغة العربية المدرسية هي لغة الفكر والدين والتعليم والإدارة، يجب أن نعترف بأن تلك اللهجات تشكل واقعا محليا في بيئات معينة. هذا الواقع يتسم بالازدواجية التي لا مجال لانكارها، وفي نفس الوقت. نعترف بأن تلك اللهجات تغني الوجدان الوطني بما تبدعه من ألوان التعبير المختلفة ولاسيما في القضايا الحيوية والقضايا الوطنية وكل ما يمكن أن يذكي الحماس. ويهز العواطف»[66].

وإذا كان الدكتور عباس الجراري يقرر أنه «في «البيئات التي توجد بها لهجات مختلفة لابد من أن نعترف بواقع الازدواجية... وهي ازدواجية تغني الإحساس الوطني والوجدان الوطني بما يبدع فيها»[67]. فهو نفسه يذكر بأن «اللهجات البربرية تنتسب للمجموعة السامية الحامية... وأن هذه اللهجات احتكت مع اللغة العربية، واغتنت بهذا الاحتكاك، وأغنت اللغة العربية كذلك بتلك المسيرة. وان العلاقة بين هذه اللهجات عربية كانت أم بربرية مع اللغة الأم علاقة وطيدة لا

تحتاج إلى تفسير..»[68] وقبل هذا وبعده فالتراث الشعبي والآثار العمارنية التاريخية في المشرق والمغرب شواهد تاريخية تساعدنا «على ترجيح العناصر التي تؤكد أرومة البربر العربية»[69]

6- حرص الدكتور عباس الجراري على توجيه الدراسة الأدبية نحو التجاوب مع المواقف التي دافع عنها، والمبادئ التي آمن بها في قضايا الهوية الوطنية، ومقومات الشخصية المغربية، والفكر الإسلامي المعاصر. ولذلك قدم عدة اختيارات مبدئية واعتبارات اجرائية منها:

أ- أن التركيز على دراسة الأدب الوطني لا يعني تضخيم الخصوصيات الاقليمية، ولذلك يقول اننا حين «ننقب عن الخصوصيات ونبحث عنها فيما هو شعبي، لا نسعى من ورائها إلى أن نقيم كيانا متميزا لهذه الثقافة أو لهذا الأدب أو التراث، ولكن ننظر في الجزء لنصل إلى الكل. ونحن لا نفعل هذا فقط مع التراث الشعبي أو مع الثقافة الشعبية، ولكن نفعل ذلك مع كل أنماط الثقافة الوطنية والفكر المغربي، حتى حين ننظر في الأدب المدرسي فاننا ندرسه ونحاول أن نقف فيه على بعض الخصوصيات المميزة، لا لنقيم له كيانا منفردا ومنفصلا، ولكن لنغني مسيرة الأدب العربي، ولنغني الثقافة العربية، والفكر العربي في النهاية، أي نغني هذا الفكر والثقافة بأشياء جديدة تضيف دما جديدا، أو تحرك الدم القديم، وتجدده وتبعث نبضه، وإلى نفس الهدف نقصد بالنسبة للتراث الشعبي»[70].

ب- ان على الباحثين في الآداب الوطنية أن يحذروا الانزلاق إلى زرع النزاعات الانفصالية أو ترسيخ قطيعة مع الأصول التراثية. ولذلك «فالذين يقفون

عند الخصوصيات أو يريدون أن يقفوا عندها - بدون ربط لها بعناصر الوحدة - سوف ينتهون إلى نتائج سلبية لن تخدم الثقافة والتراث، ولن تخدم الوحدة، بل قد تتكون حولها ولاءات تناهض الوحدة، وهي ولاءات لن تكون إلا سقيمة ومريضة. وإذا كان الواقع العربي والإسلامي يتسم اليوم بالتمزق والتشتت فإن المستقبل لن يكون إلا للوحدة وفي ظلها، ونحن جميعا، وإن كنا نناضل على أرض محددة، فإننا نسعى إلى ما هو أوسع، نسعى إلى الوحدة الشاملة، بعيدا عن الكيانات الصغيرة والاقليميات الضيقة التي لا تخدم شيئا ثابتا وصحيحا، سواء على صعيد السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة.

ونحن في هذا الإطار مطالبون، ونحن ندرس التراث الشعبي في مختلف ألوانه وأشكاله، أن نضم الجزئيات بعضها إلى بعض، والتفاصيل بعضها إلى بعض، وأن نحاول البحث عن العناصر الموحدة ونقويها وتعززها، بل نحن مطالبون بأن نربط بين التراث الشعبي وبين التراث العام، لأن الهدف - أو من الأهداف - أن نتجاوز الهوة التي تفصل بين ما هو شعبي وما هو غير شعبي في مختلف المجالات والميادين... »[71].

ج- ان على الباحثين في الآداب الوطنية أن يجروا دراساتهم على «مستويين اثنين: الأول مستوى وطني مغربي والثاني - وهو أوسع وأعم - فمستوى عربي. وأقصد بالوطني الا تنتهي الدراسة إلى التفكيك والتجزيء والتشتيت وهو قصد أربطه - يقول الدكتور عباس الجراري - بما سبق أن قلته في البداية عن المفهوم المتسع الذي أنظر إلى الأدب من خلاله. فبقدر ما أوسع نطاق هذا المفهوم، لقبول جميع أنماط الأدب وأشكاله وألوان تعبيره في الدراسة، أخشى على هذا الأدب أن

ينتهي إلى نوع من التفكيك والتجزيء والتشتيت قد يفضي إلى مجموعة من الكيانات الأدبية الصغيرة، بحكم البيئات المتعددة والمتنوعة التي تبدع الأدب، والفن والفكر، وتغني الحركة الإبداعية بصفة عامة في هذا البلد. وأقصد بالمستوى العربي إلى أن تحاول الدراسة ربط قنوات للاتصال أو للوصل بين الأدب المغرب يفي مختلف أنماطه، بما في ذلك النمط الشفوي، وبين الأدب العربي ككل، انطلاقا من الخصوصيات أو المميزات التي أفرزها الابداع المغربي في تأثره بالبيئة أو البيئات المحلية. ولكن ليس بالانتهاء إلى أن هذه الخصوصيات تشكل كيانا منفصلا أو مستقلا، وإنما باعتبارها تضيف ملامح إلى الصورة المتسعة، أي صورة الأدب العربي، في شكلها التام المتكامل، وهذا ما يجعل الاقليمية من منظور المنهج مجرد وسيلة لغاية أوسع »[72].

د- وفي ضوء هذه المبادئ والاجراءات يصبح مفهوم الاقليمية أدبيا، مفهوما مجردا من الايديولوجية الانفصالية. وفي ذلك يقول الدكتور عباس الجراري «نقطة البدء عندي تنطلق من الاقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة. ولكني أؤكد أني حين أقول الاقليمية، وتأثير البيئة في الأدب والتراث عامة، لا أنسى الشخصية الذاتية، والموهبة الفردية. ولا أعني تضييق الأفق والانحصار في إطار المحلية، أي أني لا إعتبر الاقليمية هدفا، لسلبية جميع أبعاد هذه الهدف، ولكني أعتبرها وسيلة للم شتات الأدب العربي والفكر الإسلامي، وغيرهما من أنماط التراث في كل البيئا ت الحضارية والثقافية التي اتاحت الابداع، وأعتبرها سبيلا لتكميل الرؤية الوحدوية بكل ما يكسبها من خصب وغنى وتنوع انطلاقا من خصائص في الخلفية الثقافية والتجربة المحلية لكل إقليم،

بالإضافة إلى العوامل البيئية المؤثرة التي تنعكس على المزاج والروح، وعلى الطابع واللون وهذا ما يجعلني في النهاية أعتبر الاقليمية جواز المرور للعالمية والإنسانية، حين تنصهر تلكم العوامل البيئية مع عناصر التفاعل التي تتيحها آفاق الكون الواسع... »(73).

هـ- وليتمكن دارسو الأدب من الالتزام بتلك المبادئ وبلوغ أهدافها المحددة، يقترح الدكتور عباس الجراري منهجا أدبيا نقديا تاريخيا للتعامل مع النصوص الأدبية يقوم على ضرورة ربطها «بالمعطيات الفكرية والتاريخية وأحيانا بالمعطيات المذهبية أو الايديولوجية التي رافقت الابداع وأثرت فيه، أي بالسياق »(74) ويقول الدكتور عباس الجراري «اننا حين نتحدث عن السياق وكثيرا ما نستعمل هذا المصطلح في مجال الإبداع والبحث، نتصورالتاريخ ونستحضره سواء في جزئيته أو في شموليته »(75).

7- وحظيت الجامعة باهتمام متزايد في تحليلات الدكتور عباس الجراري، نظرا لدورها الحيوي، في تشكيل الثقافة الوطنية. وقد خاضت تحليلاته في مناقشة ثلاث قضايا رئيسية تهتم كلها بفعالية الجامعة في الإسهام في تنمية المجتمع وتقدمه. وهي :

أ- هيكلة الجامعة وتسييرها وما يقتضي ذلك من اصلاحات مستعجلة. وفي رأي الدكتور عباس الجراري ان الاصلاح «يقتضي في خطوطه العريضة:

- **أولا** : استقلال الجامعة بما يتيح لها التسيير الذاتي تربويا وإداريا وماليا في تعاون بين الأساتذة والطلبة والإداريين...

- **ثانيا** : (احترام) حرمة الجامعة...

- **ثالثا** : بناء ديمقراطي لهياكل الجامعة وفق مسطرة انتخابية يتفق عليها أعضاء الجامعة من أساتذة وطلاب.

- **رابعا** : توسيع الجامعة بانشاء ما يعوزها من كليات وانشاء جامعات أخرى في الأقاليم التي تستكمل الشروط اللازمة...

- **خامسا** : تكوين الأطر الضرورية لمغربة الجامعة ولتحمل عبء توسعها بتنظيم ارسال البعثات للخارج...

- **سادسا** : وضع تخطيط متكامل يمكن من تعريب الجامعة ومن النظر إليها في إطار قضايا الوطن ومشاكله وأزماته - ولابد لهذا التخطيط أن يوضع في ضوء ايديولوجية المجتمع، ووفقا لاحتياجات نمونا السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي. وفي انسجام تام مع الظروف الوطنية والقومية والعالمية»(76).

ب- التأكيد على دور الجامعة في البحث العلمي الوطني «باعتبار أن البحث العلمي، في منظور الدكتور عباس الجراري» يستند إلى طاقات ذهنية متبلورة في قدرات على فهم العالم المادي والبشري، ويحتاج - لكي يكون فعالا وايجابيا في مسيرة التنمية - إلى ان يواكب تطور المعرفة، حتى ما كان منها في مرحلة التأسيس والتكوين، مع هضم لتراثها والتطلع للجديد الذي ظهرت بوادره أو لم تظهر بعد. وللجامعة يقول الدكتور عباس الجراري دور أساسي في هذا المجال، أقصد الجامعة في مدلولها الحق، الذي يجمع بين تبليغ المعرفة والمساهمة في صنعها بما يقدمه أساتذتها الباحثون من دراسات جاهزة، أو يعرضونه من

افتراضات وربما من أفكار وخواطر تنتج عن تأملاتهم الحرة في عالم من عوالم تخصصهم... وان البحث العلمي لكي يكون في خدمة التنمية يحتاج إلى التوفيق بين جانبيه النظري الأساسي والتطبيقي العملي، وهو ما لا يتحقق الا بالتنسيق المحكم بين الجامعات والمدارس المتخصصة ومراكز البحث والمختبرات... »[77].

ج- التنبيه إلى أهمية العلوم الإنسانية في الجامعة وفي التنمية الوطنية، وفي ذلك يقول الدكتور عباس الجراري لقد «أصبح واجبا أن يقع الالتفات الجاد إلى إعادة النظر في أوضاع هذه المؤسسات الجامعية بدءا من مفهومها ودورها، إلى المناهج والمقررات، فقضايا البحث العلمي، على أن يتم ذلك ليس وفق متطلبات احياء التراث لاثبات الذات وتثبيت الأصالة فحسب، وقد تحقق من ذلك الشيء الكثير – ولكن بادماجها في المحيط الاقتصادي والاجتماعي، مما ينبغي النظر إليه في ضوء مقتضيات التنمية الشاملة، ومدى دور الدراسات الانسانية فيها بالقياس إلى دور البحوث التقنية العملية خصوصا، وقد أخذت أصوات بعض الواهمين ترتفع زاعمة ربط الحركة التنموية بهذه البحوث، وبالامكانات الاقتصادية فقط، غير معتبرة أي أثر في ذلك للجامعة ودراساتها النظرية... ويمكن القول بأن الجامعة عنصر أساسي في هذا المضمار الذي لا يمكن أن يتحقق بدون تكامل بين مختلف ميادين البحث، وبدون توازن بين شتى مستلزمات التنمية، ولاشك أن الجانب الأدبي والانساني يكون فعالا فيها إذا تطور وتزيد فعاليته إذا كان متصلا بالوطن يستطيع تلبية حاجاته وما تستوجب من معرفة منتجة وتكوين نافع... »[78].

وواضح أن الدكتور عباس الجراري يدعو عبر هذه التحليلات إلى تشكيل ثقافة وطنية من مميزاتها انها: أصيلة ومتفتحة على العصر، وواقعية تسهم في

التقدم والتنمية، وانسانية تهتم بقضايا الانسان في كل زمان ومكان. وابداعية تقوم على الخلق والابتكار. وعلمية تولي أهمية كبرى للعلوم التجريبية. وعملية تزاوج بين التفكير والممارسة. وجماهيرية تستهدف خدمة الجماهير دون النخبة. ومسؤولة تجعل حملتها واعين بمهامهم التاريخية. وحرة تؤمن بالحرية وتدافع عنها. وثورية تعجل بالتغييرات الجذرية الإيجابية. ولها أطروحاتها الفكرية الواضحة.

والمثقف في هذه الثقافة عالم متفتح في مجتمعه وعصره واع وملتزم بقضايا الجماهير، ومتحالف معها، وهو سياسي يؤمن بجدوى السياسة، ويمارسها.

وللأديب في هذه الثقافة عمق انساني ووطني، وهو ثوري سياسي ملتزم بقضايا الجماهير ويستلهم وجدانه ويهتدي بوعيه.

والأدب في هذه الثقافة اداة من أدوات التوجيه نحو النهضة والعزة والتحرر، يكون بالحرية وتكون به، وحين يكون شعبيا يعبر عن نفسية الشعب، ويسجل وقائع احداثه التاريخية، ويتنوع بتنوع بيئاته، ولكنه يعكس دائما عناصر الوحدة وينميها.

ويلاحظ الدكتور عباس الجراري، في الواقع اللغوي المغربي، أن اللغة العربية لغة التدين والتعليم والادارة. وان اللهجات البربرية وسائل للتواصل المحلي، وللتعبير الفني الذي يغني الوجدان، وأصولها عربية، وكذلك العامية، فهي متداولة بين الناس بها يتواصلون ويعبرون عن انفعالاتهم وأحاسيسهم، ولا يمكن أن تتعارض مع العربية لأنها منها وتتفاعل معها.

ويلح الدكتور عباس الجراري على أن تعنى الدراسة الأدبية بمختلف أنواع الأدب وأجناسه في بيئاته المتنوعة، دون أن تنزلق إلى تضخيم استقلالية البيئات

والآداب وتجاهل عناصر الاتحاد فيها. وان الاقليمية في ضوء هذه المبادئ مفهوم أدبي معادل للبيئة لا ينبغي أن يسقط الدارسين في المفهوم الايديولوجي الذي يفضي إلى الانفصال والقطيعة... وان مراعاة هذه الأسس في التحليل الأدبي تقتضي أن تربط النصوص الأدبية الابداعية بعصرها وبيئاتها وتياراتها الايديولوجية.

ويوضح الدكتور عباس الجراري كيف ان الجامعة ستؤدي دورها الكامل إذا حققت استقلالها المالي والإداري. واحترمت حرمتها، وسيرت على أساس ديمقراطي ووسعت مؤسساتها ووفرت لها الموارد البشرية وعربت وتجاوبت مع نمو البلاد وتطورها وملابسات حياتها المعاصرة. وان دراسات العلوم الإنسانية و في إطار البحث العلمي، يجب أن توجه نحو دراسة التراث الوطني وخدمة التنمية.

وتبدو الثقافة الوطنية في تحليلات الدكتور عباس الجراي ذات أنظومة متكاملة، لها مؤسساتها العلمية. والفاعلون الأساسيون فيها، ولها مجالاتها ولغتها ولهجاتها، وأهدافها.

وتتمثل المؤسسات العلمية الكبرى لهذه الثقافة في الجامعة والمعاهد العليا. ويتشخص الفاعلون الأساسيون الثقافيون في الأساتذة الجامعيين والأدباء والمثقفين عامة. وتحدد مجالات الثقافة الكبرى في العلوم التجريبية، والعلوم الإنسانية والأدب بنوعيه الإبداعي والوصفي أي بما فيه من أجناس أدبية، ونقد ودراسة وتأريخ.. أما اللغة الوطنية فهي العربية وهي لغة الدين والتعليم والإدارة. مقابل لهجات جهوية بربرية للتواصل الحياتي والإبداع الفني.. وتتحدد أهداف هذه الثقافة في العمل على الحفاظ على وحدة المغرب والسعي إلى تنميته وتقدمه، وبذلك

تتجاوب الثقافة مع الهوية المغربية والشخصية الوطنية وبذلك يكون الدكتور عباس الجراري قد شكل فعلا نسقا متكاملا للثقافة المغربية المعاصرة.

* * * * *

أثمرت جهود الدكتور عباس الجراري التنظيرية، وعبر اتجاهات مختلفة ومتنوعة ومتعددة في التحليل أطروحة فكرية متكاملة :

وتقدم هذه الأطروحة المغرب كيانا سياسيا قائما اليوم كدولة وكشعب. ولكن جذورة ممتدة في أعماق التاريخ، له هويته المتميزة، وخصائصه النفسية والذهنية. وتراثه الغني، وحضوره القوي في التاريخ. الإسلام دينه، والمالكية مذهبه والعربية لغته، ووحدته تقوم على التنوع والاختلاف وله حرص شديد ودائم على اتحاد العرب والمسلمين ودعم استقلالهم وعزتهم، وعلى الأدباء، وعلى المثقفين عامة أن يسهموا في نهضته وتقدمه وازدهاره، واحياء الجوانب الخصبة والايجابية في تراثه، ودعم وحدته مع احترام الخصوصيات الجهوية لمختلف نواحيه.

وهذه الأطروحة تبدو حاضرة بقوة في المغرب المعاصر، وعلى مختلف مستوياته :

وسياسيا، يمكن أن نرى بعض أبعادها، بعد حصول المغرب علي استقلاله. وهي تظهر مثلا في احتضان المغرب للعديد من مؤتمرات القمة العربية. وتأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي، وتأسيس اتحاد المغرب العربي، وتتبع وتوجيه تطورات القضية الفلسطينية ورئاسة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله للجنة القدس... فضلا عن الدعم العسكري لدول المواجهة في المشرق العربي بتجريدات مغربية لسورية ومصر... وكذا لمقاومة الاستعمار الجزائرية... وقبل ذلك وبعده، العمل على

استكمال الوحدة الترابية المغربية... تم محاولات التقريب بين المذهبين الشيعي والسني...

– وفكريا يمكن أن نرى بعض أبعادها الأخرى في جهود المفكرين المغاربة كمحمد عابد الجابري ومحمد وقيدي وكمال عبد اللطيف وطه عبد الرحمن... ففي كتابات هؤلاء، ومؤلفاتهم معروفة ومتداولة، نواجه نفس الأسئلة الفكرية حول التراث والمعاصرة، والوحدة الإسلامية والعربية والمغاربية. وحول الدين الإسلامي والقومية العربية وحول الهوية الوطنية. وحول الثقافة والجامعة والتنمية..

وأدبيا يمضي الإبداع المغربي الأدبي في الأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية الشعر نحو التعبير باصرار وبأشكال متنوعة عن قضايا المغرب المعاصر، التي تخص مميزات هويته، ومقومات شخصيته، ومكونات ثقافته ومقتضيات تنميته وتقدمه، وهذه العلاقة بين الأدب المغربي وواقعه أكدتها أغلب بحوث الجامعيين المغاربة لأنها تأسست على المقابلة بين الأدب والواقع في عمومه أو في بعد معين من أبعاده..

ومن ناحية ثانية لاشك أن الخطوط الكبرى للأطروحة على مستوى التنظير، يمكن أن تلقي الأضواء الكاشفة على كثير من أبعاد الممارسة في مشروع الدكتور عباس الجراري. وباستحضارها نفهم بوضوح أسباب إقدامه على الكتابة عن دور الأدب المغربي في الأحداث التاريخية الكبرى كتبا نذكر منها «معركة وادي المخازن في الأدب المغربي» و«النضال في الشعر المغربي من 1830 إلى 1912 » و«قضية فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان» وكذلك نفهم أسباب تأليفه في دارسة بعض الشخصيات المغربية الاصلاحية... كالحسن اليوسي في كتابه

«عبقرية اليوسي»، أو التعريف ببعض جهات المغرب الحيوية كالصحراء في كتابه «ثقافة الصحراء» أو بعض الفنون الأدبية التي نبغ فيها المغاربة في كتاب «موشحات مغربية» أو بعض القضايا التأسيسية أو الخلافية في تاريخ الأدب المغربي، في كتابه «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه».

وعلى العموم فهذه الأطروحة تقدم الاطار الفكري الذي ينبغي أن يتحرك فيه الباحثون في الأدب المغربي حين يقدمون على دراسة النصوص أو التأريخ للأدب. ويتحدد ذلك الإطار بعدة قواعد هي:

أولا : أن العناية بكل ما هو مغربي لا ينبغي أن تفضي بالباحثين إلى اعتناق مفهوم ضيق وسلبي للاقليمية، وبالتالي الانزلاق إلى الانعزالية، والانغلاق على النفس، أو القطيعة مع التراث العربي الإسلامي، أو الوقوف حاجزا دون امتدادات المغرب في المشرق، والمشرق في المغرب.

ثانيا : على النقد والدراسة الأدبيين، وكذا التاريخ الأدبي، الاسهام بفعالية في إبراز خصوصيات المغرب. والتنبيه إلى جهود مغاربة الأمس في عمارة الأرض، وانتاج الحضارة. ورفاهية الانسان، وسعادته، وأمنه، واستقراره. وتأكيد حضور المغرب التاريخي في الساحات العربية والإسلامية والمغاربية أي العمل على استمرار دور المغرب الاقليمي والجهوي التاريخي.

ثالثا : على الباحثين في الأدب المغربي أن يؤكدوا على ثلاثة ثوابت أساسية :

أ- وحدة المغرب مع تنوع جهاته وعناصره.

ب- ان الإسلام دين المغرب، والمالكية مذهبه، مع تفتحه الواسع على المذاهب الفقهية الأخرى.

ج- ان العربية لغة المغرب الموحد الوطنية. في الدين والتعليم والإدارة. وان اللهجات البربرية الجهوية اطار مشروع للتواصل الحياتي، والتعبير الفني.

وأخيرا، إذا كان هذا البحث قد أبان ان وراء كتابة التاريخ الوطني الأدبي في أعمال الدكتور عباس الجراري جهودا فكرية تنظيرية تفسر كثيرا من ابعاد الممارسة، والتطبيقات المنجزة، أو الممكن انجازها، في دراسة الأدب المغربي، والتأريخ له، فقد أبان قبل ذلك أن الدكتور عباس الجراري مفكر وباحث أدبي في آن واحد. ولذلك يتقاطع في مشروعه العلمي الأدب والتاريخ والايديولوجية. ويقرأ التاريخ بمنظار متطلبات الحاضر والمستقبل، ومقتضيات النهضة والتقدم، والاستمرارية، والحفاظ على الوحدة، ومواجهة التحديات والصعوبات، ويؤدلج التراث، وتتبلور أطروحة فكرية يمكن أن تؤطر الثقافة المغربية المعاصرة في الفكر والأدب والابداع والنقد والتاريخ... وكل ذلك يستوجب في رأينا على الباحثين في الأدب المغرب، أن يحاوروا هذا المشروع، في بعديه النظري والعلمي معا، لإنجاز دراسات أدبية مغربية أكثر خصوبة وعمقا.

الهوامش :

(1) كتابة التاريخ الوطني لمحمد وقيدي، ص 5.
(2) كتابة التاريخ الوطني لمحمد وقيدي، ص 67. دار الأمان - الرباط، ط 1 سنة 1990.
(3) كتابة التاريخ الوطني لمحمد وقيدي ص 84.
(4) انظر مثلا المقالات العديدة حوله في حوليات كليه اللغة العربية. مراكش عدد 2. سنة 1993-1414.
(5) الثقافة من الهوية إلى الحوار، ص 17-18. منشورات النادي الجراري عدد 3، الطبعة 1 سنة 1993.
(6) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 18.
(7) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 21.
(8) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 20.

(9) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 22-23.
(10) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 13-14.
(11) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي، ص 62.
(12) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي، ص 69-70. مطبعة المعارف الجديدة الطبعة الأولى سنة 1988.
(13) معالم مغربية ص 21. الهلال العربية للطباعة والنشر الطبعة 1 سنة 1991.
(14) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي، ص 62.
(15) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي، ص 71-76.
(16) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي ص 42.
(17) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي ص 43-44.
(18) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ص 31.
(19) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي ص 55-56.
(20) بحوث مغربية في الفكر الإسلامي ص 56.
(21) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، ص 40. دار الثقافة الدار البيضاء الطبعة 1 سنة 1976. مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي – الرباط.
(22) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 56.
(23) الفكر الإسلامي والاختيار الصعب ص 9. منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء ط 1 سنة 1979.
(24) الفكر الإسلامي والاختيار الصعب ص 87.
(25) الفكر والوحدة ص 28. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط ط 1، سنة 1984.
(26) الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 62-63.
(27) الفكر والوحدة ص 12-13.
(28) من وحي التراث، ص 44، مطبعة الأمنية الرباط الطبعة 1 سنة 1971.
(29) الثقافة في معركة التغيير ص 44-45 مطبعة دار النشر المغربية ط 1، سنة 1972.
(30) الثقافة في معركة التغيير ص 43.
(31) الثقافة في معركة التغيير ص 43.
(32) من وحي التراث ص 4-5.
(33) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ص 31-32.
(34) من وحي التراث ص 44.
(35) من وحي التراث ص 81-82.
(36) الثقافة في معركة التغيير ص 75-77.
(37) من وحي التراث ص 44.
(38) من وحي التراث ص 8.

(39) الفكر والوحدة ص 62.
(40) الفكر الوحدة ص 47-48.
(41) الثقافة في معركة التغيير ص 68.
(42) الفكر والوحدة ص 77.
(43) الفكر والوحدة ص 129-130.
(44) الفكر والوحدة ص 57-59.
(45) الثقافة في معركة التغيير ص 67-68.
(46) الفكر والوحدة ص 135.
(47) الفكر والوحدة ص 135.
(48) الفكر والوحدة ص 136.
(49) الفكر والوحدة ص 47.
(50) الفكر والوحدة ص 136.
(51) الثقافة في معركة التغيير ص 70.
(52) الفكر والوحدة ص :63
(53) الفكر والوحدة ص 76-77.
(54) الثقافة في معركة التغيير ص 129-133.
(55) الثقافة في معركة التغيير ص 26-28.
(56) الحرية والأدب ص 13-14، مطبعة الأمنية الرباط، ط 1، سنة 1971.
(57) الحرية والأدب ص 13.
(58) الحرية والأدب ص 15-17.
(59)الابداع الشعبي ص 12.
(60) من وحي التراث ص 156.
(61) الفكر والوحدة ص 148-149.
(62) الفكر والوحدة ص 150.
(63) الفكر والوحدة ص 150-151.
(64) الفكر والوحدة ص 156-157.
(65) من وحي التراث 160-161.
(66) الفكر والوحدة ص 163-164.
(67) الفكر والوحدة ص 165.
(68) الفكر والوحدة ص 165 بتصرف.
(69) الفكر والوحدة ص 155.
(70) الفكر والوحدة ص 160.
(71) الفكر والوحدة ص 162-163.

(72) خطاب المنهج ص 83-84. منشورات النادي الجراري عدد 8، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر ط 2، سنة 1995.

(73) خطاب المنهج ص 117-118.

(74) خطاب المنهج ص 77.

(75) خطاب المنهج ص 77.

(76) الثقافة في معركة التغيير ص 160-164.

(77) خطاب المنهج ص 61-63.

(78) خطاب المنهج ص 138-139.

* * *

مع المعاصرين[1] بين المعطيات الذاتية والموضوعية

الدكتور عبد العالي بوطيب(*)

أود في البداية أن أعرب عن عظيم امتناني وصادق تشكراتي للجنة المنظمة لهذا الحفل التكريمي، لسببين :

الأول : للالتفاتة المعبرةالطيبة التي خصت بها الثقافة المغربية في شخص أحد رموزها البارزين، ألا وهو الاستاذ د. عباس الجراري، المعروف وطنيا وقوميا، بإسهاماته العديدة والمتنوعة في شتى المجالات الفكرية والأدبية والدينية والتربوية، كما تشهد بذلك أعماله القيمة في مختلف الميادين.

والثاني : للدعوة الكريمة التي وجهتها لي للمشاركة في إعداد هذا الكتاب الذي لاتخفي أبعاده ودلالاته الرمزية الايجابية على أحد، دعوة أعتز بتلبيتها لأسباب موضوعية وذاتية كثيرة يطول شرحها، أكتفي هنا لضيق الوقت بذكر اثنين منها، إحقاقا للحق واعترافا بالفضل.

الأول شخصي : فالدكتور عباس الجراري أستاذي، وصاحب فضل علي، على يديه تعلمت، ومن فيض علمه نهلت ولازلت، فمن حقه علي واجب الوفاء.

والثاني موضوعي : ويتعلق بالمكانة المرموقة الخاصة التي يحظى بها الأستاذ الجراري في الأوساط العلمية والجامعية المغربية والعربية، باعتباره النموذج الأمثل للمثقف الحقيقي بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد ودلالات إيجابية عميقة.

* أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى إسماعيل، مكناس.

لهذا لم أتردد لحظة في قبول هذه الدعوة الكريمة، أملا في الوقت نفسه أن تعكس مشاركتي المتواضعة هذه، قدرا ولو يسيرا من إيجابيات هذه الشخصية المتميزة.

إنّ الحديث عن جهود شخصية علمية في حجم ومستوى الأستاذ الدكتور عباس الجراري مسؤولية صعبة وعسيرة تحتاج لتظافر جهود مجموعات بحث متخصصة لإيفائها ما تستحقه من الدراسة والتحليل، نظرا لضخامة تجربتها كميا، وتنوعها وغناها كيفيا، لهذا أقر مبدئيا بأن هذا الطموح سيبقى حاليا مجرد حلم يقع خارج حدود إمكانياتي الفرضية المتواضعة، على أمل أن تتاح لي الفرصة مستقبلا إن شاء الله لترجمته لحقيقة ملموسة، وفي انتظار ذلك ، أنتهز الفرصة لأحدثكم، حضراتي السيدات والسادة على بعض جوانب هذه الشخصية العلمية المتميزة من خلال كتاب (مع المعاصرين، أسماء وآثار في الذاكرة والقلب). وقد اخترته، دون سواه، ليكون موضوع حديثي في هذا الحفل التكريمي لاعتبارات عدة أجملها في نقطتين اثنين :

الأولى حداثته : فهو من الكتب الحديثة التي صدرت مؤخرا للأستاذ عباس الجراري، وبذلك يفترض فيه أن يشكل محطة جديدة في مساره الفكري، تنضاف طبعا للمحطات السابقة وتدخل معها في علاقة خاصة، قد تكون سجالية تطويرية تصحيحية أو تعميقية.. إلخ. لهذا فإن دراسته تعد من هذه الناحية مناسبة لإثارة الحديث حول جديد هذا المشروع العلمي، وفرصة سانحة لمساءلة قضاياه.

والثانية تميزه : الخاصية الثانية التي شدتني لهذا الكتاب، بالإضافة طبعا للسابقة، تتمثل في كونه يشكل خطوة نوعية متميزة في مسيرة الأستاذ الجراري العلمية، إن على مستوى الموضوع، أو على مستوى التناول، بكل ما يطرحه هذا

التميز من تحديات كبرى على المتلقي من شأنها إرغامه على مراجعة الكثير من مسلمات القراءة العادية المتعارف عليها، في أفق استبدالها بأدوات إجرائية حديثة مسعفة من شأنها خلق تواصل حقيقي فعال معه بعيدا عن كل اختزال أو تشويه، عملا بالرأي القائل بأن الأعلام المتميزة تتطلب كما هو معروف، قراءة متميزة قادرة على فهم خصوصياتها واستيعاب أبعادها ومراميها، قراءة متحررة من سلطة الكتابة وهيمنتها، تدخل في علاقة فاعلة مع النص، بعيدا عن القناعات الجاهزة والمسبقة، تختار أبعادها وأهدافها بحرّية وتلقائية تحتكم فيها أولا وأخيرا لمرجعيتها المعرفية الخاصة، ولقدرتها الخلاقة على استكناه أغوار العمل المدروس، في محاولة لكشف أسراره وتجلية خفاياه، إنها بعبارة أخرى القراءة ـ الكتابة التي يتحول فيها القارئ لكاتب ثاني للنص، يعيد خلقه وتشكيله وفق منظوره ورؤيته، متجاهلا مقاصد المؤلف المباشرة الصريحة، رغبة في الوصول للمقاصد الخفية المنفلتة عادة من زمام وعي الكتابة، والمبثوثة غالبا بشكل ضمني غير مباشر، هنا وهناك، بين ثنايا الكلمات وتضاعيف الجمل، ولعل من بين أهم القناعات الراسخة التي يدعونا الكتاب لمراجعتها اعتقاد خاطئ تعود جذوره لتصور يوناني أفلاطوني قديم، تصنف بموجبه الأعمال الأدبية لقسمين اثنين متمايزين ومستقلين بحسب الصيغة التعبيرية المعتمدة في كل منهما :

الأول : يعتمد العرض (la représentation)[2] صيغة تعبيرية مباشرة في نقل رؤية الكاتب الخاصة للقضايا المطروحة، محققا بذلك أقصى درجات التماهي والتداخل بين الكاتب والمكتوب عنه، الذاتي والموضوعي في بوثقة واحدة يصعب معها التمييز بينهما، مما تنعكس آثاره النوعية على كيفية تلقينا لهذه الأعمال لدرجة نشعر معها وكأننا نقرأ الكاتب في علاقته الحميمية العاطفية بالمكتوب عنه

أكثر من أي شيء آخر، بحكم خصوصيات التبئير الداخلي (la focalisation in-terne)[3] المعتمد في عرضها، مما دفع المنظرين القدامى لتصنيفها ضمن ما يعرف بالتعبير الغنائي.

أما الثاني : فيختلف عن الأول في كون الكاتب يعتمد فيه على السرد والحكي (narration/récit) أداة لنقل القضايا المطروحة ومعالجتها بعيدا عن الأهواء الذاتية والعواطف الخاصة، همه الوحيد تحقيق أكبر قدر ممكن، من الانفصال والتباعد بين الذات الكاتبة والموضوع المكتوب عنه، مما يضفي على النص، شفهيا كان أو كتابيا، طابعا موضوعيا خاصا، يكبح جماح الذات الكاتبة ويحد من حجم تدخلها في القضية المعروضة، كما يحدث عادة في الكتابات التاريخية المعروفة بهيمنة صيغة (السرد/narration)[4] حسب تودوروف (الحكي/récit/histoire)[5] بتعبير أميل بنفنيست، مما يولد لدى القارئ انطباعا مخالفا، يشعر معه وكأنه يطالع تطورات القضية المطروحة بشكل منفصل تماما عن ذات الكاتب، لدرجة قد تصل أحيانا حد نسيان أو تناسي كل مظاهر حضور هذه الهيئة التلفظية في النص، وهو ما تسميه التصنيفات الكلاسيكية بالتعبير الملحمي المعروف بهيمنة الأسلوب غير المباشر.

وبذلك تكون هذه النظرة التصنيفية المعيارية للنصوص، قد كرست، من هذه الناحية، قناعة خاصة لدى القارئ، تقضي من بين ما تقضي به، معاملة الكتابات الغنائية على أنها محض هلوسات ذاتية بعيدة كليا عن كل ماهو موضوعي–علمي، مقابل اعتبار الأعمال الملحمية كتابات محايدة لا علاقة لها إطلاقا بما هو ذاتي، بكل ما لهذه النظرة الصارمة من مضاعفات سلبية خطيرة على مستوى القراءة،

التي تسقط من البداية نصف مخزون النصوص المقروءة، لتراهن على نصفها الباقي فقط، مما يعرض هذه النصوص لأكبر عملية اختزال ممكنة، لأن القراءة باعتمادها على هذه الاستراتيجية الخاصة في تصنيف النصوص والتعامل معها، تحصر نظرتها فيما هو جلي مباشر، ليضيع منها، بالمقابل، ماهو خفي غير مباشر، بكل ما يضمره هذا الجانب الأخير من معلومات قد لا تقل ثراءا وأهمية عن معلومات الجانب السابق.

لهذا تدعو القراءة الحالية، فيما تدعو إليه، تجاوز هذه النظرة التبسيطية الضيقة في دراسة النصوص وتعويضها بأخرى متحررة مرنة، تستبطن الأعمال وتستنطقها، أكثر مما تستحضر التصنيفات وتطبقها، في محاولة لكشف دلالاتها المضمرة المنسية، عملا بالحقيقة اللسانية القائلة، بأن المؤلف مهما حاول أن يكون محايدا وموضوعيا في كتاباته الملحمية، فإن حبل علاقته السري معها يبقى مع ذلك موصولا، غير مقطوع، كما تشهد بذلك آثار بصماته المرسومة، ولو بدرجات قليلة، في كل ما يكتبه، إما في شكل تعاليق أو مقارنات أو تأويلات... إلخ، نفس الشيء يصدق على الكتابات الغنائية التي مهما حاول الكاتب إغراق نفسه في قضاياها الحميمية الخاصة، فإن حظوظ الموضوعية تظل مع ذلك واردة موفورة، ولو بنسب قليلة أيضا من خلال بعض الحكم والمقاطع السردية المحضة، مما يؤكد بالملموس، إن كان الأمر يحتاج لتأكيد، أن الخطاب الموضوعي أو الذاتي الصرف، ليس سوى مجرد وهم يوجد في مخيلة المنظرين، وأن تداخل الخطابات والأنماط التعبيرية المختلفة حقيقة قائمة يصعب القفز عليها أو تجاهلها، صحيح أن درجات هذاالتداخل والتفاعل تختلف من نص لأخر، لكن هذا لا يعد مع ذلك ذريعة كافية لإلغائه، تماما كما أشار لذلك اميل بنفنيست حين قال : (من المؤكد إذن أن

أساس الذاتية موجود في ممارسة اللغة، فإذا ما أردنا طبعا تأملها، سنجد بأنه ليس ثمة شهادة موضوعية أخرى على هوية الذات، غير تلك التي تقدمها هكذا هي بنفسها عن نفسها)(6) وهو نفس الرأي تقريبا الذي عبر عنه جيرار جنيت في معرض تمييزه بين الحكي والخطاب narration/discours) حين قال : (لكن تجب.. إضافة كون جواهر الحكي والخطاب كما هي محددة لا توجد تقريبا أبدا في حالة خالصة في أي نص، وأن هناك دائما تقريبا بعض عبارات الحكي في الخطاب، وقدر من الخطاب في الحكي)(7) وما التحذير الهام الذي أورده رومان ياكحبسون في معرض حديثه عن الوظائف اللغوية الستة، بخصوص كون الوظيفة الرئيسية المهيمنة في أي خطاب، لا تلغي أبدا وجود الوظائف الأخرى بقدرما تجعلها ثانوية فقط، إلا دليل على ذلك، يقول : (إن تنوع الإرساليات لا يكمن في استقطاب هذه الوظيفة أو تلك، وإنما في الاختلافات التراتبية بين هذ الوظائف، فالبنية اللغوية لإرسالية ما ترتبط قبل كل شيء بالوظيفة المهيمنة، لكنه بالرغم من كون الإحالة على المرجع والتوجيه نحو السياق (...) هي المهمة المهيمنة للعديد من الإرساليات، فإن المساهمة الثانوية للوظائف الأخرى في هذه الإرساليات يجب أن تؤخذ في الاعتبار من طرف اللساني النابه).(8)

وهي ملاحظات أعتقد أن القراءة الخاصة التي أعتزم القيام بها لكتاب الأستاذ عباس الجراري ـ مع المعاصرين ـ تسترشد بها قد المستطاع، خصوصا وأن هذا الكتاب يوحي مظهريا على الأقل بأنه يندرج في خانة الخطابات الملحمية ذات النزعة الموضوعية المحضة، مادام يتخذ من مسألة التعريف ببعض الأعلام والأعمال، المغربية والمشرقية، موضوعا له، كما يصرح بذلك عنوانه، غير أني أعتقد مع ذلك بأن القيمة الحقيقية الكلية لهذا الكتاب لا تنحصر فيما يقدمه من معلومات

تاريخية بيوغرافية وأدبية مباشرة عن هذه الشخصيات والأعمال فقط، بقدرما تكمن أيضا في حجم المعلومات الشخصية الهامة التي يعكسها بشكل ضمني غير مباشر عن صاحبه ومؤلفه، خلافا لما قد يظن للوهلة الأولى، خصوصا وأن الاستاذ الجراري، كا يصرح بذلك في مقدمة كتابه، لا يكتفي بسرد الأخبار والمعلومات المتوفرة لديه عن هذه الشخصيات وأعمالها بشكل محايد موضوعي صرف، بقدرما يعرضها علينا من خلال الأثر الطيب الذي تركته في قلبه وذاكرته، يقول : (وإذ أتيح لي أن أشارك في حفلات تكريم وذكريات تأبين، مما نظم لبعض الذين تربطني، بهم صداقة أو أواصر فكرية، سواء من المغاربة أو المشارقة، فقد ارتأيت أن أجمع نماذج مما تسنى لي كتابته في هذا المجال، وهي تتراوح بين التعبير العاطفي والتحرير العلمي، وفق ما يقتضيه الحال ـ مضمونا وأسلوبا ـ، وكذا وفق ما تعكسه شخصية المكرم أو المؤبن، وإلى هذه الكلمات أضفت عروضا ألقيتها في الترحيب ببعض الزملاء في مؤسسات مجمعية، وأخرى ساهمت بها في ندوات نظمت لإحياء ذكرى علماء أكن لهم كبير التقدير، وإن كنت ـ بحكم السن ـ لم ألتق بهم، وقد جعلتها في قسمين :

الأول : خاص بما قيل في مناسبات التكريم.

الثاني : متعلق بما قيل منها في مناسبات التأبين.

وهي ـ جميعها ـ تلتقي في كونها تتناول معاصرين ممن رسمت أساؤهم وآثارهم في ذاكرتي والقلب).[9]

وهو بذلك يحدثنا عن الغير في علاقته بالذات وتفاعله معها، مما يجعل حديثه هذا يجمع بين الموضوعية والذاتية، بين السرد والخطاب، بحيث يخبر عن الغير بنفس القدر الذي يعبر فيه عن الذات.

لهذا أظن أن إغفال الجانب الشخصي الضمني في هذا الكتاب، يفقد القارئ في اعتقادي قدرا كبيرا من أبعاده ودلالاته المشرقة المشعة، خسارة تقع مسؤوليتها الكاملة على القراءة لا الكتابة طبعا، ولتقريب القارئ من هذين البعدين الدلاليين المتمايزين والمتداخلين في هذا الكتاب، قسمت مقاربتي هذه لمستويين اثنين استعرضت في كل واحد منهما أهم الخلاصات التي انتهيت إليها في كل جانب، وبعبارة أخرى، سأحدثكم في هذا العرض عن الشخصيات المتحدث عنها في المستوى الأول، وعن الشخصية المتحدثة في المستوى الثاني، علما بأن ما يعنيني هنا بالدرجة الأولى هو هذا المستوى الأخير، لكونه يناسب، من جهة، المقام الذي نتواجد فيه، ولكونه، من جهة ثانية، مستوى ضمني خفي، عادة ما لا ينتبه إليه في القراءة العادية، لأننا تعودنا الاهتمام بموضوع الكتاب دون الكاتب، تماما كما نستمتع بشريط سينمائي أو عرض مسرحي دون استحضار لجهود المخرج أو كاتب النص إلى غيرهما ممن يمكن تسميتهم بالجنود المجهولين، وهو ما يعني أننا لا نرى إلا الحضور في الحضور، أما الحضور في الغياب فلا يثيرنا، وأعتقد أنه آن الأوان لإيلاء هذه الطريقة في القراءة ما تستحقه من العناية والاهتمام، باعتبارها خطوة هامة على طريق توسيع دائرة إدراك المتلقي لتشمل العناصر الضمنية المضمرة أيضا، بدل الاقتصار على ماهو مباشر صريح فقط، مما سيضفي على القراءة صفة الفاعلية، وينفي عنها الطابع الاختزالي السلبي، فماذا يمكن أن يقال عن كل مستوى من هذين المستويين :

I - **المستوى الأول** : أشرنا سابقا إلى أننا سنستعرض في هذا المستوى كل المعلومات المباشرة التي يقدمها لنا الكتاب في مختلف المجالات المعرفية التي تتسع

دائرته لها، بما فيها تلك التي تحضر عرضياخارج نطاق ماهو مقصود ومصرح به، ويمكن تصنيفها للجوانب التالية :

1 ـ **التعريف ببعض الأعلام** : لاشك أن مسألة التعريف بنخبة من الرموز الثقافية المغربية والعربية، الأحياء منهم والأموات، تأتي على رأس المقاصد المعرفية الأساسية لهذا الكتاب، حقيقة يكفي استعراض عناوين الكتاب الداخلية للتأكد منها، نظرا لطغيان أسماء الأعلام على أغلبها، مما يعد مؤشرا على الاهتمام الخاص الذي يوليه المؤلف لهذه المسألة، اقتناعا منه بدورها الإيجابي الهام في تطوير البحث العلمي وتيسير أعبائه، فضلا عن الأثر الطيب الذي يخلفه في نفوس الشخصيات المعرف بها، وتأثيره المعنوي الإيجابي في تقوية عزائمهم وحثهم على المزيد من البذل والعطاء في جو صحي يعترف بالفضل لأهله، ويقرلهم بالجميل، بعيدا عن الحسابات الشخصية الضيقة التي تعتبر (المعاصرة حجاب يمنع المناصرة)، وانعكاساتها السلبية الواضحة في ضياع جزء هام من تراثنا الحضاري والثقافي، لدرجة أصبح معها من الصعب على الباحثين إعطاء صورة حقيقية شاملة ومتكاملة عنه، كما يشير لذلك الأستاذ عباس الجراري في مقدمة كتابه القيم : (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه) يقول : (مثل هذه الملاحظة تفضي حتما إلى مشكل المصادر، وهي تقل حينا وتنعدم أخرى، مما يجعل مادة البحث اللازمة غير متوافرة للدارس الذي غالبا ما ينتهي به الجهد المضني إلى مادة مفككة غير مكتملة ولا مرتبطة الحلقات (...) مثل هذا التشتت لا يواجه الباحث في الأدب المغربي القديم فحسب، ولكنه يواجه كذلك دارس أدبنا الحديث المعاصر)[10] لذلك يمكن القول بأن الأستاذ الجراري بإقدامه على نشر

مواد هذا الكتاب، على خصوصيتها، إنما يفعل ذلك استجابة لحاجة معرفية متولدة عن ممارسة علمية طويلة، بغاية سد فراغ مهول تعاني منه الخزانة المغربية في هذا الجانب لعدة اعتبارات، وبذلك يندرج هذا الكتاب ضمن مشروع علمي واضح المعالم محدد الأبعاد التزم الدكتور الجراري بإنجازه في كل أعماله واهتماماته، بدءاً بالتدريس ومرورا بالتأطير، وانتهاءا بالتأليف، مشروع يهدف، من جملة ما يهدف إليه، التعريف بالأدب والأدباء المغاربة والدفاع عن الهوية الوطنية بمختلف أشكالها الرسمية والشعبية، في محاولة لرد الاعتبار للدور الحيوي الهام الذي لعبه ويلعبه أعلام وعلماء هذا الجناح الغربي من العالم الاسلامي، في الحضارتين العربية والاسلامية على حد سواء، ورفع الحيف الذي طالما عانوا منه لأسباب عدة، ليس هذا مجال تفصيل الحديث فيها. وهذا ما يضفي على أعمال وجهود الاستاذ الجراري العديدة والمتنوعة انسجاما وتكاملا قل نظيرهما، لدرجة يمكن اعتبارها تجليات مختلفة لمشروع فكري واحد.

2 ـ **تقديم معلومات تاريخية** : الجانب الثاني المميز لهذا الكتاب يتعلق بالكم الهائل من المعلومات التاريخية القيمة التي يقدمها لنا، بين الفينة والأخرى، عن المرحلة الحديثة والمعاصرة من التاريخ العربي عامة، والمغربي منه على وجه الخصوص، بغية تحديد ملامح الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري الذي عاشت في أحضانه هذه الشخصيات وتفاعلت معه سلبا أو إيجابا. مما كان له، دون شك، أكبر الأثر في رسم مسار حياتها الخاصة، وضبط مراميها ومقاصدها العامة، معلومات يصعب بدونها فهم وتقدير جهود هذه الشخصيات حق قدرها، لنستمع إليه يبرز أهمية استحضار هذه الخلفية التاريخية

العامة في معرفة الدور الاصلاحي الرائد والخطير الذي لعبه العلامة السلفي المرحوم أبو شعيب الدكالي في تاريخ المغرب الحديث، يقول : (لكي نفهم الدور الكبير الذي قام به أبو شعيب الدكالي لابد أن نعرف الظروف العامة التي ظهر فيها، حتى نتمكن من تحديد مكانة هذا الدور وأهميته...)[11] وهي نفس الرغبة أيضا التي دفعته لإيراد بعض الحقائق التاريخية الفاعلة في تكوين شخصية الشيخ محمد المكي الناصري رحمه الله. يقول : (وقد كانت الدوافع إلى هذا الجهاد ـ على كثرتها وتشعبها مرتبطة بالبيئة التي عاش فيها، سواء منها العامة أو الخاصة).[12]

وهو ما يوضح بالملموس الأهمية الكبرى التي يعطيها المؤلف لهذه المعلومات التاريخية في تحديد وإبراز مكانة الشخصيات المتحدث عنها، مما يمكن معه اعتبار الكتاب، من هذه الناحية، مرجعا تاريخيا هاما.

3 ـ **التأريخ لبعض الأنواع الأدبية** : مما يحمد لهذا الكتاب أيضا، أنه يستعرض، بين الفينة والأخرى، تاريخ بعض الأجناس الأدبية والأنماط التعبيرية، وطنيا أو قوميا، كتوطئة طبيعية ضرورية لاستيعاب جسامة الدور الذي لعبته الشخصية المتحدث عنها في تطويره وترسيخه، كما حصل، على سبيل المثال لا الحصر، أثناء الحديث عن جهود الأستاذ عبد الهادي بوطالب في الميدان الصحافي، حيث استغل المؤلف الفرصة لإعطاء نبذة مركزة ودقيقة عن تاريخ المقالة السياسية وشروط انتشارها في العالم العربي عامة، والمغرب منه على وجه الخصوص، يقول : (وعلى الرغم من أن المقالة لا تبتعد كثيرا عن الخاطرة والرسالة، وهما شكلان معروفان في النثر الفني العربي منذ القديم، إلا أنها تمثل

جنسا أدبيا طارئا ارتبط ظهوره بعصر النهضة وما واكبها من إصلاح وسعي للتحرر من الاستعمار، على ما عرفته هذه النهضة من تباعد زمني بين المشرق والمغرب، وكان للصحافة أكبر الأثر على إذاعته وانتشاره وإقبال القراء عليه، وكذا استقطاب مختلف الأقلام وإغرائها بالكتابة فيه.

وإلى جانب الجرائد الرسمية التي كانت تصدر عن الإدارة الفرنسية في عهد الحماية وأهمها ـ السعادة ـ فقد عرفت الصحافة الوطنية نموا كبيرا تمثل في العدد الكبير من الجرائد والمجلات التي كانت تخرجها الهيئات السياسية وكذا بعض الأفراد، والتي كانت كثيرا ما تتعرض للرقابة الاستعمارية إن لم تضطرها هذه الرقابة للتوقف أو يلجئها إليه ضعف المواد المالية) ويضيف قائلا : (وإنه لتكفيني الإشارة في هذا العرض الموجز إلى مجلة ـ المغرب ـ التي أصدرها صالح ميسة عام 1932، وإلى جريدة ـ الأطلس ـ التي ظهرت بها الكتلة سنة 1937، وجريدة ـ المغرب ـ التي أخرجها سعيد حجي في نفس هذه السنة، وإلى جريدة ـ العلم ـ التي كانت لسان حزب الاستقلال بدءا من 1945، وكذا مجلة ـ رسالة المغرب ـ التي كانت ناطقة باسم حزب الشورى والاستقلال، وكان ظهورها في نفس العام، ولعلنا ألا نغفل ذكر الصحف الوطنية التي كانت تصدر باللغة الأجنبية، وأولها جريدة ـ عمل الشعب ـ (l'action du peuple) التي صدرت عام 1933، وكان يشرف عليها ويحرر افتتاحيتها والكثير من مقالاتها محمد بن الحسن الوزاني، كان هذا في المنطقة الجنوبية التي كانت تحت نفوذ الحماية الفرنسية، أما في الشمال حيث كانت تبسط الدولة الإسبانية إدارتها فكانت الجرائد والمجلات كثيرة، أقتصر في ذكرها على جريدتي ـ الحياة ـ و ـ الحرية ـ

اللتين أصدرهما حزب الإصلاح تباعا عامي 1934 و1937، وفي هذه السنة الأخيرة أخذ حزب الوحدة في نشر صحيفة الوحدة المغربية، وعلى هذا النحو كان تأسيس محمد داود لمجلة ـ السلام ـ سنة 1933، ومثلها مجلة ـ المغرب الجديد ـ التي كان يتولاها محمد المكي الناصري ابتداء من 1935. ومجلة ـ الأنوار ـ التي كان أخذ أحمد المدينة في إصدارها سنة 1946، ومجلة ـ المعرفة ـ التي كان يشرف عليها حسن المصمودي سنة بعد هذا التاريخ، وقد عرفت الصحافة في ظل الاستقلال ازدهارا منقطع النظير، ظهر بسببه عدد هائل من الجرائد والمجلات الجديدة في وقت أتيح للصحف التي شغلت ساحة العمل الوطني في عهد الحماية أن يستمر بعضها ويتوقف البعض الآخر، وكانت ـ العلم ـ و ـ الرأي العام ـ من أبرز الجرائد التي عرفت الاستمرار وإن تعرضت هذه الأخيرة لتعثر لم تتابع معه المسير)،[13] مما يبرز القيمة التاريخ أدبية للكتاب.

4 ـ **التعريف ببعض المفاهيم الأدبية والفكرية** : من المزايا البارزة لهذا الكتاب أيضا، ما يحويه من كم هائل من البيانات التوضيحية الخاصة ببعض المفاهيم الأدبية والفكرية العامة، مما لا تخفى أهميته في مساعدة القارئ على ضبط وتحديد فهمه الواضح لها، بعيدا عن كل لبس أو تحريف، مهمة صعبة وخطيرة لا يمكن أن يقوم بها إلا فكر ثاقب واثق في إمكانياته متحكم في تصوراته، لما يكتنف هذا المجال عادة من صعوبات جمة لا تخفى على الباحث المتمرس.

وإذا كان حجم المفاهيم التي شملتها عناية الدكتور الجراري بالتوضيح والتحديد في هذا الكتاب كثيرة ومتعددة يصعب حصرها في مناسبة كهاته، فإن

هذا مع ذلك لا يمنع من إيراد بعضها على سبيل المثال تعميما للفائدة، من ذلك مثلا ما قاله بخصوص مفهوم المقالة السياسية : (وأبادر إلى القول بأني أقصد بالمقالة السياسية تلكم التي كتبت انطلاقا من وعي سياسي بمفهومه المقاوم لأحوال واقع غير مقبول على مستوى الرأي العام والمصالح العليا للأمة، وإن من رؤيا هيئة وطنية معينة، وكذا بمدلوله البنائي الذي يسعى عن طريق الجهر بالمطالب وعرض المقترحات وتنفيذ البرامج، إلى تقديم البديل في مختلف المجالات التي تحقق هذه المصالح، فكرية واجتماعية وغيرها مما تعالج به تلك الأحوال، ومن ثم تستوعب المقالة السياسية مرامي الإصلاح كافة، أو أن هذه تشمل تلك لتكاملها وصعوبة التفريق بينهما، وصب إحداهما في الأخرى وازدواج دورهما عند أفراد قاموا بالعملين).[14]

نفس الشيئ يمكن ملاحظته بخصوص كتابة المذكرات باعتبارها نمطا تعبيريا متميزا مطبوعا بخصوصيات فنية وفكرية تتطلب حنكة ودراية خاصتين يقول : (والمذكرات هي نمط من الكتابة، قد يكون ذا طابع عام أو خاص، وهي في الحالتين تستند إلى الممارسة والمشاهدة والرواية، وتتصرف في ذلك كله بالاختيار والترتيب، وربما بالتحليل والتعبير وحتى النقد، وقد تعتمد على الوثائق تقدمها لتعزيز تلك الممارسة والمشاهدة والرواية.

والكتابة في هذا النمط تقتضي أمرين :

1) الصدق العام النابع من الارتباط بالحقائق التاريخيةويمكن أن نطلق على هذا الصدق، الصدق التاريخي أو الموضوعي.

2) الصدق الخاص المتمثل في الخضوع لتجربة الكاتب وما يعتمل فيها من عاطفة، ويمكن أن نصف هذا الصدق بأنه ذاتي، على ما يكون بينه وبين الصدق الآخر من رباط.

إن هذا التوفيق بين الصدقين هو الذي يجعل المذكرات عملا يجمع بين المنحى التاريخي العلمي، وبين المنحى الأدبي الفني، من غير أن يرخي الكاتب العنان لذاته.

إلا أننا هنا لا ينبغي أن ننسى طرفا مهما في القضية، ألا وهو المتلقي لهذه المذكرات، فإنه يتطلع منها إلى معرفة الحقائق، ومن ثم فإنه ينظر إليها ــ أي إلى هذا النوع من الكتابة ـ بشيء غير قليل من الشك والحذر، لأنه يريدها أن تتحلى بموضوعية صارمة، وهذا غير ممكن لسببين :

1) لأن هذا النمط من الكتابة يدخل في نطاق التعبير الذاتي، مع تفاوت في هذه الذاتية.

2) لأن صاحبه يكون إما صانعا للأحداث وإما شاهدا لها أو عليها، ومع ذلك، تعتبر المذكرات شكلا من تدوين التاريخ في واقعه وأحداثه، وشكلا من حكي التاريخ في بعده القصصي، ثم شكلا من السيرة الذاتية للكاتب (...) من هنا كانت كتابة المذكرات صعبة، لماذا ؟

لأننا لا نريد الشخص الذي لا يتحدث إلا عن نفسه، أو يتحدث كثيرا عنها، سواء بصدق أو بكذب، ولكن نريد من يتحدث عن نفسه في سياق ما يجعلنا نتجاوب معه، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توافر حد أدنى من الصدق في بعديه:

أ ــ العام (المرتبط بالواقع المشترك وما فيه من وقائع وأحداث).

ب ـ الخاص (المتصل بذات الكاتب).[15]

لقد أوردت هذا النص على طوله، لما يحتويه من معلومات نظرية قيمة بخصوص تحديد مواصفات كتابة المذكرات وما تطرحه من صعوبات، مما يعطي القارئ صورة واضحة عن قيمة الكتاب الاصطلاحية، علما بأن جهود المؤلف في هذا المجال لا تنحصر في حدود توضيح المفاهيم الغامضة فقط، بل تتجاوزها لتطال أيضا تصحيح بعض التصورات الخاطئة الشائعة في هذا المضمار، كما هوالحال مثلا بالنسبة لمفهوم السلفية الذي اختلف الناس في تحديد أبعاده الحقيقية، يقول : (هنا لابد من كلمة حول مفهوم السلفية : هذا المصطلح ينبغي الانتباه إليه، لأنه يستعمل في معنيين اثنين : يستعمل في معنى إيجابي، كماهو الآن ونحن نتحدث عن أبي شعيب الدكالي زعيم السلفية، (...) ويستعمل بمعنى قدحي عند الذين يرفضون الرجوع إلى الماضي وإلى التراث، فكل ماهو رجعي أو مرتبط بالماضي يقولون عنه إنه سلفي، إذن ما معنى السلفية؟ هي الرجوع إلى الأصول وما هي الأصول؟ بالنسبة للإسلام، وبالنسبة للفكر الإسلامي، الأصول هي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولهذا كان الدكالي يركز على تدريسهما، ملحا على حك الفكر المغربي من خلال تفسير آية أو شرح حديث، وبذلك استطاع أن يبث الرأي السلفي في أبعاده الجديدة المتفتحة، بواسطة الرجوع إلى الأصل للتغلب على كل السلبيات الذائعة، وعلى كل الشوائب التي تفشت، وعلى كل البدع المنتشرة، وهو تغلب يقتضي الرجوع إلى الإسلام في نبعه الصافي وأصله الحق، ولهذا كان أبو شعيب الدكالي يركز على هذين المصدرين).[16]

5 – **يؤرخ لبعض الحركات الفكرية** : مما يحمد لهذا الكتاب أيضا كونه يعرض، بين الفينة والأخرى لتاريخ بعض الحركات الإصلاحية في محاولة لإعطاء

القارئ صورة عن أهم مرتكزاتها الفكرية، وأهدافها الاجتماعية والسياسية، وذلك في إطار مهمته الأساسية الهادفة للتعريف ببعض الشخصيات المغربية والمشرقية، التي اقترن اسمها ببعض هذه الحركات، كما هو الحال مثلا مع العلامة المرحوم أبي شعيب الدكالي ودوره في نشر الحركة الإصلاحية السلفية بالمغرب، يقول المؤلف في هذا الصدد : (ولكن كيف أبرز دوره باعتباره رائد الإصلاح ورائد السلفية ؟ وكيف قام به؟ الإجابة غير صعبة، لأن الأمر تم له عن طريق التدريس، هنا تطرح العلاقة بين تدريس الدكالي ودوره باعتباره زعيما سلفيا ومفكرا إصلاحيا، ومعها يطرح التساؤل الآتي : كيف استطاع النهوض بهذا الدور عن طريق التدريس؟

أبو شعيب الدكالي درس علوما كثيرة، ابتداء من النحو إلى الفقه فالقراءات، ولكن هناك بعض العلوم التي ارتبطت بتلكم الرسالة الإصلاحية، وقلما ينتبه الناس إليها، درس التفسير، والذين تتلمذوا عليه وعاشوا في هذه الفترة يعرفون أن التفسير لم يكن يدرس في المغرب، لماذا لم يكن يدرس ؟ يبدو أن دراسته توقفت في عهد مولاي سليمان الذي نعرف جميعا أنه كان معجبا بالشيخ أحمد التيجاني، ومرة كان هذا الشيخ في فاس ودخل إلى بعض المساجد.. فوجد أحد العلماء - هو الشيخ الطيب بن كيران - يدرس التفسير، فقال للمولى سليمان مستغربا ومستنكرا : (مثل هذا العالم يدرس التفسير ؟ سيكون ذلك وبالا وخرابا على الأمة والسلطان).

توقف التفسير منذ ذلكم الوقت، وأصبح يقرأ تلاوة وسردا، وليس دراسة علمية، جاء أبو شعيب فأحيى دراسته، وكان يدرسه بتفسير النسفي وهو معروف،

ومن خلال التمعن في القرآن الكريم وآيات الكتاب المنزل بعث وعيا فكريا جديدا، باعتبار الوحي القرآني أول مصدر في سيرة التصحيح والتقويم، للعودة بالأمة إلى الطريق السليم، بعيدا عن الخرافات ومظاهر الشعوذة التي كانت شائعة يومئذ.

ومن ثم كان إحياء دراسة التفسير لبنة أولى في عملية الإصلاح التي نهض بها أبو شعيب الدكالي، قواها بلبنة أخرى هي بعث الإهتمام بالسنة، فأخذ يدرس الحديث، المغاربة في هذه الفترات المتأخرة لم يكونوا يتعاملون علميا مع الحديث النبوي، وإنما كانوا يقرأونه كأن يسردوا صحيح البخاري أو مسلم مثلا، دون إجراء الدرس المتمعن في اللفظ والسند، وتناول الأحكام وغيرها، وهذا يعني أنهم كانوا يقرأون الحديث كما يقرأون القرآن، أي يتعبدون به فحسب، في حين أن الذي يتعبد به هو القرآن الكريم، وما سواه فإنه قابل للبحث والتحليل، جاء أبو شعيب الدكالي وأدخل دراسة علم الحديث، ودرس كتبه الستة غير مقتصر على الصحيحين، وعن طريق دروسه الحديثية التي كانت موزعة في كل مكان، وضع لبنة أخرى استطاع بها أن يفتح الأذهان وأن يبعث وعيا جديدا في الأمة)(17) وهو ما أضفى على الكتاب من هذه الناحية صيغة تأريخية فكرية متميزة، تنضاف طبعا لباقي خصائصه ومزاياه السابقة الأخرى، يمكن اعتباره معها مرجعا أساسيا في معرفة المستوى الفكري المغربي في هذه المرحلة التاريخية.

6 ـ **التعريف ببعض الأسر المغربية** : من الفوائد العلمية المباشرة لهذا الكتاب الهام، المعلومات القيمة المقدمة بخصوص تاريخ بعض الأسر المغربية العريقة، من بداية نزوحها للمغرب إلى اليوم، سرد تتخلله بين الفينة والأخرى وقفات وصفية للحديث عن بعض أعلامها المرموقين وما عرف عنهم من خصال

حميدة، لازال التاريخ يذكرها لهم بمداد الفخر والاعتزاز، وذلك من باب ربط الحاضر بالماضي، والفرع بالأصل، بغية إعطاء صورة شاملة ومتكاملة عن الشخصية المتحدث عنها، وتعريف القراء بها أكثر، كما حصل مثلا مع عائلتي بربيش وابن سودة، يقول المؤلف في الكلمة القيمة التي ألقاها بمناسبة حفل تدشين نادي ومكتبة أحمد بن سودة بفاس : (إن المتتبع لمسيرة الثقافة في المغرب، لا يلبث أن يلاحظ وجود هذه الظواهر مفترقة حينا ومجتمعة أخرى، وأن يتبين له أن من أبرز الحالات التي التأم فيها ما تناثر في غيرها، نموذج السوديين، لما كان لهم من سبق وتفوق في مختلف هذه المجالات.

فمنذ قدومهم من الأندلس إلى فاس ـ منتسبين إلي بني مرة القرشيين، وهم يرفعون ـ انطلاقا من هذه المدينة الزاهية الفيحاء ـ ألوية العلم والأدب والإصلاح.

فما منهم إلا مدرس نفاع، ومؤلف مبدع، وخطيب مصقع، ومقرئ مجود، وقاض نزيه، ومفت خبير، وعدل موثق، في تبريز خصوابه في المعقول والمنقول، ومشاركة عزَّ لها المثيل في مختلف الفنون، مع اللسن والفصاحة والضبط والتحقيق، والإتقان والتدقيق.

وقد زانوا ذلك كله بما ينبغي أن يتحلى به العلماء الحق من تعفف في السلوك، واستقامة في الفكر، وثبات على المبدأ، وشجاعة في إبداء الرأي، وصراحة في اتخاذ المواقف الصارمة، مما جعلهم عمدة وقدوة، يحظون لدى الملوك بوافر التقدير والاحترام، ويتمتعون بين الخاصة والعامة بالكثير من التبجيل والإكبار، وقد شهد لغير قليل من أعلامهم بالأستاذية الكبيرة والمشيخة المتفردة والإمامة المتميزة.

وإنه ليكفي التمثيل بأبي القاسم المتوفى عام أربعة وألف للهجرة وما عقب من خلف صالح، ثم بمحمد التاودي المتوفى سنة تسع ومائتين وألف، وما أنجب من أبناء وأحفاد كانوا على امتداد عهودهم بدورا مشعة مضيئة، وفيهم قال الأديب الذي أنشد له شيخ جماعة الرباط أبو حامد المكي البيطاوري هذين البيتين :

بني سودة أنتم بدور زمانكم وبالفضل والإصلاح سدتم مدى الحقب
وفقتم بني الدنيا جميعا بعلمكم فما إن لكم مثل يجاريكم الرتب

وقد بلغ الشيخ التاودي شأوا بعيدا في كل ذلك، حتى لقب بشيخ الإسلام في عصره، وعد من مجددي المائة الثانية عشرة (...) وإن من يرجع إلى ـ الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة ـ لأبي الربيع سليمان الحوات تلميذ الشيخ التاودي، وكذا إلى فهرسات العلماء وكتب التراجم والطبقات، وما تضمه المكتبات العامة والخاصة من مطبوع ومخطوط ، ليأخذه العجب والانبهار مما حازه السوديون وما ألفوه، وما كان لهم على امتداد نحو خمسة قرون من دور فعال وتأثير كبير وفضل عميم).[18]

7 ـ **قيمة الكتاب النقدية الأدبية** : تتجلى هذه الخاصية المميزة لهذا الكتاب القيم في الصفحات الكثيرة التي خصصها صاحبه للحديث عن الأعمال الأدبية للشخصيات المتحدث عنها في مختلف المجالات، الشعرية، والروائية والمسرحية إلخ، في محاولة لإبراز خصوصياتها الفنية والفكرية وما تزخر به من مزايا إبداعية، تشهد على المكانة الأدبية الخاصة لأصحابها، وما يتحلون به من ذوق جمالي وصفاء فكري عز نظيرهما، مما يعطي القارئ صورة حية عنهم، تساعده على ملامسة مكامن الإبداع في أعمالهم، كما حصل مثلا عند الحديث عن

تجربة مولاي علي الصقلي الشعرية والجوانب الجمالية والفنية التي ميزتها، وما أضافته للحركة الشعرية المغربية من ألوان تعبيرية جديدة كشعر الطفولة والأناشيد والمسرحيات الشعرية التاريخية، إلخ، يقول : (لقد تميز شاعرنا بميزتين اثنتين : تميز أولا بأن طرق بابا صعبا في التعبير، وهو هذا الشعر الذي نسميه شعر الطفولة، هذا باب غير يسير في الكتابة الأدبية عموما، فكيف إذا كانت هذه الكتابة شعرا، تسنى لمولاي علي ـ وهو يعنى بشعر الأطفال ـ أن يساهم في تطوير القصيدة العربية، من خلال ذلكم النمط الذي نعرفه جميعا، وهو النشيد، والنشيد شكل معهود منذ أول القرن بالنسبة للمغاربة، قال فيه شعراء كثيرون، ولكن شاعرنا سيطوع هذا القالب من التعبير الشعري ليجعله في المتناول، أي ليجعله طوع مختلف الموضوعات التي يريد أن يبلغها، كان النشيد في بداية أمره، وأيام الحماية وسيلة لنقل المبادئ الوطنية والأفكار الجديدة، والإشادة بالمغرب ونضاله لاسترجاع الاستقلال، ذلكم ما نجده عند مولاي علي الذي وسع إطار النشيد ليستوعب مختلف الأغراض وشتى الموضوعات، وزاد فأعطى لشكل هذا النشيد بعض الخصائص التي يمكن اعتبارها في عداد ما يمكن أن يسمى تجديدا بالنسبة للأدب المغربي، لأننا لا نرى التجديد فحسب في أن يقول الشاعر مالم يقله غيره.. أو أن يسبق إلى ما لم يطرقه الآخرون، ولكن أن يأتي مبدع إلى ماهو معروف عند الناس ويحاول أن ينميه ويغنيه، كما فعل شاعرنا بالنسبة للنشيد، فهذا لا يمكن إلا أن يعتبر نوعا من التجديد، يسجل للشعراء المغاربة في عدة مجالات، هذا أمر أول، والأمر الثاني هو أن مولاي علي الصقلي، وهو كما قلنا ذلكم الشاعر الغنائي الغارق في غنائيته ـ سيحاول أن يتخطى هذه العتبة، فيغامر

بالدخول إلى ميدان صعب كذلك، هو ميدان الشعر الدرامي، ولعله وجد متنفسه فيه، دليلنا على ذلك هذه المسرحيات الشعرية الكثيرة التي أنتجها، وليس يخفى على أحد أن الشعر المسرحي عسير المثال، ليس بالنسبة للشعراء المغاربة فقط، ولكن كذلك بالنسبة للشعراء العرب عموما، وحتى بالنسبة لغيرهم، ومع ذلك فمولاي علي الصقلي يقتحم هذا المجال ويدخله من زاويته المعقدة المتمثلة في الشعر المسرحي التاريخي، هذا الشعر الذي يضيق خناق الشاعر بأحداثه الجاهزة، وشخوصه المفروضة والمدونة في التاريخ، وليس سهلا عليه أن يتحرر منها.

ومن الإنصاف لشاعرنا أن نشهد له بأنه في هذه التجربة أنتج وأعطى ووفق إلى حد كبير، ونحن حينما نتتبع هذه المسرحيات الشعرية التي كتبها، نحس بقدم الشاعر تزيد رسوخا في كل مرة، ونشعر به يتغلب على مختلف الصعوبات، وهي صعوبات كثيرة يواجهها الشاعر الذي يريد أن يكتب المسرحية، ومن عجيب أنه حتى في هذا النطاق الدرامي فإن الصقلي يظل غنائيا، أو يمزج بين الغنائية وبين الدرامية، ولعل ذلك ما يعطي له ولشعره بعض الخصائص والميزات).[19]

كما أن الدراسات المستفيضة الأخرى التي خص بها أعمال مجموعة من الأعلام المغربية والمشرقية، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الأساتذة عبد الله العروي وعبد الهادي بوطالب وتوفيق عواد وأمين نخلة، أكبر دليل على القيمة النقدية الأدبية المتميزة لهذا الكتاب.

8 ـ **الكتاب شهادة حية على حقيقة الحياة** : فالكتاب يقدم من خلال ما يعرضه من معطيات وحقائق مرتبطة بشخصيات، علمية وأدبية، مغربية ومشرقية، الأحياء منهم والأموات صورة صادقة عن الحياة بأفراحها وأقراحها، بمسراتها وأحزانها،

وكذا بمفارقاتها الغريبة الرافضة للتقعيد، المتمنعة عن التقنين، قاعدة واحدة تحتكم إليها هي اللا قاعدة، ولعل هذا ما جعل صورتها تقترن في أذهان الناس غالبا بالمرأة الحامل وما تخفيه في بطنها من مفاجآت، تتوزع بين السارة والمحزنة، المرغوبة والمرفوضة... إلخ، حقيقة نلمس أبعادها ومظاهرها في مستويات مختلفة من هذا الكتاب.

فعلى المستوى العام، الخاص بتقسيم الكتاب لقسمين كبيرين، قسم أول يخص التكريم، وبالتالي الاشخاص الأحياء، وقسم ثان التأبين وبالتالي الأشخاص الأموات، نلامس سمة التناقض التي تطبع الحياة، حيث تلتقي الأفراح جنبا إلى جنب الأقراح، إن لم تضمرها وتنذر بها، كما هو الحال مثلا بالنسبة لشخصية المرحوم الشيخ محمد المكي الناصري الذي يفتتح تكريمه الكتاب لينهيه تأبينه، وكأني بالمؤلف يعطي بذلك الدليل القاطع على صحة ما قاله أبو البقاء الرندي مستهلا قصيدته المشهورة في رثاء الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم ـ على حال ـ لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان

أما على المستوى الخاص المتعلق بمحتوى الكلمات التكريمية أو التأبينية، التي قيلت في حق الشخصيات الأحياء منهم أو الأموات، فغالبا ما كانت تطالعنا بين الفينة والأخرى، مفارقات غريبة ورهيبة في نفس الوقت، تشعرنا بلا منطقية منطق الحياة، وبقدرتها الخارقة على الجمع بين متناقضات غالبا ما يصعب تصديقها، مما يشكل فرصة سانحة، قد لا يجود الزمان بمثلها، لفهم الحياة على

حقيقتها، واستخلاص ما ينبغي استخلاصه من العبر والعظات، وحسبي في هذا الإطار أن أستحضر مفارقتين اثنتين من المفارقات العديدة التي يزخر بها الكتاب، الأولى تتعلق بتأبين الدكتور الجراري للسيد إبراهيم رضا الله الإلغي، وهو أول من هنأ والده، رحمة الله عليهما، بميلاده، يقول في ذلك : (وبعد، فذلكم حضرات الأخوة بعض ما تسنى لي استحضاره في هذا الحفل الذي يقيمه المجلس العلمي الإقليمي بتارودانت لأحد أعضائه البارزين وأحد أعلام المغرب المتميزين، وإني لأرجو أن أكون به أعربت عما يعتلج في مشاعري من بعض ما أدين له به، على ما بين الموقفين من بون شاسع، موقف الابتهاج عند الإقبال على الحياة، وموقف التأبين لدى توديعها).[20]

أما الثانية فتتعلق بتأبين الأستاذ الجراري للمرحوم محمد الفاسي وهو الذي كلف بإلقاء الكلمة الترحيبية به في رحاب أكاديمية المملكة المغربية، يقول في هذا الصدد : (تلكم كلمتي في هذا الحفل الذي يقيمه قدماء تلاميذ المدرسة المولوية لأحد أساتذتها البارزين، تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة أيده الله وأطال عمره، فلعلي أن أكون رددت الدين الذي ألزمني به، وإن لم أوجه حسب مقتضى الحال، وما أعظم مشيئة العلي القدير، فقد أرادت أن أؤبن اليوم من ابتهج لي بالأمس، وشدا مرحبا بي في مجمع الخالدين، وهو مقام لا يتسنى إلا للأبناء مع الآباء، ومن إليهم من ذوي القربى الخاصة، أو من في مكانتم الروحية).[21] وهو ما يضفي على هذا الكتاب مسحة فلسفية خاصة.

9- الكتاب شهادة حية على التحول الإيجابي الذي تعرفه الساحة الثقافية المغربية:

فإذا كان المغاربة قد شاع عنهم قديما اهتمامهم بعلوم الدراية دون الرواية، فضلا عن إهمالهم لنبغائهم، وقلة العناية بتدوين أخبارهم وإذاعة إنتاجهم

وصيانته، كما أشار لذلك صاحب «المحاضرات» : (إلى حد غدا متداولا بينهم أن ـ المرأ مادام حيا يستهان به ـ وأن ـ المعاصرة حجاب ـ وأنها ـ تمنع المناصرة).[22] خلافا لما هو مألوف في الثقافة العربية الإسلامية من تقدير للعلم والعلماء، وعناية فائقة بهم في الحياة وبعد الممات كما تشهد بذلك كتب الفهارس والبرامج وكتب الرحلات والتراجم والطبقات، فإن هذا الكتاب بما يحويه من معلومات قيمة تعرف بباقة من الشخصيات العلمية، العربية والمغربية المعاصرة، ممن ربطتهم بالمؤلف علاقة شخصية أو ثقافية، ليعد في حد ذاته مؤشرا كبيرا على التحول الإيجابي الذي بدأت تشهده الساحة الثقافية المغربية حاليا في الاتجاه الصحيح، لدرجة لم تعد معها المعاصرة، كما كانت، حجابا يمنع المناصرة، ولا حاجزا يحول دون الاعتراف بالفضل لأهله، كما لاحظ ذلك الدكتور الجراري في مقدمة كتابه : (ويبدو أن شيئا من التغيير طرأ على هذا الواقع، مع بوادر النهضة التي عرفها المغرب منذ سنوات العشرين من هذا القرن، على نحو ما تبرزه التقاريض التي كانت تكتب على بعض المدونات وختمات كبار العلماء وكان يقال في مناسباتها، وكذلك ما كان يتبادل في سياق المساجلات والاخوانيات، بالإضافة إلى رثاء من يتوفى منهم وما ارتبط بهذا الرثاء من إحياء ذكراهم وتأبينهم، وإن في حدود ضيقة، (...) وقد أخذ المغاربة في العقود الثلاثة الأخيرة يعنون بإقامة هذه المناسبات وتنظيمها والاحتفاء بها، مما غدا اليوم من قبيل المألوف).[23]

10 ـ الكتاب يؤرخ كذلك لبعض المؤسسات العلمية : في ارتباط بمهمة التعريف بالدور الهام الذي لعبته بعض الشخصيات المتحدث عنها في نشر العلم وخدمة طلابه كان للمؤلف وقفات طويلة أحيانا عند بعض المؤسسات العلمية من

معاهد ومدارس ونوادي أدبية، مما ارتبط تاريخها بأسماء هذه الشخصيات، في محاولة لإعطاء القارئ صورة شاملة عنها وعن دورها الإشعاعي في نشر الوعي الثقافي والعلمي، وفي هذا الإطار يكفي التذكير بما أورده المؤلف عن جامع بن يوسف (كلية اللغة العربية حاليا) وعن النادي الجراري والمعهد المولوي، وغيرهم مما يضيق المقام عن ذكره هنا بتفصيل.

وبذلك يمكن اعتبار ـ مع المعاصرين ـ في هذا المستوى الأول، كتابا موسوعيا بكل المقاييس والاعتبارات، نظرا لما يشتمل عليه من تراجم ومعلومات تاريخية، أدبية، نقدية، فكرية، وفلسفية، قلما تجتمع في غيره من الكتب المتخصصة في هذا المجال.

وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن المؤلف اعتمد في استيقاء هذه المعلومات وإيرادها، بالإضافة طبعا لمخزونه الثقافي الشخصي، على وسائل ثلاث هي :

1 ـ **الوثائق المكتوبة** : فمن الوسائل الأساسية التي اعتمد عليها المؤلف في جمع المادة العلمية المقدمة في هذا الكتاب، الوثيقة المكتوبة، باعتبارها الأداة الأولى في استيقاء المعارف الصحيحة التي غالبا ما لا يرقى إليها الشك، وثائق تتوزع بين الكتب والكنانيش الخاصة منها والعامة، بحسب نوعية المعلومة المقدمة من جهة، والشخصية المتحدث عنها من جهة أخرى، ففيما يخص الصنف الأول يكفي أن نورد هنا ما رواه من معلومات خاصة بالعلامة الرحالي الفاروق، سجلها المرحوم بنفسه، استهلها بقوله : (ذكر الفقيد فيما كتبه عن نفسه أنه أبصر نور الحيا أواخر سنة عشرين وثلاثمائة وألف للهجرة، وهو تاريخ يوافق عام ثلاثة وتسعمائة وألف للميلاد، وما كاد يبلغ السادسة من عمره حتى ألحقه والده ـ على العادة

المألوفة ـ بالكتاب القرآني ـ حيث حفظ القرآن الكريم على المقرئ أحمد بن المختار الرحالي برواية ورش أولا، ثم بالروايات السبع...).[24]

أما بخصوص الصنف الثاني فأعتقد أن الترجمة الشخصية التي أوردها المؤلف لمولاي مبارك انطلاقا من كتاب ـ الرحلة السطاتية ـ للعلامة عبد الله الجراري، رحمهما الله، أكبر دليل على ذلك، يقول : (وختم الجراري حديثه عن هذه الجلسة المباركية بفقرة عرف فيها بالضيف المراكشي، فقال : (والشريف مولاي مبارك العلوي الذي استفدناه في هذه اللحظة القصيرة هو مولاي مبارك بن عبد الله العلوي الأمراني، زيد بمراكش سنة 1301 هـ، وبعد أن شب بها تعاطى لدراسة العلم فأخذ بمسقط رأسه عن الفقيه المرحوم السيد الحاج العربي الرحماني (...) وللشريف المترجم تقاييد في البديع (...) فأكرم به من شريف عالم أنس به الجراري في لحظة لاجعلها الله آخر عهد بحضرته العالمة).[25]

2 ـ **المعاشرة الشخصية** : بما أن الكتاب يعرف بشخصيات علمية، مغربية ومشرقية معاصرة تربط المؤلف بغالبيتها علاقات ثقافية شخصية مكنته من التعرف عليها مباشرة، وملامسة بعض خصالها الأخلاقية والأدبية، مما أهله لتكوين صورة حية حقيقية عنها، بعيدة كليا عن أهواء الوساطات وحساباتها الضيقة، فقد كانت هذه المعاشرة الشخصية زاده الفياض في أغلب كلمات هذا الكتاب، تكريمية كانت أو تأبينية، مما أضفى عليها، بالإضافة طبعا لقيمتها العلمية، صدقا في الإحساس، وحرارة في العاطفة، أصبحنا معهما وكأننا أمام خطاب مذكرات شخصية يتقاطع فيه الذاتي بالموضوعي، والشخصي بالغيري في تلاحم تام يصعب معه الفصل بينهما فصلا نهائيا، كما توضح ذلك الكلمة التأبينية

الرقيقة التي ألقاها في حق الفقيه محمد بن عبد الله الروداني كوثر رحمه الله، يقول فيها : (وقد تسنى لي أن أعرف جوانب متعددة من حياة الفقيد العزيز، وأعيش معه لقطات منها غير يسيرة بحكم العلاقات الوطيدة التي ألحمت بيننا في أصر قوي ورباط متين.

بدأ هذا التعرف أوائل سنوات الأربعين، وأنا طفل في الخامسة أو السادسة من عمري آنس إليه كلما زار والدي في بيته رحمه الله وإياه، وأجلس إلى جانبه مأخوذا بهيئته التي كانت تشدني إليه في شيء من الاستغراب، والتي ظلت مرافقة له على امتداد الأعوام، وكان هذا الشعور يزيد عندي حين يصحبني أبي معه إلى الدار البيضاء ويأخذني إلى الدكان الصغير الذي كان الفقيه الروداني قد اتخذه للتجارة في حيها القديم). إلى أن يقول : (وإني لأذكر جيدا تلك الليلة التي دعاني فيها، ونحن علي مائدة العشاء بهذا البيت الكريم إلى الكتابة في مجلة ـ هنا كل شيء ـ التي كان يشرف على إدارتها وتحريرها).[26]

3 ـ **الرواية الشفهية** : على أن المؤلف كان كلما استعصى عليه العثور على مبتغاه في الوثائق المكتوبة، وأعوزته العلاقة الشخصية في بلوغها لسبب من الأسباب، إلا ويلتجئ للرواية الشفهية باعتبارها الوسيلة الوحيدة المتبقية لتحقيق مراده.

وقد كان يختار لهذه المهمة الرواة الثقات ممن لا يرقى الشك، بأي حال من الأحوال، لشهاداتهم بحكم العلاقة الشخصية الوثيقة التي تربطه بهم، كالوالد، مثلا، الذي كان مصدره الشفهي الأول بدون منازع، أو غيره ممن لهم معرفة دقيقة بالشخصية المتحدث عنها، كما هو الحال مثلا بالنسبة للسيدين : الزغاري وحكم اللذين زودا المؤلف ببعض المعلومات الخاصة بالموحوم الحاج محمد أبا حنيني،

يقول : (وقد ذكر لي الفقيه السيد محمد حكم ـ وكان من ملازمي تلك الدروس ـ أن المعلم الناشئ كان يعنى فيها بعيون البيان العربي، يعرف بأعلامه ويوضح قضاياه، كما كان مأخوذا بالتراث الأندلسي يشرح نصوصه ويبرز عناصرها الإبداعية المتميزة، في شغف خاص بابن زيدون وتذوق لشعره يسعى إلى بثهما في النفوس، وكان يشفع هذا المنهج التعليمي بتكليف التلاميذ بعروض يهيئونها، غالبا ما كانت تتناول تحليلا لأحد المصنفات التي يكون سبق هو إلى قراءتها، ككتاب ـ الإمتاع والمؤانسة ـ لأبي حيان التوحيدي، و ـ طوق الحمامة ـ الذي ذكر لي السيد حكم، أنه كان ـ وحياة مؤلفه ابن حزم ـ موضوعا لعرض أنجزه وألقاه في إحدى الجلسات، وبنفس هذا الحماس المتدفق كان المعلم الطالب، في زياراته المتكررة لفاس، يلتقي مع شبابها في نطاق المحاضرات التي كانت تنظمها جمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإدريسية، والتي كان يتناول فيها موضوعات أدبية شبيهة بما كان يلقيه في الرباط، وفي هذا الصدد أكد لي السيد الزغاري ما كان كتبه في تأبين رفيق عمره، من أن مسامراته الفاسية كانت تنصب كذلك على فن الملحون وخاصة على تراث التهامي المدغري الذي كان المحاضر الفنان معجبا بقصائده).[27]

II ـ **المستوى الثاني** : في هذا المستوى نتناول كما سبقت الإشارة لذلك المعلومات والحقائق الشخصية الخاصة بالمؤلف التي عادة ما يكشف عنها الكتاب بطريقة غير مباشرة ولا مقصودة، خلافا لمعطيات المستوى الأول، مما يجعل مسألة الانتباه إليها غالبا ما تكون مرضية، رغم الأهمية القصوى التي تكتسيها أحيانا، لما يتطلبه ذلك من جهد وتركيز خاصين قد لا يتوفر عليهما دائما القارئ العادي، كما سيتضح ذلك جليا من حجم ونوعية المعلومات التي يقدمها كتاب -مع المعاصرين-

عن شخصية مؤلفه الأستاذ الدكتور عباس الجراري، معلومات آثرنا لضخامتها تصنيفها لأربع مجموعات، تختص كل واحدة برصد جانب معين من جوانب تكوين شخصية المؤلف، وهي على التوالي :

1 ـ **مجموعة المعلومات البيوغرافية** : لعل أول ما يشد انتباه القارئ وهو يطالع هذا الكتاب الهام، حجم المعلومات البيوغرافية القيمة التي يقدمها عن صاحبه، في معرض حديثه عن بعض الشخصيات، الوطنية والمشرقية، بحكم معاصرته لها من جهة، وخضوعا لإرغامات الكتابة وما تقتضيه من تداخل لعناصر الملفوظ بالتلفظ من جهة أخرى، مما يعطي القارئ نبذة شبه كاملة عن مختلف مراحل حياة المؤلف، من الميلاد حتى العمل، مرورا بما بينهما من محطات الدراسة والتكوين... إلخ. يصعب الوقوف على تفاصيلها الحميمية الدقيقة في غير هذا الكتاب، وهو ما يؤكد بالملموس صحة ما أشرنا إليه سابقا، من كون الكتابة حتى في أبرز لحظاتها الموضوعية ترفض أن تبقى محايدة جامدة، وتأبى إلا أن تكشف عن بعض جوانب ذاتية صاحبها، ولتقريب القارئ من هذه الحقيقة اللسانية، يكفي استعراض بعض المقاطع السردية المتضمنة لهذه المعلومات البيوغرافية، وما أكثرها في هذا الكتاب، على أن تكون البداية من بداية الحياة وبالتالي من الميلاد، يقول الكاتب عن هذه المرحلة من حياته في معرض الكلمة التأبينية التي ألقاها في حق المرحوم السيد ابراهيم رضا الله الإلغي : (ترجع معرفتي الأولى به إلى فترة صباي، حين بدأت أدرك الأشياء، ومنذ الخطوات الأولى التي كان يدرجني بها والدي رحمه الله في طريق التوعية والتلقين والتثقيف، إذ أخبرني فيما نقل إلي بهذا الصدد أن سيدي ابراهيم كان من أول أصدقائه الذين هنأوه بولادتي، وأن

تهنئته كانت شعرا، لم ألبث أن حفظت أبياته التي كان يحلولي ترديدها، وهي التي يقول في أولها :

يقـــولون عـــبـــد الله زيد له نجل فــقلت لهم لا غــرو إن أنجب الفــحل

ومــاهو إلا من ســـلالة مـــاجـــد ومن شـــأنه أن يســـتـــهل له الطفل

كان ذلك يوم الاثنين ثالث ذي الحجة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف، الموافق خامس عشر فبراير عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف).[28] أما بخصوص مرحلة الدراسة والتكوين، فيقول الأستاذ الجراري عنها في نفس المناسبة السابقة : (ومع ذلك، فإني لم أتعرف إلى شخص المرحوم الإلغي إلا بعد عودته إلى الرباط إثر الاستقلال، واستقراره فيه عضوا بالمجلس الأعلى للقضاء(...) وكنت أثناء الأعوام الأولى من هذه المرحلة لا أراه إلا في عطلة الصيف، حين أعود من القاهرة التي كنت أدرس بجامعتها في أواخر سنوات الخمسين، والتي عملت في سفارة المغرب بها أوائل الستين، وكان ملتقى الجمعة في بيت والدي فرصة مقابلة أخيه المختار الذي كان قد استقر بدوره في العاصمة بعد أن أسندت إليه وزارة الأحباس، ثم وزارة التاج.

وقد تسنى لي بعد العودة النهائية من عاصمة الكنانة عام خمسة وستين والتحاقي بهيئة التدريس في الجامعة المغربية، أن ألازم هذا الملتقى).[29] دون أن ننسى الإشارات الكثيرة الشخصية الأخرى، المبثوثة هنا وهناك، والمتعلقة بالمهام العلمية والتربوية المسندة إليه، إما بوزارة الثقافة أو التعليم أو بأكاديمية المملكة، وكذا الملتقيات الثقافية العديدة التي شارك فيها داخل المغرب وخارجه، إلى غير ذلك من المعلومات الشخصية القيمة الأخرى التي تلقي الضوء على مختلف مراحل

حياة هذه الشخصية العلمية المتميزة وتكشف عن بعض جوانب النبوغ فيها. وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب يكشف لأول مرة، فيما أعلم، عن الجانب الشعبي في تجربة الجراري الإبداعية، باحتوائه على بائية ألقاها المؤلف في حفل تأبين الفقيد محمد بن عبد الله الروداني كوثر تغمده الله بواسع رحمته، يقول فيها : (

وهل يصير المكلوم يفقد خله	يغالب أرزاء القضاء فتغلب ؟
غدوت بمنأى بعدما كنت جانبي	وكنت بصفو الود للبعد تقرب،
أناديك يا حبي فلامن يجيبني	وأندب حظا كنت بالروح أخطب،

إلى أن يقول :

إذا ما الفاجعات جلين يوما	فما صابني شمسي لغيبك تغرب
سأحتسب الصبر الجميل تيقنا	رجوعي إلى من لا يغيب ويذهب
علىّ أن نأي الموت حتما إلى لقا	وإن اللقافي ـ الكوثر ـ العذب نشرب)[30]

2 ـ **مجموعة المكونات الثقافية** : في هذه النقطة نود الوقوف على مجالات التكوين الثقافي لشخصية المؤلف، كما يكشف عنها ضمنيا هذا الكتاب، من خلال الجوانب المعرفية العديدة والمتنوعة التي يطرحها في بعده العام المباشر، كما سبقت الإشارة لذلك في المستوى الأول السابق من هذه الدراسة، تكوين أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه موسوعي يستلهم فيضه من مجالات معرفية عديدة ومتنوعة، يلتقي فيها الأدبي بالتاريخي والفكري بالديني، والتراثي بالحداثي، في انسجام وتكامل تامين، لتعطي صورة «ناصعة ومضيئة عن المثقف الحقيقي، ولعل فيما أوردناه، سابقا، من أبعاد معرفية متشعبة للكتاب في مستواه المباشر الأول ما يكفي لتقريب القارئ من هذه الصورة، ويعفينا من استحضار الشواهد عنها.

3 ـ مجموعة الخصوصيات المنهجية والفكرية والأدبية للكتابة الجرارية :

ونعني بذلك ما يعكسه هذا الكتاب في مستوياته وأبعاده المختلفة، من معلومات وبيانات متنوعة هامة تتعلق أساسا بخصوصيات الكتابة الجرارية، على المستويات الأسلوبية والبلاغية والفكرية والنقدية، فضلا عن المستوى المنهجي التنظيمي، كما يلاحظ ذلك من القراءة العادية الأولى للكتاب، ونظرا لما يتطلبه الحديث عن هذه الجوانب مجتمعة من وقت لا يسمح به المقام، فقد آثرنا قصر تحليلنا على المستوى الثالث والأخير من هذه الجوانب، لاعتقادنا بأنه الوحيد الذي يحتاج لبعض التوضيح، بينما الجانبان الآخران فهما في غنى عن ذلك بالنظر لبروزهما وسهولة الوقوف على مميزاتهما، سواء تعلق الأمر بالبعد الأسلوبي البلاغي الرصين والراقي للكتابة الجرارية، أو بدقة التحليل والنقد وما ينمان عنه من مزايا فكرية وذوقية خاصة برؤية المؤلف للأمور وتقويمه لها، خلافا للجانب المنهجي الذي يبدو لي أنه بحاجة لوقفة طويلة لتجلية بعض خصائصه ومميزاته، نظرا لتعدد مستويات تمظهراته، سواء تعلق الأمر بالمستوى العام للكتاب ككل، أو المستويات الداخلية الخاصة بالكلمات، التكريمية أو التأبينية، التي يشتمل عليها.

ففيما يخص المستوى العام لكتاب نلاحظ أنه يخضع في توزيع مواده، كباقي كتب الأستاذ الأخرى، لتصميم منهجي مضبوط ومحكم، لافيما يخص عناصره الكبرى المكونة من مقدمة وقسمين رئيسيين، خصص الأول منهما لكلمات تكريم ألقاها المؤلف في حق شخصيات علمية، عربية ومغربية، وفي مناسبات مختلف داخل المغرب وخارجه، ويحمل عنوان تقدير وتكريم، بينما اشتمل الثاني على كلمات تأبين قالها الأستاذ في شخصيات علمية جمعته وإياها روابط وثيقة مختلفة،

وفاء لها وإشادة بمناقبها، عنونه بوفاء وعرفان، كما هو مبين في المقدمة الهامة الموضوعة لهذا الكتاب : (فقد ارتأيت أن أجمع نماذج مما تسنى لي كتابته في هذا المجال(...) وقد جعلتها في قسمين :

الأول : خاص بما قيل منها في مناسبات التكريم.

الثاني : متعلق بما قيل منها في مناسبات التأبين.

وهي ـ جميعا ـ تلتقي في كونها تتناول معاصرين ممن رسمت أسماؤهم وآثارهم في ذاكرتي والقلب).[31]

مما ينم عن تصور منهجي شامل واضح، عرف به الأستاذ في كل ممارساته العلمية ـ تأليفا وتأطيرا وتدريسا ـ بحيث لا يكتفي فقط بتمييز الأشياء عن بعضها البعض وتصنيفها في خانات محددة كما هو مبين أعلاه، ولكنه يهتم أيضا بترتيبها وفق معيار كرونولوجي مضبوط، يضع تكريم الأحياء في القسم الأول، متبوعا بتأبين الأموات، في القسم الثاني، محترما بذلك ناموس الكون، وما يعطيه من أسبقية للحياة على الموت، جاعلا من الأولى قنطرة عبور حتمية لبلوغ الثانية.

نفس الصرامة المنهجية نلاحظها أيضا في طريقة ترتيب المؤلف للمواد الداخلية الخاصة بكل قسم، بالرغم من استقلاليتها الموضوعاتية وما تمنحه من حرية ظاهرية تغري بعرضها بطريقة اعتباطية عفوية لا تخضع لأي معيار، إلا أن المؤلف، حرصا منه على النظام في كل شيء، فضل ترتيبها وفق معيار زمني تصاعدي، كما تبين ذلك الإشارات الزمنية الدقيقة الواردة في مستهل كل كلمة، وإن لم يتقيد به حرفيا دائما، لاعتبارات عدة ترجع في معظمها لرغبة المؤلف في جمع الكلمات التي ألقيت في مناسبات متشابهة، أو في شخصية واحدة، مع

بعضها رغم تباعدها الزمني، توحيدا لمضامين هذه الكلمات من ناحية، وتيسيرا لقراءتها من ناحية أخرى، مما يعكس حرص المؤلف الدائم على التزام الدقة والوضوح المنهجيين في تصميم كتبه وتنظيم موادها، دون التقيد المطلق في الوقت ذاته بخطة عمل واحدة ووحيدة، قد تسيء في النهاية للأهداف والغايات المتوخاة منها، وهو ما يدفعه في الغالب، لاعتماد تصورات منهجية عديدة، قد تبدو ظاهريا مختلفة، لكنها تخدم، في العمق، بتكامل وانسجام تامين أبعاده ومراميه، كما لاشك نلمس ذلك في غيرما كتاب من كتبه.

خاصية منهجية واضحة لا تنحصر مظاهرها وتجلياتها طبعا في المستوى العام للكتاب، كما أبرزنا ذلك سابقا، بل تتجاوزه لتطال أيضا طريقة المؤلف الخاصة في صياغة كلماته التكريمية والتأبينية على حد سواء، طريقة نلاحظ أنها تخضع هي الأخرى، لنظام منهجي مضبوط وواضح، يعد بمثابة الإطار العام الذي يسمح للمؤلف برصف أفكاره وترتيبها وفق معيار محدد، دون أن يتحول لقيد يحد من حريته الخاصة في إدخال التعديلات المناسبة لمقتضيات مقام كل كلمة على حدة، مما يضفي على هذه الكلمات صفة التنوع داخل الوحدة، وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن من بين أهم مكونات هذه الخطة المنهجية المعتمدة في كتابة هذه الكلمات، مقدمة عامة تعد بمثابة مدخل طبيعي لعرض الموضوع المطروح في إطاره الخاص وتحديد أبعاده وجوانبه، قبل الانتقال لاحقا، أثناء العرض لتفصيل القول فيه كلا أو جزءا، حسب مقتضيات المقام، وما يسمح به، دون تفريط أو إفراط، كما تبين ذلك مقدمة المحاضرة التي ألقاها عن أبي شعيب الدكالي بمدينة الجديدة، يقول فيها : (أود أن أعرب عن السعادة الكبيرة التي أشعر بها تخالجني

وأنا أشارك في المهرجان الثالث لدكالة، هذا المهرجان الذي يقام في نطاق الأيام البهيجة التي يحتفل فيها الشعب المغربي بعيد الشباب المجيد، وبذكرى ميلاد صاحب الجلالة أيده الله، وهما مناسبتان عزيزتان تصادفان هذا العام احتفال الأمة المغربية بالذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء جلالة الحسن الثاني نصره الله عرش أسلافه المنعمين.

المحاضرة التي أسعد بإلقائها عليكم في أمسية اليوم تتعلق بشخصية نبعت في هذا الإقليم، ولعلها من أبرز الشخصيات التي عرفها المغرب في هذا القرن، وفي أوائله بصفة خاصة، تلكم هي شخصية أبي شعيب الدكالي، وسأتحدث عن صاحبها من زاوية محددة باعتباره رائد الإصلاح الفكري في المغرب الحديث).(32)

وبذلك يربط الخاص بالعام، والجزئي بالكلي، في تدرج منطقي محكم من شأنه شد القارئ لمتابعة الكلمة واستيعاب مضمونها، دون ملل ولا كلل.

بعد ذلك يشرع في سرد معطيات الموضوع المقرر توضيحه، مبينا مزاياه وفوائده، بالنظر لخصوصياته الذاتية من جهة، وفي ارتباط بالظرف الحضاري والتاريخي العام الذي وجد فيه من جهة أخرى، في محاولة لتقريب القارئ من صورته الحقيقية المتميزة، يقول : (لكي نفهم الدور الكبير الذي قام به أبو شعيب الدكالي، لابد أن نعرف الظروف الغامة التي ظهر فيها، حتى نتمكن من تحديد مكانة هذا الدور وأهميته).(33) وقد كان يختم في الغالب كلماته هذه، بإعطاء خلاصة عامة يجمل فيها أهم الصفات العلمية والأدبية للشخصية المتحدث عنها، متمنيا لها دوام الصحة والعافية، إن كانت من الأحياء، أو داعيا لها بالرحمة والمغفرة إن كانت من الأموات، كما تشهد بذلك خاتمة كلمته التأبينية في المرحوم

الحاج امحمد ابا حنيني، يقول فيها : (حضراتي السيدات والسادة : لو شئت أن استعرض ذكرياتي مع الزميل الراحل في هذا المجال أو في غيره مما أحظتني به الصلة الحميمية والوثيقة التي جمعتني وإياه، منذ عرفته في زياراته لوالدي رحمه الله وأنا طفل صغير، إلى أن تسنى لنا اللقاء في ميادين شتى مشتركة، لاحتجت إلى أكثر مما يسمح به وقت هذه الكلمة العجالية التي لم أقصد منها سوى إثارة الانتباه إلى جانب من اهتماماته أحسب أنه لم يحظ بالعناية اللازمة عند من تحدثوا عنه.

رحم الله الفقيد العزيز، وتغمده بواسع مغفرته ورضوانه، وأجزل له عظيم الأجر والثواب جزاء ما قدم لملكه ووطنه).(34)

وبذلك يعكس هذا المؤلف ملامح الكتابة عند الأستاذ الجراري في أبعادها المختلفة، العامة منها والخاصة، كما يحدد أبهى مظاهرها التعبيرية والفكرية والمنهجية، لدرجة يمكن اعتباره، من هذه الناحية، حجة فريدة من نوعها.

4 ـ **مجموعة الآراء والمواقف الخاصة** : في هذه المجموعة سنحاول استعراض بعض آراء ومواقف المؤلف الشخصية بخصوص مختلف القضايا الأدبية والفكرية المطروحة في الكتاب، كما وردت في خضم مناقشاته وتعليقاته الوافية لها، مما يضفي على هذا المؤلف قيمة معرفية خاصة تنضاف لباقي قيمه الأخرى وتغنيها، آراء يمكن حصر معظمها في العناوين التالية اكتفينا هنا باستعراضها مرفوقة بالفقرات التي تبينها دون تعليق تفاديا للإطالة.

1 ـ **رأيه في رسالة الأدب** : يقول في هذا المجال : (إننا على الرغم من كل ما يقال، مازلنا نومن برسالة الشعر والأدب عامة، سواء من حيث تمثيله لضمير الأمة

وكيانها وتعبيره عن حياتها وحيويتها، أو من حيث توجيهه لمصيرها وفتح آفاق المستقبل أمامها وتفجير طاقات النضال والتغيير في جماهيرها لتمحو كل مظاهر التخلف وجميع آثار الاستعمار).[35]

ويضيف قائلا في موقع آخر : (لا يخامرني وإياكم أدنى شك في أن للأدب والبحث فيه دورا ذا أهمية قصوى في الحياة، على عكس ما يتوهم الكثيرون، وهو اليوم يزيد قيمة ويعظم أثرا في سياق الوضع الراهن الذي نعيشه على صعيد الأمة العربية جمعاء).[36]

2 ـ **رأيه في قدرة الأديب الحق على تطويع اللغة عامية كانت أو فصحى** : يقول : (إن الشاعر بفنيته وثقافته قادر ـ وذلك مطلوب منه ـ أن يطوع اللغة أية لغة، لافرق بين معربها وملحونها، ويبدع منها وفيها تشكيلات يشحنها بدلالات جديدة يفرغ فيها من ذاته ويسكب فيها من عقله ما يقويها، وأن ينظم بينها وهذه الدلالات في تناغم يضفي عليها موسيقية متموجة ومتداخلة تتبلور في تحرك نغمي ينطلق من الخارج إلى العمق، أو من هذا إلى ذاك في انسجام هو في الحقيقة مكمن جمال التعبير).[37]

3 ـ **رأيه في اللغة الشعرية** : يقول : (فاللغة وسيلة وليست غاية، ولايمكن أن تكون إلا كذلك، إذ هي مجرد رموز ومصطلحات يتوسل الإنسان بها في التعبير عن أحاسيسه ومدركاته في الحياة).[38]

4 ـ **رأيه في قضية التجديد في الأدب** : يقول : (إننا لا نرى التجديد فحسب في أن يقول الشاعر مالم يقله غيره، أو أن يسبق إلى مالم يطرقه الآخرون، ولكن أن يأتي مبدع إلى ماهو معروف عند الناس ويحاول أن ينميه ويغنيه)[39] ويضيف قائلا في مكان آخر : (وهنا تكمن عبقرية الشاعر، إذ يقدم شعرا هو في الظاهر

شبيه بما كان يلقى في المناسبات التقليدية المعروفة، لكنه في العمق ينطلق من نظر جديد يتحفز فيه من المنسبة وما تقتضيه من مدح. ليحلق في أجواء المعاني الوطنية، ويرتبط بالأمانة وبالأفكار والعواطف التي كانت تهز الناس وتحرك مشاعرهم).[40]

5 ـ **رأيه في علاقة الكتابة بالتجربة** : يقول : (إن الكتابة من حيث هي، سواء أكانت شعرا أو نثرا ـ لا تعدو في حال صدقها وتلقائيتها أن تكون تعبيرا عن تجربة يعانيها الكاتب، لا فرق فيها بين أن تكون تجربة فردية تكشف عن كوامن النفس وأعماق الضمير فتتجه نحو التعبير الذاتي الخاص الذي قد تطغى عليه غنائية جميلة ممتعة، أو أن تكون تجربة جماعية تبرز مشاعر مشتركة نابعة من معاناة واسعة تفضي إلى إعراب جمعي عام قد لا يخلو من صراع تكتنفه الآلام والآمال).[41]

6 ـ **مفهومه للإقليمية** : يقول : (وإني لا أخفي ـ شخصيا ـ وقد قدمت أعمالا متواضعة في الأدب المغربي أني ألتقي مع الأستاذ كنون في كثير من الأشياء، منها البعد الوحدوي لهذه الإقليمية، نحن لا نريد التميز عن الكيان الإسلامي العام، وإنما نريد وضع لبنة تكمل الصورة وتوضحها).[42]

7 ـ **مفهومه الواسع للأدب** : يقول : (كما ألتقي معه في مفهومه الواسع للأدب، وهذه قضية عند الأستاذ كنون لم تكن اعتباطية، وإنما هي داخلة في رؤيا واضحة، والذي ينقب في الأدب المغربي وغيره لا محالة يصل لكي يقدم شيئا عن إبداع هذه الأمة إلى التوسل بمنهج يقتضي في أولى أدواته أن يكون له هذا الأفق الواسع المتسع الذي لا يهمل الجانب العلمي والفكري، حقيقة نجد في تاريخ المغرب والأدب أن هناك شعراء لم يكونوا إلا شعراء، أو كتابا، لكن معظم التعبير

الأدبي في المغرب كان صادرا عن تلكم الفئة من العلماء والمفكرين والأدباء الذين تميزوا بالمشاركة في كل الميادين).[43]

8 ـ **مفهومه للسلفية الصحيحة** : يقول : (هنا لابد من كلمة حول مفهوم السلفية، هذا المصطلح ينبغي الانتباه إليه، لأنه يستعمل في معنيين اثنين ، يستعمل في معنى إيجابي كما هو الآن ونحن نتحدث عن أبي شعيب الدكالي زعيم السلفية أو رائد السلفية، ويستعمل بمعنى قدحي عند الذين يرفضون الرجوع إلى الماضي وإلى التراث، فكل ما هو رجعي أو مرتبط بالماضي يقولون عنه إنه سلفي، إذن ما معنى السلفية ؟ هي الرجوع إلي الأصول، ماهي الأصول؟ بالنسبة للإسلام وبالنسبة للفكر الإسلامي الأصول هي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولهذا كان الدكالي يركز علي تدريسهما ، ملحا على حك الفكر المغربي من خلال تفسير آية أو شرح حديث، وبذلك استطلاع أن يبث الرأي السلفي في أبعاده الجديدة المتفتحة، بواسطة الرجوع إلى الأصل للتغلب على كل السلبيات الذائعة).[44]

9- **رأيه في ضرورة إعطاء النص الأدبي الأهمية الأولى في كل مقاربة** : يقول : (إننا حينما نقرأ الشعر، أو حين نستمع إلى الشاعر ـ أي شاعر ـ فإننا نريد أن نتعامل مع الشعر نفسه، لأن الذي يهمنا هو هذا الشعر، وماعدا ذلك فهو تحليل واجتهاد وتفسير وتأويل ومحاولة لفتح آفاق الفهم أمام المتلقين، لهذا نحن حين نقرأ الدواوين، لا نتوقع أن نجد فيها مقدمات يشرح فيها الشعراء تجاربهم ودوافعهم إلى القول، ومع ذلك، فحين تتاح الفرصة للإلتقاء بالشاعر للإصغاء إليه، ولمناقشته، ولعرض مجموعة من الأسئلة عليه، ولمحاولة سبر أغوار تجربته فإننا نهتبل

الفرصة، لأننا حين نقرأ الشعر، سواء أكان مغربيا أو عربيا بصفة عامة، فإن أشياء كثيرة تظل خفية عنا لا يمكن أن يكشفها إلا الشاعر نفسه.(45)

10 ـ إيمانه بأهمية المصادر في دراسة الشعر الجاهلي : يقول : (فلم ألبث أن اقتنعت معك بأن النظر في المصادر هو الخطوة الأولى الصحيحة التي تسبق غيرها في سبيل دراسة هذا الشعر، وإن بحثه بحثا مجديا لا يتم إلا عن طريق دراسة خارجية أولا تعنى بمصادره جملة في مجموعها، ثم تتبع تلك التي استقى منها أولئك الرواة خطوة خطوة حتى نصل بين هؤلاء الرواة والشاعر الجاهلي نفسه).(ص:140)

11 ـ إيمانه بأهمية التدوين والنشر في تطوير الأدب وتيسير البحث فيه : يقول : (وإني لأغتنم هذه المناسبة التكريمية للفت الانتباه إلى ضرورة جمع الإنتاج الأدبي للصديق بوطالب، لأني وجدت بعض الصعوبة في الوقوف على النماذج التي سقت منه، واغتنمها بصفة خاصة لأقول للأستاذ عبد الهادي ولمنظمي هذه الندوة، إن الحاجة ماسة أن تتم العناية بجمع هذا الشعر، وبجميع الأعمال الأخرى التي لاشك أنه أبدعها ولم ينشرها، لأنه تحدث في مذكراته عن رواية ثانية أو عن قصة تناول فيها ابن خلدون، وما أحوجنا إلى أن نعرف هذه الأعمال، باعتبارها أعمالا مبكرة رائدة، وباعتبارها أعمالا شقت الطريق للآخرين، وباعتبارها قبل هذا وبعده أعمالا جيدة في مستوى إبداع راق ورائع).(46)

12 ـ رأيه في علاقة السياسي بالثقافي : يقول : (إن المتتبع لحياة الشيخ محمد المكي الناصري الحافلة في مختلف هذه الميادين الجهادية لا يلبث أن يثير استفسارا حول الكيفية التي استطاع بها أن يجمع ويوفق بين مجالين سبق أن قلت إنهما قد يبدوان متناقضين، وهما في الحقيقة ليسا كذلك، إذ لا فصل ـ في

رأيي ـ من حيث المبدأ والفحوى والهدف بين الثقافة والسياسة مالم تشبها الحزبية الضيقة).[47]

13 ـ **الالتزام السياسي ليس رديفا دائما للمناورة** : يقول : (ونحن في هذا لا نرى ماهو شائع في الأذهان من كون التوجه السياسي في نطاقه الضيق رديف الدهاء والتحايل والمناورة، وخاليا نتيجة، ذلك من الصدق والنزاهة والاستقامة وما إليها من قيم خص بها المصلحون، ومن ثم فمنظورنا للمقالة السياسية في عمومها، لاسيما عند رواد كتابتها ـ لا يستبعد الآفاق الإصلاحية التي تجلت عندهم بوضوح كبير).[48]

14 ـ **رأيه في مسألة تكريم الأدباء والمفكرين** : يقول : (ولا بدلي كذلك في هذا البدء أن أضع قضية التكريم والدافع إليه والهدف منه في مكانها الحق، إذ لا يخامرني أدنى شك في أن مثل هذا الاحتفال وما إليه من احتفاء الأمة برجالها يسعى إلى تحقيق غايات متعددة، فهو يمحو وصمة الإهمال الذي قد تنعت به هذه الأمة، ولعلي في غير حاجة إلى أن أذكر بما شاع في هذا الصدد عن المغاربة على امتداد الحقب، وهو يدل على الاعتراف بالجميل لذويه، بعيدا عن أي مظهر جحود أو نكران، ثم إنه يضع الأمور، في إطارها الواقعي الذي يساعد على معرفة الحقيقة، فيمنع تحريفها ويحول دون كل تزييف، ويعتبر بعد هذا مناسبة لتعريف الأجيال بما قام به الآباء وما حققوه للبلاد من أعمال ومنجزات، ومن خلال كل ذلك يتيح إبراز النموذج الذي يراد اتخاذه قدوة للاحتذاء.[49] بالإضافة طبعا إلى : (أن للأديب على أمته ومواطنيه حق التقدير والتكريم).[50]

وبذلك يتأكد ما قلناه سابقا من أن الكتابة الخالصة، موضوعية كانت أو ذاتية، لا وجود لها في الواقع، وأن افتراض قيامها كقناعة مسبقة في كل قراءة من

شأنه اختزال العمل المقروء والإساءة إليه، نظرا لمصادرتها المبدئية على نصف مضمون النص. واكتفائها بالنصف الثاني فقط، مما يستوجب بالضرورة مراجعة دائمة ومستمرة لأدوات ومنطلقات تعاملنا مع هذه الأعمال، بما يضمن ويسمح بخلق تواصل حقيقي إيجابي معها، لا يستثني أي جانب، مباشرا كان أو غير مباشر، كما أثبتت ذلك القراءة السابقة وركزت عليه، علما بأنها ليست سوى قراءة واحدة من عدة قراءات ممكنة أخرى، يبقى هذا الكتاب القيم، بحكم غناه وثرائه، منفتحا عليها وقابلا لها.

* * *

هوامش الدراسة :

1) * د. عباس الجراري : مع المعاصرين، أسماء وآثار في الذاكرة والقلب، الجزء الأول، منشورات النادي الجراري، عدد : 7، دار الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، نونبر، 1995.

2) أنظر دراستنا عن الصيغة السردية، مجلة مكناسة، لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، العدد : 8، السنة : 1994.

3) أنظر :

- G. Genette : Figures III, éd : seuil; coll poétique 1972, p : 206
- T. Todorov : Les catégories du récit littéraire in l'analyse structurale du récit; éd : seuil; coll : points, 1981, p : 150.

4) أنظر :

- E. Benvéniste : problèmes de linguistique générale, T.1. éd : Gallimard, 1966, p: 238.

6) أنظر :

- E. Benvéniste : Op, Cit, 1966, p: 262.

7) أنظر :

- G. Genette : Figures II, éd : seuil; coll : points 1969, p : 65.

8) أنظر :

- T. Jakobson : Essais de linguistique générale, éd : de minuit, 1963, p : 214.

9) د. عباس الجراري، مرجع مذكور، 1995، ص : 7/6.
10) د. عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. ص : 5.
11) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 159.
12) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 23.
13) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 72/71.
14) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 73.
15) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 123/122/121.
16) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 165.
17) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 165/164.
18) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 91/90.
19) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 39/38.
20) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 198/197.
21) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 237.
22) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 5.
23) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 6.
24) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 216.
25) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 186.
26) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 250/249.
27) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 204/203.
28) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 192/191.
29) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 196/195.
30) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 255/254.
31) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 7/6.
32) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 159.
33) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 159.
34) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 209/208.
35) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 15/14.
36) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 45.
37) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 16.
38) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 15.
39) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 39.
40) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 58/57.
41) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 7.

42) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 112.
43) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 112.
44) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 165.
45) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 40.
46) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 65/64.
47) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 27.
48) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 74/73.
49) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 21.
50) د. عباس الجراري : مرجع مذكور، 1995، ص : 7.

***

النادي الجراري بين التأسيس والامتداد مجلس الدكتور عباس الجراري نموذجا

مصطفى الجوهري (*)

النادي الجراري : مرحلة التأسيس (1930 – 1981) :

لعل ظاهرة الأندية الأدبية أو المجالس العلمية ظاهرة قديمة في تاريخ الثقافة العربية والإنسانية قديمها وحديثها، والمغرب عرف هذه الظاهرة التي كانت منتشرة بكثرة، تعكس جانبا من ملامح ثقافتنا خاصة في الفترة الحديثة، وربما كانت أندية مدينة الرباط في مقدمتها لقيمتها العلمية، وأثرها في الأوساط الاجتماعية، وعلى تعدد تلك الأندية والمجالس، فإنه يهمني منها الآن النادي الجراري، الذي ارتبط في مرحلة تأسيسه بحدثين هامين في تاريخ المغرب الحديث.

«الأول : حدث الظهير البربري 1930 الذي كان يهدف إلى خلق الفتنة العقدية وتمزيق الوحدة الوطنية، وإثارة النزعات العرقية، فكان صاحب المنتدى من الثائرين والمنتفضين الأول، المنظرين لمقاومته، كلفه دخول السجن.

هذا الحدث نبهه إلى أن العمل الوطني يجب أن يخطط له ويدرس بعيدا عن عيون الاستعمار المنبثة في كل مكان، لذلك شكل عندي هذا العنصر أبرز العوامل

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط.

في التعجيل بتأسيس النادي الجراري الذي كان شبه خلية تتدارس القضايا الوطنية، وتتبع كل أسرارها خدمة لهذه الأمة لغة ودينا وعرشا.

الثاني : أجواء الحركة السلفية أو ما عرف يومئذ بمعركة الشيوخ والشباب، فالرباط عرف نشاطا مكثفا لهذه الحركة على يد مجموعة من الأسماء الثقافية الهامة، كأبي شعيب الدكالي ومولاي العربي العلوي، والفقيه محمد السايح، والأديب عبد الله الجراري.

إذن فسنة 1930 تأسيس النادي الجراري وانطلاقته، ومنذ مرحلة التأسيس سعى صاحبه إلى جعل النادي مؤسسة ثقافية وطنية مرموقة، ويؤكد كل الذين عرفوه عن قرب أن الجراري كان يتميز بفضيلة العلم والكرم والسخاء، فقد كان بيته ـ كما هو الشأن في مرحلة الامتداد ـ مبسوطا، وناديه مبسوطا، وخزانته مبسوطة، ومائدته مبسوطة.

لقد كان صاحب النادي شديد الحرص على موعد اللقاء من يوم كل جمعة، رغم أسفاره الكثيرة بحكم مهامه التربوية طوال حياته، سواء خلال فترة الحماية، أو بعد الاستقلال إلى آخر جمعة من حياته رحمه الله».[1]

أما موضوعات المنتدى فلم تكن تعرف تحديدا، وإنما استطاعت أن تطل على مختلف أصناف المعرفة الأثيلة منها والحديثة يطبعها روح المساءلة والمناظرة، وتتخللها فترات ملحة ونكتة هادفة للتخفيف من جدة الموضوعات ورتابتها، وهو ما يتضح بالرجوع إلى كتاب (المجالس الأدبية)[2] الذي دون جزءا من حلقات النادي الجراري خلال مرحلة التأسيس. وقد تردد على النادي الجراري شخصيات علمية وتاريخية مختلفة، سواء ممن شكلوا الانتماء إليه بشكل منتظم، أو ممن وفدوا إليه من باقي مدن المملكة، ومن العالم العربي.[3]

ويرتبط النادي الجراري في حياة مؤسسه بمرحلتين :

الأولى : من 1930 إلى 1955 وتمثل فترة الحماية، وهي مرحلة مهمة وقع التركيز فيها على القضايا الوطنية، واستحضار سبل المقاومة والنضال بالدرجة الأولى ومتابعة التطورات التي أملتها الأحداث والأوضاع يومئذ، مع متابعة لمجالات الثقافة المتنوعة التي كانت في مقدمة اهتمامات طلبة المنتدى ومريديه.

الثانية : من 1956 إلى 1981 مرحلة الاستقلال. عرف فيها النادي نشاطا متميزا لأنه استقطب شخصيات من العالم العربي، وهم من العلماء الباحثين الذي قصدوا صاحبه باعتباره يشكل مصدرا معرفيا في الدراسات المغربية الإسلامية وما تمثله خزانة النادي من مصادر ووثائق ومخطوطات وكناشات نادرة، وهي خزانة تؤكد التحصيل الذاتي المتنوع لمؤسس النادي رحمه الله وتعميق آفاقه، ومشاركته الثقافية الواسعة التي أهلته ليصبح أحد رجال الفكر والإطلاع، ويسم ثقافته بالموسوعية والشمولية.

وإن كانت هذه الخزانة، أو كما تعرف بالخزانة العباسية ـ ستعرف توسعا وثراء أكثر حين ضمت إليها محتويات خزانة الدكتور عباس الجراري.

النادي الجراري ومرحلة الامتداد : (1981 ...)

* إن تأثر الدكتور عباس الجراري بمقومات مدرسة والده العلامة عبد الله الجراري ذات الملامح المتميزة في الفكر المغربي الحديث علما وروحا وسلوكا، هي التي أنجبت أبناء بررة التزموا بالبرور والعطاء والوفاء، وهي بالأساس مبادئ ساهمت في امتداد النادي الجراري وسيره على المكارم المرتبطة بالنادي منذ تأسيسه حتى اليوم.

وإذا كانت الأندية/المجالس الأدبية تتوقف أو تنتهي برحيل أصحابها إلى دار البقاء، فإن النادي الجراري لم ينته بوفاة مؤسسه رحمه الله، فبفضل جهود وعناية عميد الأسرة الجرارية الدكتور عباس الذي حرص على امتداده واستمراريته، فإن النادي مازال يستقبل رجال الفكر والأدب والوطنية والمجتمع من أصدقاء المرحوم وتلامذته ومريديه محافظا على أصوله وزمنه ويومه بالشكل الذي كان عليه في حياة مؤسسه، مع إضافات ملموسة عرفها النادي في مرحلة الامتداد، أذكر منها على سبيل المثال تطوير فضاء النادي شكلا ومحتوى، إذ يعرف هذا الفضاء أجنحة متعددة واحد منها يشكل متحفا مستقلا يضم : وثائق مخطوطة نادرة، مجموعة اصطرلاب، ساعات قديمة، أوسمة، أوراق ونقود مالية، أقلام قصبية، طوابع بريدية، مجموعة سبحات نادرة، ألواح، كناشات، تسجيلات قديمة، مصاحف مختلفة...

ومما يثير الانتباه زاوية خصصت لحفيدة مؤسس النادي، الابنة البارة والنجيبة **علا الجراري** رحمها الله التي اختارها الله إلى دار البقاء وهي في بداية عز الشباب،، وهي زاوية تعكس نشاطها الدراسي والعلمي في المرحلة الثانوية والجامعية في المغرب وكندا. وجناح آخر خاص بالشهادات العلمية والإجازات وآخر خاص بصور الأعلام من ملوك الدولة العلوية الشريفة ورجال العلم والوطنية والشعر والسياسة والدبلوماسية والثقافة والبحر والاسر المعروفة، والخرائط القديمة... تشكل معرضا وثائقيا نادراً.

وجناح آخر خاص بالمكتبة العباسية التي تضم مكتبة المرحوم ومكتبة الأستاذ عباس يصعب على الزائر احصاء محتوياتها النفيسة التي تجمع بين المخطوط

والمرقون والمطبوع، تشكل ثروة معرفية متميزة، نتمنى أن يتحقق أمل استاذنا الجليل في أن تتحول إلى مكتبة عامة يقصدها طلبة العلم والباحثين المهتمين، وإن كنت أعلم أن هذا الرجاء يرتبط بمجموعة من المكونات الأساسية المادية منها والمعنوية.

ومن الإضافات التي عرفها النادي في مرحلة الامتداد، تطعيمه بعناصر جديدة خاصة من الشباب والباحثين من الطلبة، وهم جميعهم من تلامذة الدكتور عباس الجراري، الذي يتصدر مجلس النادي ويدير بوعي وتفتح وشفافية حلقاته ومناظراته، في انتظار أن يتحول النادي إلى مؤسسة للبحث العلمي الأكاديمي كما أعلن ذلك الأستاذ العميد في مناسبات متعددة، وإن كنت استطيع التأكيد أن المشروع انطلق حقا سواء في ما يعرف عندي بـ (ندوة عبد الله الجراري) أو (منشورات النادي الجراري) كما سيتضح لنا فيما بعد.

إن تطعيم النادي الجراري بأعضاء جدد لا ينحصر في القاطنين بمدينتي الرباط، وسلا بل يعرف زيارات منتظمة وأخرى موسمية من أعضاء خارج العدوتين، ينتمون إلى مختلف مدن المملكة، وزيارات لشخصيات علمية وأدبية من دول العالم العربي كما يتبين من السرد السريع للأسماء والشخصيات التي حظيت بشرف زيارة النادي الجراري.

- أعضاء النادي الجراري.

- الأسماء والشخصيات التي توافدت على النادي في مرحلة الامتداد :

المصطفى بن المبارك، الحاج عثمان جوريو، الفقيه محمد حكم، محمد المكي الناصري، ومحمد بن عبد الله الروداني، والمعطي غنام، محمد المنوني، محمد بن

الراضي، وعبد اللطيف خالص، وعبد الحق خالص، المختار ولد باه، عبد المالك الصايغ، عبد الواحد الجراري، وامحمد الجراري، ومحمد بن عبد العزيز بنعبد الله، وأبو بكر القادري، وعلال الغازي، ومحمد احميدة، ومصطفى الجوهري، وصالح التادلي، ورشيد بن المبارك، وأحمد شوقي بنبين، وعبد الله اجديرة، وتوفيق بن المبارك، وأحمد عاشور، وقاسم الحسيني، وأحمد الطريسي، وعبد الحق المريني، وعبد المجيد عينية، ومحمد الظريف، وعلي بركاش، ومصطفى بركاش، والتهامي الراجي، وأنس خالص، وسعيد الفاضلي، ومصطفى الشليح، وسعيد الشليح، ومصطفى الزباخ، وعبد العلي الودغيري، وحسن جلاب، وعبد الحق بنطوجة، وبوشتى السكيوي، وعبد العزيز الرضواني، وفاروق حمادة، ومحمد الطوگي، وأحمد شحلان، محمد أكحل العيون، ومحمد علي، وعبد الرحمن الكاظمي، وعبد العزيز الساوري، ومحمد بن الصغير، ومحمد آيت الفران، ومحمد أمين العلوي، وخالد الدادسي، وجمال بنسليمان، وعمر أمرير، وأحمد الطريبق أحمد، والفقيه البودراري، عبد الفتاح بلامين ... والقائمة طويلة[4]

ومن المملكة العربية السعودية : علي القاسمي...

ومن جمهورية مصر : محمد ضمير نصر...

ومن الجماهيرية الليبية : محمد مسعود جبران، علي أبو القاسم عون، صالح عمار، مبارك التريكي، عبد الحميد الهرامة، أبو سعد عبد السلام، عبد الله الصويعي، ابراهيم عبد الله الفراء...

ومن الإمارات العربية المتحدة : الشيخ جمعة الماجد، عبد الرحمن فرفور، احمد براشد، احمد سالم القيشي...

ومن الجمهورية السورية : محمد فاروق النبهان، ومحمد عرق السوسي...

ومن الجمهورية الجزائرية : محمد مرتاض، حجو بلعيد...

ومن اليمن : الشاعر علي بن علي نصر...

إن التحولات التي عرفها النادي الجراري على عهد الدكتور عباس الجراري كثيرة ومتعددة يكفيني منها في هذا البحث التعريفي المتواضع أن أتناول بعضا منها، ومتوقفا عند عنصرين :

الأول : منشورات النادي الجراري

الثاني : النادي الجراري / مجلس الدكتور عباس والإبداع الشعري.

منشورات النادي الجراري :

1) كتاب التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972

كان هذا الكتاب أول استهلال لمنشورات النادي الجراري، وصدر بمناسبة الذكرى الثالثة لمؤسس النادي[5] وهو كتاب يحاول أن يدرس معالم النهضة الثقافية في المغرب من خلال الترجمة لمجموعة من الأسماء التي ساهمت بالكتابة والتأليف في إذكاء النهضة وتطوير أنماط الكتابة في مختلف مجالاتها المتسعة دراسة وإبداعا، بلغت مايناهز مائة وثمانين شخصية من العلماء والأدباء والمؤرخين والمبدعين شعرا ونثرا. ممن عاينهم المرحوم عبد الله الجراري وقرأ مؤلفاتهم من العلماء والشيوخ والشباب على السواء مزاوجا بين الترجمة للمؤلفين، وبين استقراء أعمالهم وإنتاجاتهم، مبرزا قيمتها العلمية والفنية مضمونا وصياغة، تكشف عنايته رحمه الله بالكتب وأصحابها، ومدى الجهد العلمي الكبير الذي بذله في قراءتها وتصنيفها، بهدف المساهمة في استنطاق مكونات الثقافة المغربية الحديثة.[6]

2) ندوة عبد الله الجراري/الحلقة الأولى/كتابة تاريخ العدوتين :[7]

جاء هذا الكتاب ليبسط جانبا من اهتمامات صاحب المنتدى الكثيرة والمتعددة، لعل في طليعتها الكتابة التاريخية عامة، والتأريخ للعدوتين الرباط وسلا خاصة، ولم تنحصر الندوة حول أعماله بل يتبين من أبحاثها أنها كانت أيضا «مجال يتيح التعريف كذلك بالجهود التي بذلها غيره من العلماء المؤرخين في هذا المضمار»[8]. وشارك في موضوعات الندوة السادة الأساتذة : عباس الجراري ومحمد المنوني، وإبراهيم حركات، ومحمد حجي، ومحمد زنيبر (رحمه الله)، عبد الكريم كريم، وسالم الغزالي ومحمد احميدة، وعلال الغازي، وأحمد عاشور، ومصطفى الجوهري، والشاعران : جَ عثمان جوريو ومحمد العلمي (رحمه الله).

3) الثقافة من الهوية إلى الحوار[9] : عباس الجراري

وهو الكتاب الثالث ضمن منشورات النادي الجراري، يدرس الموضوعات التالية :

- مكونات الهوية الثقافية المغربية،
- الثقافة وإشكالية الخصاص والحيرة بين الجنوب والشمال.
- الثقافة الإسلامية ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى ماضيا وحاضرا.
- المهاجرون المغاربة إلى أوروبا الاثنتي عشرة دولة وإشكالية الهوية الثقافية.

فلماذا الهوية ؟ ولماذا الحوار ؟ إن ارتباطهما العفوي يجعلهما «في طليعة ما يشغل المهتمين بمصير الشعوب الساعية إلى النمو في علاقتها بالقوى الكبرى والدول المتقدمة المتطلعة إلى بسط هيمنتها والتفرد بالنفوذ في جميع جوانبه وشتى مظاهره»[10]

ودون أن ندخل في مناقشة تفصيلية لمضامين المحاور السالفة : فإننا نعتبر الكتاب ذا أهمية خاصة في إطار المشروع الفكري الوحدوي للدكتور عباس الجراري، فهو يطرح من حيث التنظير مسألة الهوية الثقافية المغربية في بعدها القومي والإسلامي الذي ينطلق من هاجس الوحدة الفكرية والمذهبية التي تتجاوز البيئة المحلية، لتنفتح على الوحدة العربية الإسلامية والإنسانية بصورة عامة.

4) عبد الله بن العباس الجراري الأديب : مصطفى الجوهري[11]

يتأسس الكتاب من ثلاثة أبواب، وثمانية فصول، ومقدمة وخاتمة. وينصب على دراسة مكونات الشخصية والثقافة والتأليف، والإبداع والكتابة الأدبية.[12]

لقد عرف العلامة عبد الله الجراري بتعدد ملامح شخصيته، إذ لم يكن أديبا فحسب، بل كان علامة ومحدثا مشاركا، وخطيبا إماما ورجلا وطنيا ومؤرخا ومفتيا وأستاذا مربيا، وهو بهذا التعدد يقف إلى جانب الأعلام الذين ساهموا في صنع تاريخ المغرب الحديث.

وهذا الكتاب المتواضع يحاول أن يطرح تصورا خاصا حول شخصية مؤسس النادي الجراري الذي عرف في حياته بالأستاذ المربي، والمؤرخ اللامع، والعلامة الضليع في علوم الفقه، وأن انتاجه الأدبي لا يعرف منه إلا القليل المنشور والمتداول، بينما أبرز أعماله الأدبية والإبداعية ظلت غير معروفة، فكانت هذه الدراسة التي تحاول أن تنفذ إلى عمق تجربته الأدبية عامة، قصد التعمق في قدراته الفنية والأدبية في الإبداع الشعري والتجربة المسرحية، والسيرة الذاتية، والدراسة الأدبية كتابة ونقدا ولغة، ومقالة وبحثا، وهي مجالات تساهم في تقييم معالم أنساق كتاباته، وحاولت تحديد بنيتها الأدبية الملائمة يشكل يتطابق ومشروع

الدراسة، يهدف أن تشكل مرجعية، بل مفتاحا لكل من يريد البحث في مكونات شخصية الأديب عبد الله الجراري وعلامات أدبه وفكره عامة.

5) ندوة عبد الله الجراري/الحلقة الثانية بعنوان : العناية بالقرآن الكريم وعلومه في المغرب(13)

يحاول هذا الكتاب أن يبرز موضوعا علميا مهما يتمثل في مدى عناية المغاربة بالقرآن الكريم وعلومه، من خلال اهتمامات وكتابات صاحب المنتدى، حفظا ورواية ودراسة وتفسيرا وتدريسا وتأليفا ورسما وضبطا وتجويدا ومعجما. و«في هذا المجال القرآني الخصب الغني، والطيب العطر كان والدنا رحمه الله ولمدة تزيد عن نصف قرن يحتل موقعا متميزا بين شيوخه وأقرانه وتلاميذه مرتلا للقرآن الكريم ومدرسا ومؤلفا في فن تجويده، وباحثا في قضاياه ومؤرخا لرجاله، ومحاضرا في تفسيراته ومفتشا لكتاتيبه ومعاهده ومشاركا في لجان معجمه ومصحفه، ومباريات ترتيله وما إلى ذلك» كما يقول الدكتور عباس الجراري، وهو ما تناوله بالدرس صفوة من العلماء والأساتذة الباحثين وهم على التوالي : عباس الجراري محمد المكي الناصري الحاج عثمان جوريو، محمد اشماعو، عبد الكبير البكري، محمد بربيش، محمد المنوني، التهامي الراجي، محمد أبوطالب، عبد الحميد احساين رحمه الله، مصطفى الجوهري، أحمد الزرهوني، محمد العلمي.

Essai de Typologie des petites causes dechec et moyennes (6 entreprises : ola jirari (*)

- كتاب : محاولة تصنيف عوامل فشل المقاولات الصغيرة والمتوسطة(14) :

وهو في الأصل رسالة جامعية تقدمت بها الباحثة رحمها الله لنيل شهادة

(الميتريز) من كلية علوم الإدارة بجامعة (لافال) بكندا. وقد حاول الكتاب أن ينفذ إلى عمق إشكالية فشل المقاولات الصغيرة والمتوسطة، والوقوف علميا واقتصاديا عند أسباب الفشل الحقيقية مجتمعيا وخارجيا، ورغم صعوبة تجسيد عوامل هذا الفشل، والإطار القانوني والعلمي لنوعية هذه المقاولات، فإنه لا يمكن تجاهل مستواها القياسي الذي انتهت إليه خلال السنوات الأخيرة، وقد اعتمدت الباحثة علا الجراري رحمها الله في استقراء هذا النموذج على محاور ثلاث : 1) مادي 2) تجريبي 3) مرحلي.

ومن منظور الباحثة فإن المحور الثاني كان أساسيا في تحديد هذه العوامل، كما تناولت بالتحليل الأسباب الداخلية للمقاولة، وخاصة ما يتصل منها بالتسيير والتدبير بصفة عامة، وبعد انتهائها من هذا التصنيف عمدت إلى إثارة العوامل الخارجية مركزة على البيئية منها، وعلي بعض المجموعات الاقتصادية الجمعية .Macro Economiques

7) كتاب : مع المعاصرين أسماء وآثار في الذاكرة والقلب : عباس الجراري [15].

ويضم الكتاب مبحثين/قسمين كبيرين، ويقدم في المبحث الأول الذي عنونه بـ (تقدير وتكريم) عروضا تتصل بمجموعة من الأعلام والشخصيات العلمية والأدبية والوطنية والتاريخية والطبية في المغرب والمشرق، كان المؤلف قد أعدها في مناسبات علمية مختلفة خصصها للأسماء التالية : أمين نخلة، ومحمد المكي الناصري، وعلي الصقلي، ومحمد الكتاني، وعبد الهادي بوطالب، وأحمد بن يحيى بنسودة، وعبد الله كنون، وأبو بكر القادري، وعبد الله العروي، وناصر الدين الأسد، وعبد اللطيف بربيش. أما المبحث الثاني/القسم الثاني : فقد تناول فيه

الأسماء التي فارقت الحياة كأبي شعيب الدكالي، ومولاي مبارك، وإبراهيم رضا الله الإلغي، والحاج محمد أبا حنيني، والرحالي الفاروقي، وعمر بهاء الدين الأميري، ومحمد الفاسي، وعبد السلام جبران المسفيوي، ومحمد عبد الله الروداني، وتوفيق يوسف عواد، ومولاي الطيب المريني، ومحمد المكي الناصري.

إن الأسماء المدروسة جميعها تمثل بالنسبة للدكتور عباس الجراري إما علاقة (صداقة أو أواصر فكرية) أما إذا جازلنا أن نتحدث عن منهج الكتابة المعتمد في الكتاب، فإننا نجده قد عمد إلى اختيار التعبير العاطفي والتحرير العلمي، وفق ما يقتضيه الحال ـ مضمونا وأسلوبا ـ وكذا وفق ما تعكسه شخصية المكرم أو المؤبن»(*) كما جاء في مقدمة الكتاب.

ورغم الصعوبات التي تطرحها نوعية هذه الكتابة، وخاصة حين يتعلق الأمر بالأسماء المعاصرة لا يتسنى منهج الكتابة فيها إلا للقليلين الذين يمتلكون حسا وطنيا وعلميا وأخلاقيا خاصا، مما يجعل من الكتاب إضافة جديدة للدراسات المغربية المعاصرة.

8) كتاب خطاب المنهج : عباس الجراري[16]

كان هذا الكتاب في طبعته الأولى* التي لم تظهر في المكتبات لأسباب غير معروفة ترتبط بالناشر أساسا، يضم محاور خمسة، أما في طبعته الجديدة فقد أضاف إليها الأستاذ عباس الجراري محورين جاءت على الشكل التالي :

ـ واقع الفكر العربي الإسلامي بين اشكالية المعرفة والمنهج

ـ روح المنهج العلمي في الإسلام.

ـ هل البحث العلمي يؤثر في التنمية.. وكيف ؟

ـ الأدب المغربي في الدراسة والتدريس (تجربة منهجية).

ـ الدراسات المغربية بين الموضوع والمنهاج (واقع وآفاق)

ـ في رحاب أكاديمية المملكة.

ـ أدب الغرب الإسلامي والتكريم.

ثم ملحق بالأطروحات والرسائل التي أشرف عليها الدكتور عباس الجراري.

ـ إن هذا الكتاب يشكل علامة متميزة في حقل الدراسات النقدية المرتبطة بالمناهج، تساعد الباحثين في استقراء معطيات وأدوات علمية من خلال معايير محددة ومدروسة بدقة، تكشف من جانب تجربة الأستاذ عباس الجراري في مجال البحث العلمي الأكاديمي عامة، والدراسات المغربية بصفة خاصة، وتنطلق هذه التجربة من منظور ذاتي يجمع بين ماهو معرفي، وما هو منهجي، وهذه الازدواجية إن عرضت «مفصولة عن السياق المعرفي ومجموع مكونات الذات، وحوافز الإبداع، يجعل التناول مبتورا لا يفضي إلى رؤية صحيحة ومتكاملة تبلور حقيقة المنهج، وتتيح التحكم فيه بحل اشكاليته...» على حد تعبير الأستاذ عباس الجراري.

9) كتاب : صبابة أندلسية : عباس الجراري :[17]

يضم هذا الكتاب مقدمة وستة مباحث تحمل العناوين التالية :

- قضايا مرابطية من منظور بعض المستشرقين.

- تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين.

- ظاهرة التسامح الديني في عهد الطوائف كما يصورها الشعر.

ـ أهمية الموسيقى والغناء في حضارة الأندلس.

ـ البرتغال بصمات تاريخ مشترك.

ـ المرابطون : الدولة ـ المذهب ـ المنجزات ـ باللغة الفرنسية.

إن هذا الكتاب بالنسبة لي يحمل أكثر من دلالة، وليساهم في انعاش البحث والدراسة في أدب المغرب والأندلس عهد الدولة المرابطية، وليكشف من جانب آخر الهاجس القومي الحق للكاتب وهو ينشغل بتصحيح بعض القضايا والظواهر المرتبطة بالدولة المرابطية فكرا ومذهبا وأعلاما وقيادة، بحس نقدي متميز إلى درجة الانفعال والانصهار والاعتزاز بكل ماهو مغربي وطني تراثي، ودحض كل من يحاول التنقيص أو المس بالمشاعر الحقة التي تدعم مكونات الوحدة المذهبية والفكرية بالمغرب قديمها وحديثها.

ولعل الدلالة الكبرى للكتاب، والتي تفك رموز كثير من الأسئلة يتجلى في تقديم هذه (الصبابة)[18] إلى روح يوسف بن تاشفين، اعترافا بالدور العظيم الذي قام به في الغرب الإسلامي، واعرابا عن التجاوب الذي لي مع شخصيته الإنسانية والقيادية وما أكنه له من تقدير كبير، ثم انصافا له من الحيف الذي تعرض له اسمه على امتداد التاريخ ومازال يتعرض له كلما ذكر أو ذكرت دولة المرابطين، لاسيما حين يثار اتجاهها الفقهي ودورها في الأندلس وماكان لابن تاشفين مع أمراء الطوائف وابن عباد على الخصوص»[19] كما جاء في مقدمة الدكتور عباس الجراري.

10) كتاب : المسؤولية في الإسلام : عباس الجراري[20]

هذا الكتاب يلقي الضوء على جوانب هامة من موضوع المسؤولية من المنظور الإسلامي، انطلاقا من الحديث النبوي الشريف (ألا كلكم را ع وكلكم مسؤول عن

رعيته...) مع الوقوف عند بعض الانحرافات التي تفشت بشكل يلفت النظر في المجتمع المعاصر، كما يتضح من محاور الكتاب :

حديث المسؤولية رواية وشرحا ـ المسؤولية عامة وخاصة ـ الأمانة ـ الشورى ـ النصيحة ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كيفية تغيير المنكر ـ الاقتصار على هداية النفس ـ تغيير الواقع ـ الاصلاح في سياق التنافس والتناوب والمحاسبة ـ السعي في المسؤولية ـ الرشوة ـ الظلم ـ الاستقامة ـ التقوى ـ القدوة.

والكتاب في الأصل درس حسني، القي في شهر رمضان المعظم بحضرة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يوم الجمعة 12 رمضان 1416 هـ الموافق 2 فبراير 1996. وأثناء إعداده للطبع أغناه المؤلف بكثير من الإضافات التفصيلية الهامة محافظا على روح الدرس الحسني وهيكله ومختلف مباحثه وصيغ خطابه.

*** مجلس الدكتور عباس الجراري :**

إذا كان النادي الجراري يعرف لدى المنتمين إليه ببعض الثوابت التي سطرها مؤسس النادي رحمه الله، فإنه عرف في مرحلة الامتداد مجموعة من التحولات على يد الأستاذ العميد. الذي عرف بحكمته وسعة صدره، وتنوع مشارب ثقافته كيف يحافظ على هذا الرصيد الثقافي الهام وما يريده أن يسم به النادي في مرحلته الجديدة لينطبع بملامح شخصيته التي وإن كانت ـ كما أشرنا ـ تحمل سمات مدرسة والده رحمه الله، فإنها لاشك انفردت بملامح خاصة، انعكست على حلقات النادي المنتظمة، وأعطته بعدا آخر، وزادته إلى جانب مسؤولياته المتعددة،

مسؤولية الاشراف على النادي وإدارة حلقاته المنتظمة، التي تتيمز بروح المساءلة والمناظرة والاستفسار والتحليل والاستنتاج، والرأي العلمي الهادف، وتستحضر المشاركة المتزنة والتواضع، بل أخلاق العلماء الرفيعة، مع إفساح المجال لكل من رغب في المساءلة والمداخلة، وإبداء الرأي، يعكس هيبة المجلس الذي يزدان بنخبة من العلماء والأدباء والشعراء والباحثين الذين يجتمعون حبا في الله والعلم والوطن، واعترافا بصنيع العلماء ودورهم في اثراء الفكر ومكونات الثقافة، واخلاصا للعلامة المؤسس الذي نعتبر منتداه الأسبوعي مؤسسة ثقافية جامعية هادفة تجمع بين فضيلة العطاء الفكري ، وفضيلة الكرم الحاتمي وهذا الأمر ليس غريبا ـ عندي ـ فقد كان بيت النادي في عهد التأسيس[21] مفتوحا ومائدته مبسوطة، كذلك الشأن في عهد الامتداد، فبيت الدكتور عباس الجراري مازال مفتوحا ومائدته مبسوطة، كذلك، والحق أن البيت، بيت علم وبرور وكرم ووفاء.

ولعل أبرز مظاهرالنادي الجراري أيام مؤسسه رحمه الله هو عنايته بكل أشكال الثقافة، لكن العناية بفن المطارحات كان يتصدر جلسات النادي، وكانت هذه المطارحات في الشعر كما في النشر، وهو ما يعرف بفن المساجلات الشعرية والنثرية، وهذه الظاهرة سوف تستمر خلال مرحلة الامتداد على عهد الدكتور عباس الجراري ـ سواء من حيث تنوع وتعدد قضايا الفكر والثقافة المطروحة لاستقراء الرأي والمعالجة، أو الشعر الذي يشكل طليعة القضايا ابداعا ونقدا، وإن كان الإبداع الشعري يأتي في المقدمة كما سنرى فيما بعد.

فلماذا العناية بالشعر في النادي خلال مرحلة الامتداد ؟

إن الجواب على هذا السؤال يكتسي مشروعيته من بعض الثوابت التي عرفها النادي منذ مرحلة التأسيس، فليس الشعر أرقى فنون التعبير فحسب، كما أنه

ليس مجال لاستكمال الثقافة لدى العلماء والفقهاء كما كان سائدا، بل هو من جانب آخر يمثل طليعة العناصر المفجرة لمخزون الذات، والتعبير في صفاء ونقاء، ومجال للمناقشة الفنية الرائقة بين أعضاء المنتدى، بل أكثر من ذلك دافع أساسي للإبداع، وتعاطي هذا الفن، ولعل هذا الرأي ينسحب أيضا على موقع الشعر في مرحلة امتداد النادي، مما يدفعنا إلى استقراء بعض الملحوظات الأولية نلخصها فيما يلي :

ـ إن مؤسس النادي لم يعرف كشاعر إلا من خلال ناديه الأدبي، حيث أكدت النصوص التي بين أيدينا على شاعرية ممتازة[22] إلى جانب مجموعة من الشعراء الذين أثروا قصيدة المساجلة في الشعر المغربي.

ـ أما مرحلة الامتداد فقد كشفت بدورها عن شاعرية الأستاذ العميد الدكتور عباس الذي لا يعرف كشاعر إلا لدى القليلين، فقد سبق له أن تعاطى التجربة الشعرية من خلال القصيدة الحرة، ونشر بعضها أوائل الستينات في مجلة "دعوة الحق"، ولكنه سرعان ما تخلى عن الشعر لانشغاله بالدرس الأدبي والنقدي والدرس الإسلامي وبالبحث الأكاديمي، فانصرف عن الشعر مؤقتا، ليعود إليه من جديد ضمن حلقات النادي الجراري متخليا هذه المرة عن قصيدة الشعر الحر، إلى القصيدة العمودية المحافظة، وإن كنت فيما حسب أن هذه العودة تحكمت فيها أجواء الشعر والشعراء الذين ينتمون إلى المنتدى.

ـ لعب النادي الجراري في مرحلة الامتداد دورا مهما في بعث الشعر، خاصة وأن بعض الشعراء سكتوا عن الشعر مدة طويلة وربما الظروف بعضها يرجع للإنشغال بالمهام الإدارية، وأخرى لانعدام مناخ ملائم لبعث الشاعرية، ويتعلق

الأمر بالشعراء الحاج عثمان جوريو، ومحمد حكم، ومحمد بن الراضي وعبد اللطيف خالص.. ولعل الموضوعية العلمية تقتضي منا الإشارة إلى أن الشاعر محمد بن الراضي يعتبر أبرز شعراء النادي وقطبه البارز نشاطا وانتاجا وإبداعا، بل هو (الشاعر النجم) كما يسميه الدكتور عباس الجراري.

ـ كشف النادي الجراري عن شعراء جدد اثبتوا باعهم الطويل في الفن، وعن قدرات شعرية لا تتوفر إلا لدى كبار الشعراء، وأقصد الدكتور علال الغازي والدكتور المختار ولد أباه، فرغم عناية، كل منهما بالدراسات الأدبية والنقدية واللغوية والإسلامية فإن ما نظماه من شعر في النادي يؤكد ما نذهب إليه.

ـ انضم إلى النادي في مرحلته الجديدة بعض الشعراء الشباب، وفي طليعتهم الدكتور مصطفى الشليح الشاعر المتمكن الذي يجمع بين القصيدة الحرة والكلاسيكية.

النادي الجراري والإبداع الشعري :

إن جلسات النادي على عهد الدكتور عباس الجراري كثيرة ومتعددة، ومهما حاولت أن ألم بما راج فيها ويروج من قضايا وموضوعات وإبداع شعري ونثري (خاصة المقامة) فإنني أجدني عاجزا على ذلك لأسباب لا تخفى على الباحث النبيه، مما يطرح بإلحاح مقترح رئيس النادي باختيار الأستاذ محمد بن الراضي كاتبا عاما للنادي بهدف تحقيق التوثيق العلمي للمجلس... وقد أحسن الأستاذ الرئيس في جمع بعض النصوص ـ وخاصة في الإبداع الشعري ـ تشكل كتابا ضخما على غرار كتاب (المجالس الأدبية) لمؤسسه رحمه الله.

وأمام هذه الصعوبة فإنني سأحاول التعريف ببعض النشاط الشعري الذي عرفه مجلس الدكتور عباس الجراري، قصد استحضار الأجواء العامة للإبداع في إطارها الإخواني، والفني المتقد حيوية وانفعالا وتفاعلا والتزاما بخصوصيات المجلس/النادي في مرحلته الجديدة.

ومن بين النماذج الأولية مقامة رفيعة للأديب الشاعر محمد بن الراضي بعنوان (المقامة الأنسية أو نقل أديب في أمسية)[23] لخص فيها ما يجري في النادي الجراري

وتضمنت مجموعة من الرموز والإشارات والتلميحات اللطيفة تتصل بكتب التراث والأمثال والحكم وأسماء الشعراء مع التركيز على رئيس النادي الدكتور عباس، وبقية الأعضاء الذين يرتادونه، ختمها ببعض الشعر، يقول فيها :

«حدث الحارث بن همام قال : بينما أنا أتجول في بعض أرياض المغرب الأقصى، حيث بدائع البدائه لا تستقصى، وقائد العقبان، في نحور الحسان، لا تعد ولا تحصى، وحيث نزهة الخاطر، في كل ربع يجتازه السائر، إذا بصوت رخيم فريد كأنه صوت وحيد، تضطرب ذبذباته في الفضاء يتغنى بهذا البيت :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فاتجهت صوبه لا تعرف على صاحبه...

أفلح ورب الكعبة من ملأ بأفاريق العلم قعبه وأحيا بلطائف المعرفة قلبه، وقوى بوجور الأدب صلبه وقضى في عرائس مجالس الفكر إربه، ورشف بعدما نهل وعب رحيق الثقافة العذب، وانتجع في يوم الجمعة غير هياب ولا إمعة، مغنى بشاطئ «هرهورة» فضائله مشهورة، في قلوب المعجبين مسطورة، غير مستورة إذ فيه

أخصبت الثقافة، فلم تعد تشكو عوزا ولا فاقة، والفضل في ذلك - بعد الله - لرب المغني وأصحابه، الحزمة المهرة، فقد ظلوا أوفياء للعلم وطلابه، حفواء بهم بررة...».

وفي إطار الصحوة الشعرية، وإثراء القصيد، بين شعراء النادي يقول الأستاذ الشاعر محمد بن الراضي من قصيد طويل بعنوان : «دليل المنخرط» في النادي الجراري لخصها في شروط أربعة :

«وإن ترد ترتيب» الانخراط	في منتدى فطاحل الرباط
من جعلوا العلم لهم شعارا	وتخذوا الشعر لهم دثارا
فسر إلى هرهورة الأعيان	ولتلبسن ما شئت من تبان
فالفصل قيظ ومن الإباحة	الغطس في البحر مع السباحة
ولتمتثل لما أقول «واسمعا	بيانه والذهن منه استجمعا

* * *

فصل شروط الانتماء أربعة	«وهي للسالك سبل المنفعة»
تبحر في العلم والآداب	مع ذكاء خارق عجاب
وترك ساس ويسوس أولا	كي لا يضيع وقتنا سبهللا
دعابة تنم عن خفة دم	في غير إكثار يعاب أو يذم
فهذه هي الشروط الواجبة	إذ ما تكن تجل لنا مواهبه[24]

إن هذا القصيد الطويل أثار شاعرية الأستاذ المربي الشاعر الحاج عثمان جوريو بإبداع قصيدة طويلة أيضا أسماها «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها» وهي قصيدة «ستبقى زينة الناظر، ومتعة الخاطر بمجلس اخوان الصفا وخلان الوفا» استهلها بتوجيه الخطاب إلى الشاعر محمد بن الراضي قائلا :

إلى الكريم وأديب العصر ... وبلبل شدا بكل مصر
وجامع الظرف الشريف الراضي ... وملهم في حاضر وماضي
وشاعر الإبداع والجمال ... ونافث من سحره الحلال

وواجد متيم ولهان

إلى أن يقول في حق النادي الجراري :

وحدثت عن جيرتي وأهلي ... واخوة بهم تضام شملي
ورفقة تفيأت هرهورة ... وضفة أنسامها موفورة
بمنتدى العلامة الجراري ... وكوكب بدا لكل ساري

ومنهل ومورد الظمآن

يرعاه في نباهة عباس ... وحوله أماثل أكياس
بما تجدد من المعارف ... وما تناثر من اللطائف
وينهل الوارد من إنعامه ... وما أفاض من ندى أقلامه

موشحا قلائد العقيان(25)

إن القصيدة تستحضر بعض العناصر المكونة للنادي، ورئيس مجلسه الدكتور عباس، كما تتحدث عن أعضائه البارزين من الشيوخ والشباب الذين يثرون بحضورهم والتزامهم ومساهماتهم حلقاته العلمية والأدبية.

وصادف أن تخلف عن حضور إحدى جلسات النادي الفقيه الشاعر الأستاذ محمد حكم ليوم الجمعة 17 ذي الحجة 1412 هـ الموافق 19 يونيو 1992 بسبب حضور وليمة أقيمت بمناسبة عودة بعض الحجاج، فنظم الشاعر محمد بن الراضي نيابة عن المتغيب قصيدة بعنوان : (اعتذار وجيه على لسان أخ وجيه) جاء في بعض أبياتها :

عابوا علي وليتهم ما عابوا ... أو هكذا يتعامل الأحباب ؟
عابوا علي تخلفي في جمعة ... من قبل أن تتمحص الأسباب
فليعلموا إن هم أرادوا صحبتي ... ومودتي أن الأسود غضاب

إن زمـــجـــزت يومـــا فـــإن زئيـــرها ستــذيعــه ـ حــتــمـا ـ ربى وهضاب
وليـــعلمـــوا أن الوفـــا لـي شــيـــمـــة وجـــــــــوانـح وجـــــــــوارح وإهاب
مـــا آدني أن انتـــمي لجـــمـــاعـــة قـــيـــدومــــهـــا بشـــبـــابه وثاب
وأنا الذي مــذ كنت في عــز الصــبـا لي في الجـمـاعـة إخـوة وصـحـاب(26)

والحق أن الشاعر محمد بن الراضي كان يهدف إلى استدراج الفقيه محمد حكم لقول الشعر، وتنشيط الصحوة الشعرية التي عرفها المنتدى، لكن الأستاذ حكم كما يبدو، لم يستجب للنداء ولم يجب على القصيدة ـ إلى غاية اليوم ـ لكن الاستدراج الذي هدف إليه الشاعر جاء هذه المرة من رئيس النادي الدكتور عباس الجراري الذي عقب على القصيدة بأخرى اختار لها عنوان : (تذكير وتحذير)، والخطاب موجه إلى الفقيه حكم :

مـرحى لعشـاق السـجـال فـذا الكتـاب وهـذا الشـــعـــر حلوا والعـــتـــاب
وافـى مـن إبداع الرضـي مـــحـــمـــد وابــن الــرضـــي فــنــعــم ذاك خــطــاب
قــد جـــا يعـــبـــر عن كـــوامن أنفس لم يسلهـــا أن للحـــبـــيب غـــيـــاب
نحـن الآلى عـــبنا عليك تـخلفـــا والفكر هـام ومـــا لديك جـــواب
هل قـــد رضـــيت الصـــمـت خلت بأنه يطفي ويشـــفي والفـــؤاد عـــذاب ؟
أم أنك «الحكم» التـــرجى مـــحـــبـــتـــه إذ أنت ســال «الخــصــوم» غضـــاب ؟
لم تـدر أنــهـم عــلـى ديـن الـهــــــوى فــعـــدلت عنهم و«الهـــوى غـــلاب»(27)

إن اسهام الشاعر محمد بن الراضي في تنشيط حلقات النادي من حيث الكتابة والإبداع الشعري، يشكل طليعة الاعضاء الذين لعبوا دور (الصحوة الشعرية) إثراء وانتاجا، استحق لقب (نجم الموسم) كما لقبه عميد النادي الدكتور عباس الجراري من خلال قصيد يحمل نفس العنوان يقول في بعض ابياته :

قوموا اهـتفـوا أحـيوا الأديب مـحـمـدا نجل الـرضـي لمـا أفـــــاد وأنشـــــدا
بالشـعـــر بالنثـر الجـمـيل يصــوغــه أحـــيـــا الندي مـــحـــركـــا ومـــجـــددا
هذي القـصـــائد قـــد تناثر فــوحــهـــا عــبق الرحـاب بهـا مـجـيـدا فنجـدا

إلى أن يقول :

قد كنت دومـــا فـي الرباط منارة   والنجم في أفق الســمــاء توقــد[28]

والحق أن الشاعر محمد بن الراضي يستحق أكثر من ذلك، لما قدمه ليس في النادي الجراري فحسب، بل لما قدمه ـ ومازال ـ في مجال الوطنية والكتابة في صمت ونكران ذات.

ومن الصدف الممتازة، بعد أن انتهى الأستاذ العميد من قراءة قصيدة (نجم الموسم) أخرج الشاعر محمد بن الراضي قصيدة حملها إلى النادي بعنوان : (تحية وتقدير لهذه الصحوة الشعرية) أقتبس منها هذه الأبيات :

غــــدت هرهورة النادي عكاظا   بحـــمـــد الله تكتظ اكــتظاظا
وسوق الشعر قد نفقت كثيرا   وبعـــــد هزاله احلولى وباظا
دجاجته حسبناها أقفت   وغاض معينها، والشعر فاظا
هنيئا للذي قد قال شعرا   ونفس عند كربته كظاظا
فبالشعر الرقيق يرق طبع   وترقى أنفس كانت فظاظا
وطوبى للألى بالشعر رقت   مشاعرهم وما كانت غلاظا
نوى شعرا ولكن جاء سحرا   كأن لكل قافية لحاظا[29]

وبعد استراحة موسمية لجلسات النادي، حمل الشاعر محمد بن الراضي جوابا لقصيدة (نجم الموسم) السابقة، قصيدة عنونها : استشراف العالم العلوي على هامش «نجم الموسم» يقول في مطلعها :

من أفق نادي العلا والفضل والقيم   ومجلس العلم والآداب والحكم
نجم بدا لذرى الجوزاء وجهته   سرى مشعا ليرقى شامخ القمم
وقد تأبط كتبا كلها درر   تكاد من ومضها تجلو دجى الظلم
مؤهلا من لدن إخوانه كرما   منهم، ولطفا وتشجيعا لملتزم
ظنوا القليل الذي خطت أنامله   من خير ما جاء عن عرب وعن عجم
وأن ابداعه في ظل موسمه   بالأنجم الزهر أحرى منه بالنسم[30]

وحدث أن تغيب عن النادي الشاعر الاستاذ المختار ولد أباه إثر سفره إلى موريطانيا، فوت عليه أيضا حضورالندوة العلمية التي نظمتها كلية اللغة العربية بمدينة مراكش[31] تكريما للأستاذ العميد الدكتور عباس الجراري، مما دفع بالشاعر محمد بن الراضي برفع سؤال إلى رئيس النادي قائلا :

إذا المختار عن حفل كهذا تقاعس دونما سبب وجيه
فمن للود يرجى بعد هذا وحفرته من النادي الوجيه[32]

وأثناء عودته وحضوره إلى النادي أحضر الأستاذ المختار قصيدة جوابية بدون سابق علم بسؤال الأستاذ ابن الراضي وما كان يرمي إليه. فيقول :

جمعات مضت بدون حضوري خلت أيامها كطول الشهور
هاكم العذر من صديق وفي عقد العهد عنده كالنذور
سفر عارض وبعض أمور منعتني من ضبط بعض أمور
هل عقدتم مجالس الأنس بعدي وتعاطيتم كؤوس السرور[33]

لقد عرف مجلس النادي الجراري اشراقات أخوية متعددة صورت حالات مختلفة تكشف مكونات الرقة والصفاء والتواصل بين أعضائه. ولعل أبرز نموذج يمثل جانبا من هذه الشذرات الحميمية مقامة الدكتور مصطفى الشليح التي أنعشت المجلس، وحركت القرائح للكتابة والمساجلة والاستمتاع جمعات وجمعات، بما أثارته من مناقشة وردود متفتحة يقظة تترجم بحق روح المطارحة الهادفة.

جاءت مقامة الدكتور الشليح بعنوان «مقامة الاغتباط بذكر ما جرى بين سلا والرباط»[34] تجمع بين إبداع النثر وإبداع الشعر، تستحضر أجواء النادي، وما يجمع بين العدوتين من قواسم تاريخية وثقافية وحضارية باذخة، وإن كان الأستاذ مصطفى يبدو مسكونا بمدينة سلا وشعرائها، ومنتفضا ليركب درب كل جواب

ومساجلة، ويبدو ذلك جليا أثناء حديثه عن شاعر العدوتين محمد بوجندار الذي حاول تجريده ـ بلطف ـ من الإمارة والزعامة باعتبار سلا (تصدح أكثر من علامة)، ومع ذلك «فأبوجندار شأوه سامق المقدار، وشأنه خافق معطار، شاعر دون مدافع، وناثر من غير مقارع» كما يقول هو نفسه.

ورغم قوله بأن :

العدوتان خباء لي يطرزه فتيان قافية بالأنجم الغر

فسلا هي العز والفخر والقلب :

لكنني قد أمد الظل من وله على سلا حيث يرسو مركب الفخر
قد صرت منها جمالا عز مطلبا وليس يدركه من عزه غيري

وكان أول المساجلين لهذه المقامة الدكتور عباس الجراري الذي فضل أن يكون جوابه قصيدة طويلة يقول في بعض أبياتها :

مهلا أيا مصطفى تلقي مساءلة لربة الشعر عن إبداعها الدري
هل نبعه في رباط الفتح أم بسلا ؟ وهل بروضهما من أنجم زهر ؟
إني ـ على العلم ـ لا أبغي مفاضلة ولا استباقا إلى الميدان إذ أدري
أن الشعور بما يوحيه دافقه في الضفتين غدا رقراقه يسري
لا أبتغي ذكر فرسان لنا رحلوا بالعدوتين عدوا في المد والجزر
وأنت يا شاعر السلوان هل تدري بأن صوغك للإبداع لي يغري
وفي مقامتك الغراء لي أمل أن تنهض الهمم الأخرى بنا السحر

إلى أن يقول :

هذا الذي قد أراد الوالد المرتضى إذا أنشأ النادي المحفوظ بالذكر
قد كان يرجو لأهل الفتح ثم سلا كل الوئام الذي أبداه في النضر(35)

ومن الذين ساجلوا مقامة الدكتور مصطفى الشليح الأستاذ الأخ محمد احميدة بمقامة رفيعة المستوى جدلا وأسلوبا تطفح بصدق المودة والشفافية الموحية، اختار لها عنوان (من وحي «الرياض» في الذود عن الحياض»[36]، يقول مخاطبا الدكتور الشليح «يا أيها المصطفى الميمون طائره، الصقع كله عزة أنساب ومنزل أحباب، والعدوتان استولتا على الدهر فتى، إنسان الرباط فيها ذكر، وإنسان سلا امرأة وماضر، فالحياة بدونهما معا هدر.

وكنت قد قلت يا صاح «الشعر في سلا لايدركه البلى» وسردت من أعلامه ما به الشأن علا، غير أن البدر لم يستكمل استدارة، ولأعلام الرباط تجب الإشارة، وبهم يكون معنى للإمارة». وبعد ذكر ثلة من الإعلام الشعراء ينتقل للحديث عن أبي جندار انطلاقا من شهادة الدكتور مصطفى الشليح، وهي شهادة «تؤكد أن الرباطي وسط القلادة، بالأمس بايعه خلان سلا، واعترافك اليوم جلا ما حلا... ومن ذا الذي لا يسمو وقد سمي للرباط أديبا، فيعنو الكل له طائعا مجيبا، خصما كان أو حبيبا ولا تحسبن الأمر غريبا، فما حق إنزال أبي جندار عن صهوة الأدب، وقد استحكمت رجله في الركاب...»

ويختم المقامة بقوله : «ليس الفخر أن تكون سلويا أو رباطيا، وقد جمع الود بيننا والتصافيا بل الفخر أن تنشد دوما بيتا غاليا، وأنت تيمم بيتا عاليا، من سلا المحروسة إلى رياض قطوفها دانية :

كفى بك فخرا أن تكون جراريا　　«ومن قصد البحر استقل السواقيا»

أما الأستاذ الشاعر محمد ابن الراضي ففضل أن يكون جوابه مقطوعة شعرية عنونها بـ (سلاف النهر ورضاب الثغر) مطلعها :

هفـــا قلبي لكلتـــا الـعـــدوتين كـــمـــزواج يـحب الـزوجـــتين
يـهـــيم بـهـــذه وبتلك بـهـــرا على أمل التـــمـــتع باثنتين[37]

ومن المناسبات التي حركت المطارحة بين أعضاء النادي البحث القيم والجامع المانع الذي ألقاه الدكتور عباس الجراري في مهرجان الشعر بمدينة فاس تحدث فيه عن الشعر والنقد ومدينة فاس العامرة وفصل الربيع المزهر[38].

هذا البحث كان أثار نقاشا في إحدى جلسات النادي، دفع الدكتور المختار ولد أباه ليرد على الأستاذ العميد ببحث يجمع بين النثر والقصيد ففي منظوره أن بحث الدكتور عباس «أثار نوعا من التساؤل والتعليق، فلم يرض الشتاء أن لا يلتفت إليه، أو أن يفضل أي فصل عليه، ولم يرق للنثر أن يحل دون رتبة الشعر، واعتبر رباط الفتح، عدم ذكره نوعا من القدح، ثم لاحظ أحد الحاضرين أن النقد ليس إلا ضربا من التمارض...». أما الحديث عن الرباط فجاء الخطاب حوله شعرا:

عـمـيـد النادي اهديك التـحـايا عـتـابا والعـتـاب من الهـدايا
سـمـعـتك إذ تفـيض بفـضل فـاس وفـاس قـد عـرفت لهـا المزايا
ولـكـني الـربـاط ربـاط فـــتـح أنا فـــخـــر المدائن في البـــرايا
أنا تاج الحـــواضـــر والضـــواحي أنا ابـن جـــلا وطـلاع الثـنـايا[39]

هذا العتاب الأخوي والودي والموجه للأستاذ العميد، حرك شاعرية الدكتور علال الغازي الذي تكفل بالدفاع عن صاحب المنتدى وبحثه، في قصيد طويل يتجاوز مائتين وأربعين بيتا، اختار لها عنوان (أصوات للوفاء) وجعلها ستة أصوات، وهي ترد على ما أثاره الدكتور المختار :

* الصوت الأول مطلعه :

وتصحو فاس فوق فمي هواها   نشيد منه قد غار الغناء

* الصوت الثاني مطلعه :

أمختار القصيد همست مدحا   عميد لا يعاتب بالصراط

* الصوت الثالث مطلعه :

فهل للفجر غير فتى رباط   يؤلف أو يحاضر لا يضاهى

* الصوت الرابع مطلعه :

متى ما فهت أخرصت القوافي   بشعر رصع الأوزان حولا

* الصوت الخامس مطلعه :

تدين النقد يا مختار ظلما   وتحقره وكنت به لبيدا

ـ الصوت السادس مطلعه :

سلو فاسا وقد لبست حلاها   عن الأيام كيف حلا النشيد

إن هذه القصيدة الملحمة التي فجرت شاعرية الأستاذ علال في أسلوب رقيق، رغم ما يمكن ملاحظته من طابع الانفعال الودي والمحبب في هذا المقام، لأن الأمر يتعلق بالأستاذ العميد (فيا عباس عنكم لن أحيدا).

وبمدينة فاس (مربد الشعراء) وبالرباط فضاء (الفجر والسمو)، وبالنقد باعتباره (محور الإبداع ومعالجة البحث والاعجاز)، أما الربيع (فباقي فصوله نحو انحطاط).

ولعل من تتاح له قراءة القصيدة سيقف على روح المساجلة، للشاعر، الصوت الوفي الذي يستلهم مختلف الطروحات والموضوعات، ويكتشف شاعرية فذة، رغم

اشتغال صاحبها بالدرس النقدي، تتمتع بحس جمالي مرهف، ونفس شعري طويل لا يتمثله إلا كبار الشعراء، وعندي أن قصيدة الأستاذ علال الغازي (أصوات الوفاء)[40] يمكن اعتبارها أطول قصيدة عرفها النادي الجراري سواء في مرحلة تأسيس النادي أو خلال مرحلة الامتداد، بعد أن كانت قصيدة الشاعر الحسن البونعماني هي التي تنسحب عليها هذه الخاصية (تقترب من مائة بيت).

وبعد :

ـ هذه بعض الشذرات والإشارات الخفيفة التي تعكس جانبا من أنشطة النادي الجراري الذي عرف تحولا ملحوظا، على عهد الأستاذ العميد، الذي سعى إلى تحقيق الامتداد والاستمرار من مجالات متعددة، أبرزها الاهتمام بموضوع الطباعة والنشر رغم الصعوبات التي تميز هذا الباب لا يدركها إلا من عاش التجربة. والثاني العناية الخاصة بجلسات النادي وحلقاته، التي تتميز كما أشرنا بروح الوفاء العالية والمطارحة الهادفة، مع عناية خاصة بالإبداع الشعري، وما تجمع لدينا بشكل ديونا مستقلا نتنمنى أن يهيئ الله لنا الظروف الملائمة لدراسته مستقبلا.

* * *

الهوامش :

1 ـ أنظر كتاب عبد الله بن العباس الجراري الأديب تأليف مصطفى الجوهري ص 66 وما بعدها.

2 ـ قامت بتحقيقه الأستاذة نواير عائشة رحمها الله.

3 ـ انظر بعض هذه الاسماء في كتاب : العالم المجاهد ص 88 وعبد الله بن العباس الجراري الأديب ص 70.

4 ـ اعتذر لكل الأخوة الذين لم أذكر أسماءهم.

5 ـ مكتبة المعارف الرباط 1985

6 ـ انظر كتاب عبد الله بن العباس الجراري الأديب : مصطفى الجوهري ص 251 وما بعدها.
7 ـ انعقدت يوم السبت 17 ربيع الثاني 1405 هـ ـ 19 يناير 1985 وصدرت مطبوعة عن دار المعارف الجديدة سنة 1987
8 ـ مقدمة الندوة للكتور عباس الجراري ص 8.
9 ـ منشورات النادي الجراري 3 / الهلال العربية للطباعة والنشر 1993.
10 ـ الثقافة من الهوية إلى الحوار ص 7.
11 ـ صدر ضمن منشورات النادي الجراري (4) عن دار الهلال العربية للطباعة والنشر 1995 بتقديم الدكتور عباس الجراري.
12 ـ انظر قراءة للكتاب للأستاذ محمد البوري (مقاربة في مقومات بحث جامعي ومكونات منهجه) بمجلة المناهل عدد 50 مارس 1996 ص 302 وما بعدها.
13 ـ انعقدت الندوة بتاريخ 14 جمادى الأولى 1406 هـ/25 يناير 1986. وصدرت ضمن منشورات النادي الجراري سنة 1995 وانظر تعريف الأستاذ مصطفى الجوهري بأحدث ثمرات منشورات النادي بالملحق الثقافي لجريدة الميثاق الوطني 17 مارس 1996.
14 ـ منشورت النادي الجراي (6) وانظر تعريف الأستاذ سعيد الشليح للكتاب بمجلة أعمال عدد فبراير 1996، بالفرنسية، وتعريف الأستاذ الجوهري بملحق الميثاق الوطني 17 مارس 1996.
15 ـ منشورات النادي الجراري 7 الهلال العربية للطباعة والنشر 1955.
وانظر قراءة الدكتور مصطفى الشليح للكتاب في الملحق الثقافي لجريدة العلم 27 يناير 1996.
16 ـ منشورا النادي الجراري 8 الهلال العربية للطباعة والنشر دجنبر 1995.
17 ـ منشورات النادي الجراري 9 ـ 1995.
18 ـ انظر مقالا للاستاذ عبد المجيد عينية (صبابة أندلسية والمهرجان الحق !) جريدة العلم رقم 16793 بتاريخ 19 أبريل 1996 وتعريفا للكتاب للدكتور محمد الظريف، بمجلة المناهل عدد 51 يونيو 96 ص 367.
19 ـ صبابة أندلسية ص 6.
20 ـ منشورات النادي الجراري رقم 10، صدر عن الهلال العربية للطباعة والنشر الرباط شتنبر 1996.
21 ـ كان أولا بدرب قورية رقم 4 شارع السويقة، ثم انتقل مع بداية الاستقلال إلى زنقة القاضي عياض من شارع الحسن الثاني، ونقله الدكتور عباس إلى بيته بالهرهورة خلال صيف 1989 ثم بعد ذلك نقله إلى بيته بحي الرياض سنة 1994.
22 ـ انظر كتاب عبد الله الجراري الأديب للجوهري فصل في الشعر ص 88 وما بعدها.
23 ـ ألقاها الأديب محمد بن الراضي يوم الجمعة 16 يونيو 1992.
24 ـ قصيدة من سبعة وخمسين بيتا ألقاها الشاعر في المجلس بالهرهورة في 24 يوليوز 1992.

25 ـ تقترب القصيدة من 70 بيتا، قرأها استاذنا ج عثمان جوريو في النادي الجراري بالهرهورة في الجمعة الثانية من شهر أكتوبر 1992 ووزع نسخا منها على أعضاء النادي، مكتوبة بخطه الجميل زادها بهاء الألوان، تشكل لوحة رائعة.

26 ـ القاها الشاعر في النادي بالهرهورة يوم الجمعة 3 يوليوز 1992.

27 ـ جاءت القصيدة في سبعة وعشرين بيتا وألقاها بالنادي يوم الجمعة 10 يوليوز 1992.

28 ـ قدمها الدكتور عباس إلى الشاعرمحمد بن الراضي ـ بعد أن قرأها على أعضاء على النادي مصحوبة بمجموعة من كتب عميد النادي هدية إلى الشاعر يوم الجمعة 31 يوليوز 1992 م.

29 ـ القصيدة في أربعة عشر بيتا ألقاها بالنادي يوم الجمعة 31 يوليوز 1992.

30 ـ القصيدة في سبعة وعشرين بيتا ألقاها الشاعر بالنادي يوم الجمعة 11 شتمبر 1992.

31 ـ انعقدت أيام 12 ـ 13 ـ 14 نونبر سنة 1992.

32 ـ كان ذلك يوم الجمعة 20 نونبر 1992.

33 ـ قرأها الشاعر المختار ولد أباه يوم الجمعة 23 أكتوبر 1992.

34 ـ قرأها الدكتور مصطفى الشليح يوم الجمعة 17 مايو 1996، وكان قد سلمها للدكتور عباس يوم الجمعة 3 مايو 1996.

35 ـ قرأها الدكتور عباس في المجلس يوم الجمعة 17 مايو 1996.

36 ـ قرأها الأستاذ محمد احميدة يوم الجمعة 14 يونيو 1996.

37 ـ قدمها الشاعر محمد ابن الراضي يوم الجمعة يوليوز 1996.

38 ـ انعقد في شهر مايو 1996، وتم خلاله تكريم الدكتور عباس الجراري والدكتور محمد السرغيني.

39 ـ قرأها الدكتور المختار ولد أباه يوم الجمعة 21 يونيو 1996.

40 ـ قرأها الدكتور علال الغازي بالنادي يوم الجمعة 18 يونيو 1996 قبل سفره إلى عُمان للتدريس بجامعتها.

* * *

منهج البحث عند الدكتور عباس الجراري مقوماته وخصائصه

الدكتور عبد الرحمن حوطش (*)

1 - توطئة :

لا تطمح هذه الورقات القليلة إلى أكثر من تقديم مساهمة متواضعة في هذا الإنجاز العلمي الذي أريد له أن يكون تحية خالصة تزجى إلى أحد أعلام الدرس الأدبي، وأحد شيوخ العلم والثقافة والفكر في المغرب المعاصر، هو الأستاذ الدكتور عباس الجراري بمناسبة عيد ميلاده الستين، من قبل طلابه الكثر، ومحبيه المخلصين الصادقين؛ فليس سهلا هينا على الباحث في فكر هذا العلم البارز أن يضبط في عجالة كل مقومات وخصائص منهجه في البحث والدرس والتحليل، والمناقشة والموازنة والاستنتاج، وذلك بسبب كثرة أبحاثه التي انجزها في مجالات شتى وبسبب تنوع القضايا والمسائل التي عالجها فيما كتب ويكتب باستمرار، لذلك فإن ما سنضبطه في هذه الورقات، لا يعدو أن يكون مقاربة أولية للموضوع، وملامسة له من بعيد. وقد يتيسر لي أو لغيري من القراء، والباحثين في فكر العلامة الدكتور عباس، أن يوسع دائرة البحث في منهجه استقبالا، لأنه من الممكن الحديث بكل موضوعية وانصاف، عن منهج جراري متميز، ورؤية علمية شاملة لأستاذنا في قضايا هامة، ماانفك يفصح عنها في كل ما دبج من المقالات

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة.

والدراسات والأبحاث، ولعله أن يكون من المفكرين القلائل في المغرب الجديد، الذين يملكون رؤية دقيقة في المنهج، وتصورا لاحبا في الفكر والإبداع والثقافة، ويعملون بلا كلل من أجل بلورة تلك الرؤية، وذلك التصور، وفق خطة لها بداية، ونهاية مضبوطتان باحكام، لا سبيل فيها إلى الارتجال، والعشوائية وركوب مراكب «الموضة» والجري وراء الشهرة والذيوع والانتشار.

2 - **تعريفات :**

ولعل من المناسب في هذا المقام، أن نسوق في إيجاز شديد، إلى من ليس على إطلاع، بعض تعريفات المنهج، استقيناها من مظان مختلفة، معروفة لدى الباحثين والدارسين.

1-2 وهكذا نجد أن المنهج لغة : الطريق الواضح؛ يقال: نهج، ومنهج، ومنهاج، والنهج (محركة) أيضا، ويجمع على نهجات، ونهج، ونهوج، ويقال: انهج الأمر، والطريق: أوضحه.

وقال الشاعر:

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت سبل المكارم والهدى تعدى

ويقال : نهج الطريق: سلكه، واستنهجه: صار نهجا واضحا بينا، وطريق ناهجة: واضحة بينة(1).

وفي القرآن الكريم «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا»(2).

2-2 وأما اصطلاحا، فهو في أبسط تعريف له وأشمل: طريقة يصل بها الإنسان إلى حقيقة(3). أو هو «التوفيق بين النشاط الذاتي المبدع والمعلومات والأدلة والوسائل»(4).

والمنهج أيضا: «منظومة متكاملة، تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيا وذلك الوعي، من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل، والبرهنة للاثبات أو النفي..»(5).

يتحصل من هذه التعريفات أن المنهج طريقة في البحث، يتسم بالوضوح يتداخل فيها ما هو موضوعي صرف، وماهو ذاتي يتصل بشخصية الباحث ورؤيته، وقدرته على ضبط وسائله الإجرائية، للوصول إلى تحقيق النتائج والخلاصات الأحكام التي يمليها عليه الموضوع الذي يتصدى لبحثه، ودرسه، وتحليله، بعيدا عن الإسقاط، والشطط، والمجازفة والرجم بالغيب!.

3 – مقومات :

ومعلوم أن لكل منهج من مناهج البحث مقومات لابد من توافرها للتحكم في آلياته من جهة، وللوصول إلى النتائج والغايات المنتظرة من بحث أي قضية، أو موضوع من جهة ثانية. ومما لاشك فيه أن الباحثين متفاوتون في امتلاك هذه المقومات، التي لابد من حد أدنى منها، وإلا استحال البحث إلى كلام عام، لاصلة له بالبحث العلمي القائم على منهج معين مضبوط.

وبالنسبة إلى منهج البحث عند الدكتور عباس الجراري، تبدو لقارئ أبحاثه ودراساته تلك المقومات موفورة بشكل غاية في التنوع والتعدد والثراء، وسأورد فيما يأتي بعض ما تحصل لدي من ذلك من خلال قراءتي المتكررة للكثير من منشوراته، وهي على النحو الآتي:

1-3 **رؤية علمية واضحة ودقيقة:** يقوم منهج البحث عند أستاذنا على رؤية علمية واضحة ودقيقة إلى القضية أو المسألة موضوع البحث، يتأسس عليها تروٍّ وتثبت

إدراك لجميع الأبعاد والزوايا والخفايا التي تكتنف الموضوع، أو يحتمل أن تكتنفه، فتحول دون تحقيق الغايات العلمية المرسومة، ولعل ما كان يغيب على كثير من علمائنا فيما ألفوا من مؤلفات في القديم وفي الحديث أيضا، هو هذه الرؤية العلمية الدقيقة، لذلك كثر الجمع والتوليف بين عناصر تبدو أحيانا غير منسجمة، تجعل العمل المنجز ضخما إلى درجة استحالة قراءته كله: إنه منهج يقوم على الاستطراد، والحشو، والاتساع الأفقي، والتنوع في المعلومات، ولكن تحس بأن صاحبه لا يملك هذه الرؤية إلى موضوعه؛ بل ربما أحسست بالخلل والاضطراب، وحشر الأفكار وتداخلها، وهذا في نظري عيب في هذا المنهج، حاولت الدراسات الحديثة أن تتجنبه، بفضل تمكن كثير من الباحثين من السيطرة على الموضوع، وتحديد المنهج بدقة وإحكام، وقد لا أكون بحاجة في هذا المقام، لأضرب مثلا من أعمال الدكتور عباس الجراري، على هذه الرؤية العلمية الدقيقة والصارمة، لأن أعماله العلمية كلها تقوم على هذا الركن الهام من أركان المنهج العلمي الرشيد، بدون استثناء.

2-3 **ثقافة منهجية شاملة:** لكي يستطيع الباحث السير بسلام فيما ينجزه من أبحاث، ودراسات، ينبغي أن يتسلح بثقافة منهجية عميقة وشاملة، وإلا كان التعصب، والنظرة الأحادية البعد، هما الصفتين المهيمنتين على فكره وعقله وأسلوبه في التعامل. والحق أن منهج البحث عند استاذنا، مشبع بهذه الثقافة، متشرب بمناهج أخرى كثيرة، دون أن يأسره أي منهج من تلك المناهج، فيقع في التقليد، كما هو الشأن بالنسبة إلى كثير من الباحثين، ولعل هذه هو السر في أنه لا يحمل طلبته في الدراسات العليا، على وجوب الالتزام بمنهج معين، وتكاد أن

تكون هذه ميزة ينفرد بها، أو لا يقاسمه إياها إلا القليل. وقد يكون أحدنا تساءل حول هذا التسامح الكبير، والمرونة الفائقة في التعامل مع طلبته، الأمر الذي يجعلك تحس بالمسؤولية الكاملة حول موضوعك، حين تكون بقيادته في بحث من البحوث، أو دراسة من الدراسات، فهو لا يتدخل إلا من بعيد، ولا يشعرك مباشرة بأنه إنما يوجهك أو يقود خطاك المنهجية. وإنك سوف لا تعجب أبدا من هذه الروح العلمية المترفقة، إذا اطلعت على ما كتبه حول المناهج القديمة والحديثة، العربية منها والغربية، في كتابه «خطاب المنهج»(6)، فقد رصد في هذا الكتاب، وبخاصة البحث المشار إليه في الهامش أعلاه، كثيرا من المناهج المتبعة في الثقافة العربية ابتداء من مناهج علماء القرآن والحديث، إلى مناهج الأدباء والشعراء، إلى المناهج الحديثة التي استندت، في الغرب خاصة، على علوم النفس والاجتماع، والاقتصاد، وعلى الفلسفة ومذاهبها، وعلى غير ذلك من الحقول المعرفية، الإنسانية التي كانت هي محاضن مناهج الغربيين في دراساتهم وأبحاثهم، مبينا كيف أن بعض الباحثين في العالم العربي تأثروا بذلك وطبقوه على دراسات أنجزوها حول بعض الشعراء، وبعض الأعمال التي خلفوها، كما هو الشأن بالنسبة إلى صنيع د.النويهي، والعقاد، ود. مندور، وسواهم من الذين تقفوا أثر الغربيين الذين وضعوا هذه المناهج. والأستاذ الدكتور عباس الجراري، بمقدار ما يأخذ على هؤلاء اللاهثين وراء كل ما هو مستورد من المناهج وطرائق الفكر، يقدم مقترحات يراها ضرورية لتجاوز هذا الإشكال الذي لايزيد إلا تأزما مع مرور الزمن(7) وتكاثر التلامذة المقلدين الباحثين هم كذلك.

3-3 **عدة وثائقية غنية** : ومن مقومات المنهج وركائزه كذلك الوثائق والمستندات ذات الصلة بموضوع البحث؛ إذ ليس ممكنا ألبتة الانطلاق في بحث ما، إذا لم يتوافر

للباحث رصيد مهم من المصادر والمراجع المطلوبة التي تعتبر إلى حد كبير عنوانا على أهمية البحث نفسه، وعلى الجهد العلمي المبذول فيه. وقد يحدث أن يتهاون بعضهم في هذه المسألة، إما اعتمادا على الخبرة والموسوعية العلمية، وإما استهانة بالموضوع، وإما بسبب الشح الذي يكون أحيانا في مصادر الموضوع المبحوث، وإما اعتمادا على مسلمات ومقولات جاهزة. فيقع الباحث في مزالق خطيرة، أو في قصور فادح، أو في ادعاء غير مقبول علميا وخلقيا، ولذلك تفقد أبحاثهم مصداقيتها، وتغدو ركاما من كلام لا أهمية له أحيانا. والأمر على خلاف ذلك تماما بالنسبة إلى أستاذنا، ذلك بأن البحث عنده موصول وصلا قويا بمصادره ووثائقه، وإنه ليبهرك حقا بهذه العدة الوثائقية المتنوعة، وبهذا الاهتمام المستمر بكل مستند يخدم موضوعه، ويسمح له بالتحكم والضبط والتتبع لكل صغيرة وكبيرة في القضية، أو المسألة التي يبحث، بل إن الأمر لا يقف عند هذا الحد، وإنما يتجاوزه إلى ذلكم الحرص الشديد على تملك ناصية أي موضوع، حتى وإن بدا في الظاهر موضوعا ليس من صميم اهتماماته وانشغالاته، وليس أمامي الآن إلا مثال واحد هو ذلك البحث الذي أنجره حول المهاجرين المغاربة، وكيف استطاع بحرصه، وشدة إحساسه بالمسؤولية العلمية، الحصول على مصادر البحث، ثم قراءتها قراءة فاحصة متأنية، قبل الإقدام على اعتمادها، والاستفادة منها في رسم تلك المعالم الواضحة لمشكلة الهجرة، والمهاجر، وما يلفهما من صعوبات، وتحديات(8).

4-3 **قدرة فائقة على تصور الموضوع، وبسط مفاهيمه:** يحدث أحيانا، وفي أبحاث كثيرة، أن تحس بشيء من التعتم والانبهام يجعلانك كمن يضرب في تيه لا دليل له

فيه ولا قائد، والسبب في الأغلب الأعم، ليس صعوبة موضوع البحث الذي تقرأ، أو كثافته الفكرية المشبعة بالعمق الفلسفي، أو المتفلسف، أو الميتافيزيقي، لا، ليس هذا، ولا ذاك، وإنما السبب هو انعدام القدرة لدى الباحث على امتلاك تصور واضح للموضوع، قد يوقع صاحبه في الاضطراب، كما يوقع القراء في الضبابية والغموض، لذا كان لا مناص للباحث من التمكن من هذه الآليات التي تساعد على التواصل بين الباحث، والقارئ من جهة، وتربط من جهة ثانية بين الموضوع، وأصوله المنهجية والعلمية التي تكشف ما في هذا البحث أو ذاك من أصالة، ومن إضافة في الآن نفسه.

إن منهج البحث عند الدكتور عباس الجراري، يقوم دائما على هذا المفهوم الهام والكبير، فلا تراه يقتحم أي موضوع، يحتاج إلى هذا النوع من الآليات، حتى يقدم تصوره له، ويبسط أمام القارئ مفهومه أو مفاهيمه، وذلك في سماحة لغوية، وتدفق أسلوبي، وأشراق فكري لا مزيد عليه، مما يجعلك تندمج مع الموضوع، وتلج عالمه وأنت في مأمن من الانزلاق في الفهم، وفي شوق إلى الإبحار معه حتى النهاية، وتكاد أن تكون أبحاثه المنشورة كلها على هذا النحو من الدقة في تحديد المفاهيم والتصورات المتكونة لديه حول الموضوع، أو القضية التي يتصدى لبحثها، ودراستها، وتحليلها.

إن هذه المقومات الأربعة التي حاولنا ضبطها في هذا الشق الأول من عرضنا المتواضع هذا، تبدو واضحة من خلال كل كتابات الأستاذ الدكتور عباس الجراري، وهي، وإن كان يشاركه فيها كبار الباحثين والعلماء المتمكنين، تبقى في اعتقادي، مزية كبرى في منهج البحث عند أستاذنا، وتظل تفصح عنها هذه

البحوث والدراسات الجادة والغنية، التي أنجزها، ونشرها، أو التي سينجزها، وينشرها في القادم من عطائه الفكري الذي يرصع جبين الثقافة المغربية المعاصرة.

4 - **خصائص :**

لا يستطيع قارئ أبحاث الدكتور عباس الجراري بتدبر وإمعان، أن يخرج من تلك القراءة دون أن يلاحظ جملة من السمات والملامح الخاصة التي تسم تلك الأبحاث، وهاتيك الدراسات. وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل تلك السمات والملامح في هذه الورقات، ومع ذلك فإنه لا مناص من ضبط بعضها، وذلك في سياق الفقرات الآتية:

1-4 **الحبكة القوية في أسلوب العرض :** تستوقف القارئ هذه الحبكة، وهذا الإحكام في أسلوب عرض الأفكار، والمعلومات التي يوردها، بحيث تترابط ترابطا عضويا وتندمج اندماجا كاملا مع الخط العام للفكرة، ومع باقي الأفكار التي تكوّن مجتمعة جوهر البحث، أو الدراسة، فلا تحس بأن النصوص المقتبسة لدعم الفكرة، أو الرأي، هي نصوص أجنبية عن المتن العام، أوردها الباحث في سياق من السياقات التي يقتضيها المقام، بمعنى أنك لا تحس بأي نشاز في أسلوب العرض وطريقة الأداء، وإنما تبدو تلك المقتبسات من النصوص، جزءاً لا يتجزأ من أسلوب الباحث.

2-4 **الاقتصار على ما هو ضروري جدا** في الاقتباس، فلا انسياب مع النص الذي يقتبسه، بهدف دعم الفكرة، أو توضيحها أو تأكيدها، أو لزيادة إضاءة فيها، أو تصحيح بعض الآراء الأخرى ذات الصلة بالفكرة التي يسوقها في بحثه، وليس

يفلح في هذه النقطة الهامة من نقاط منهج البحث، إلا قلة من الباحثين الأصلاء، إذ نجد أحيانا فقرات بكاملها، وربما صفحات طويلة من النقول، يوردها بعضهم لتضخيم حجم المقال، أو البحث، وأحيانا لا يشار إلى صاحب ذلك النص، أو الاقتباس، وهذه خيانة كما هو معروف، ولعله لهذا السبب، ولغيره، اعتبر بعض أصحاب مناهج البحث أن هذه الأخيرة (أي مناهج البحث) «ليست قيادة لفكر فحسب، بل هي أيضا، وقبل كل شيء، قيادة أخلاقية، لأن روح العلم، روح أخلاقية»(10)، وهذا حق لا مراء فيه.

3-4 **عرض الأدلة والحجج بطريقة موضوعية** لا مجال فيها لاستعراض الأهواء، والمقاصد الخفية، والتحمس للفكرة كيفما كانت أهميتها، أو صلتها بالمقومات الحضارية، والثقافية لمرحلة من مراحل تشكل الأمة، وكيانها السياسي، والإجتماعي، والخلقي العام، وليس بين يدي الآن سوى تلك الوقفة العلمية الرصينة التي وقفها استاذنا من مسألة نظرة بعض المستشرقين وأحكامهم التي أصدروها على المرابطين ودولتهم، وكيف اعتبرهم بعض المستشرقين «أعداء لكل حضارة عربية،،،»(11) فقد حاججهم حجاجا علميا دقيقا، لم يترك فيه للهوى والحماسة الوطنية الزائدة، أي سيطرة أو اندفاع يفرغان هذا الحجاج من محتواه العلمي الرصين(12).

4-4 **التتبع الدقيق للفكرة** في كافة تفاصيلها وجزئياتها، إلى غاية استقصائها من جوانبها المختلفة، إنه لا يقنع بالسطح، ولا بالأحكام المسبقة، أو الجاهزة كما يقال، وآية ذلك على سبيل المثال لا الحصر: تصديه العلمي الموفق لموضوع: معركة وادي المخازن في الأدب المغربي الذي عاد إليه بعد بعض المقالات المكتوبة حولها من قبل

بعض العلماء الباحثين، ليشفي الغليل، ويعطي الموضوع حقه من العناية والاستقصاء والتحليل والتعليل، رابطا المعركة بالأسباب والمسببات، مضفيا على ذلك كله طابعا من القداسة والاعتزاز، لم ينسه المغاربة، ولن ينسوه على الدوام، لأنهم صنعوا نصرا لهم، وللاسلام في هذه البقاع(13).

5-4 **التحليل المعمق لأي ظاهرة**، أو قضية تصدى لبحثها، ووضعها على محك الدرس والمناقشة؛ فهو لا يلجأ إلى التعميم، وبناء النتائج على مقدمات، أو فرضيات غير سليمة، وغير مسنودة إلى حقائق ومعطيات علمية مضبوطة، بحيث تجعل القارئ يطمئن اطمئنانا تاما إلى تلك الخلاصات، أو الاستنتاجات التي يصل إليها بعد أن يكون قد مر بكل المراحل، والحلقات المترابطة، التي ينبني بعضها على بعض، في شكل هندسي متراكب متراص، ولعل صنيعه في بحث بعنوان: «المهاجرون المغاربة إلى أوروبا الاثنتي عشرة...»(14) من أبرز الأعمال المنشورة التي تظهر عليها هذه الخصيصة الهامة من خصائص منهج البحث عند أستاذنا.

6-4 **الالتزام الصارم للجوانب الخلقية للمنهج**، وتمثل عال لروحه السمحة، لأن المنهج وإن كانت فيه الموضوعية والآلية والصرامة، لا يخلو من رحابة، ومن طواعية ومرونة، وإلا أصبح قالبا جاهزا جامدا، تصب فيه الأفكار والرؤى والتصورات، كما تصب الأشياء في الأوعية والقوالب المختلفة؛ إن المنهج جسد وروح؛ يستمد من الجسد صرامته وهيئته الخارجية، ويستمد من الروح سماحته، ومرونته وتدفقه، ولعل تلخيص الدكتور الجراري لنظرته الصائبة في المنهج، من أصوب ما يمكن الاعتماد عليه في فهم روح المنهج وآلياته، وقد يفيد أن أسوق ملاحظة واحدة من ملاحظاته التي أوردها حول المنهج، وهي قوله: «إن قيمة أي منهج ليست كامنة

فقط في نوع الأدوات التي استعملها الباحث... (وهي جوانبه المادية، أو الجسدية كما قلنا) ولكن قيمة أي منهج رهينة بما يحققه في رؤيته وهدفه (أي جوانبه الروحية) بالنسبة لفترة معينة، أو موضوع محدد»(15). إن اعتماد منهج البحث؛ أي منهج، على شق واحد دون الآخر، هو إفراغ لهذا المنهج من محتواه العلمي الصحيح، وقد يكون ذلك من الأسباب الكامنة وراء فشل بعض مناهج البحث، لدى باحثين متعددين، في تحقيق النتائج المتوخاة من بحث أي موضوع، أو قضية، أو ظاهرة من الظواهر؛ إنه تحليق في فراغ، وسياحة في تيه قاتل!

تلك بعض مقومات وخصائص منهج البحث عند أستاذنا، وقد جلتها كتاباته المنشورة، وأبحاثه ودراسته التي مانفك يتحف بها الثقافة والفكر المعاصرين بالمغرب، والتي تيسر لي الاطلاع عليها بشئ غير قليل من الاعتزاز والرغبة في الكرع من حياض فكر هذا الرجل، المترع بالايمان، والأصالة والعمق، والشمول، والاستقامة، حوصلتها في عجالة وسرعة لأقدمها تحية صادقة إلى هذا العالم المفكر القائد، الذي يعرف طلبته، ومحبوه، والمقربون منه، كم هو جدير بأن يحتفى به، وبأمثاله ممن أعطى ولا يزال، هذا البلد عصارة قلبه وعقله، وفكره، في صمت كبير، وتواضع جم، ونكران ذات. وأملنا أن يقبل الباحثون على هذا الفكر، وهذا العطاء، لتحليله ودراسته، ووضعه في المكان اللائق به، ليس فقط على صعيد الثقافة المغربية والعربية، ولكن على صعيد الثقافة الإنسانية بوجه عام.

* * *

الهوامش :

(1) انظر تاج العروس للزبيدي، ج 2، ص 110/109 (نهج)

(2) بعض آية (50) من سورة المائدة.

(3) د. علي جواد الطاهر، منهج البحث الأدبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979 ط 3، ص 19.

(4) د. ثريا عبد الفتاح ملحس، منهج البحوث العلمية، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1973) ط 2. ص 25.

(5) د. عباس الجراري، خطاب المنهج، (الرباط: منشورات النادي الجراري، 1995) ط 2 ، ص 25.

(6) ولا سيما البحث الأول فيه، بعنوان: واقع الفكر العربي والإسلامي، بين إشكالية المعرفة والمنهج، ص، 1-38.

(7) انظر تلك المآخذ والمقترحات في المصدر السابق، ص 29-37.

(8) انظر البحث الذي هو بعنوان «المهاجرون المغاربة إلى اوربا الاثنتي عشرة» في كتابه: الثقافة من الهوية إلى الحوار، (الرباط: منشورات النادي الجراري، 1993).

(9) انظر مثلا:

1- بحثه بعنوان: مكونات الهوية الثقافية المغربية، المنشور بكتابه؛ الثقافة من الهوية إلى الحوار.

2- بحثه بعنوان: الثقافة الإسلامية، ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى، المنشور بنفس الكتاب.

3- بحثه بعنوان: واقع الفكر العربي والاسلامي بين إشكالية المعرفة والمنهج المشار إليه أعلاه.

(10) د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، (مصر: مطبعة النهضة، ؟)، ص 392.

(11) انظر كتابه، صبابة اندلسية، (الرباط: منشورات النادي الجراري، 1996) ط 1، ص 19.

(12) انظر المقال كله بعنوان «قضايا مرابطية في منطور المستشرقين» من ص 9 إلى ص 48، من الكتاب الآنف الذكر.

(13) انظر البحث بعنوان «معركة وادي المخازن في الأدب المغربي» الطبعة 2، 1988، وأرى أنه من الانصاف أن نضيف «.... في الأدب المغربي والأدب الأجنبي» لأن البحث أشار إلى أن هذه المعركة توجد لها أصداء في الأدب الأجنبي، وأورد لذلك أمثلة، داعيا إلى تنظيم ندوة خاصة حول هذا الموضوع في آخر البحث.

(14) انظر البحث بكامله في كتابه: الثقافة من الهوية إلى الحوار، الذي سبق أن أشرنا إليه.

(15) انظر بقية الملاحظات في ص 84 و85، من كتابه: خطاب المنهج الذي سبقت الاشارة إليه. وانظر أيضا فهمه لحقيقة المنهج جسدا وروحا في كتابه؛ صبابة اندلسية، ص 15، حيث يقول بالحرف: «والمنهج مهما يكن وصفه بأنه علمي، فإنه - إلى جانب الأدوات الإجرائية التي هي مقاييس مجردة وثابتة، وإن اتسمت ببعض المرونة التي تجعلها مطوعة للبحث.... يتضمن جانبا ينطلق من الذات، أو هو يقترب منها، ويعكس تصور هذا الباحث بدءا من رؤيته للموضوع، إلى الهدف الذي يريد أن يبلغه والغاية».

* * *

المنهج في درس الأدب عند الدكتور عباس الجراري : ملاحظات أولى

الدكتور أحمد الدويري*

يهدف هذا البحث إلى عرض المنهج في درس الأدب عند الدكتور عباس الجراري، عرضا مقتضبا؛ وليس سبب الاقتضاب هنا، أن الموضوع لم يعالج، فيما مضى، ولكن يرجع إلى أن أي معالجة لموضوع ما، ينبغي أن تحدد قبل كل شيء الإطار المنهجي الذي ستتحرك فيه، والاهداف المتوخى تحقيقها من خلال ذلك الاختيار المنهجي.

ويبدو، من خلال تتبع ما كتب حول منهج الدكتور الجراري في درس الأدب[1]، أن الدراسة «الاجناسية»، رغم كونها ترتد إلى ماض سحيق في الفكر الأدبي، فإنها، مع ذلك، لا تزال ذات أهمية في الاهتمام بالأدب، قبل اصطناع منهج من مناهج التحليل له، أبرز مثال على ذلك أن رونيه ويليك الشكلاني، أصلا، لم تغب عن ذهنه لحظة، منذ أهم عمل مبكر له[2]، وانتهاء بآخر ما عرفناه من أعماله[3].
ومثال أهميتها كذلك أنها الميزان العدل لمعرفة شمولية التناول وعمقه، وأصالة المنهج ودقته عند دارس من الدارسين.

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى اسماعيل، مكناس.

إذا انطلقنا من فرضية أن الدكتور الجراري رائد الدرس الأدبي المغربي ووضعناها في الميزان السالف الذكر، نجد أن هذه الفرضية تصبح حقيقة علمية، إذ أن الأستاذ الجراري تحرك في كل ما كتب بشمولية وعمق، حيث جمعت أعماله بين جنس تاريخ الأدب والدراسة المتخصصة في الأدب والنقد الأدبي، وصدر، بكل اقتدار، عن اختيار منهجي موفق.

وينبغي أن نحدد، قبل كل شيء، ظرفين خضعت لهما أعمال أستاذنا، من الناحية المنهجية.

أما أولهما : فهو **ظرف عام**؛ ومؤداه أن الأستاذ الجراري بدأ الدراسة الأدبية الرسمية بكتابه عن أبي الربيع سليمان الموحدي الذي ناقشه للماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة 1965. وقد كان المغرب، من الناحية الأدبية يومئذ، امتدادا لمصر، أو لنقل يتنفس في أجواء النهضة الأدبية بالمشرق العربي؛ غير أن تأثر المغرب بالمشرق كان تأثرا يخضع للغربلة والنقد والتمحيص. لأجل هذا لم يتابع المغاربة ـ والأستاذ الجراري نموذج جيد لهم ـ اتجاه الحداثة الذي كان في مصر والشام قد استهوى معظم الدارسين، والذين كانت مبادئه في سورية ولبنان بالخصوص وعند جماعة شعر بوجه أخص هدم التراث أو إحداث قطيعة معه، كيفما كانت طبيعته؛[4] وإنما ساير الأستاذ الجراري المهتمين بالتراث من المشارقة، كما ساير ما أحدثته النهضة الأدبية بالمغرب منذ سنوات العشرين، بالاهتمام بالتراث المغربي، ودراسته دراسة علمية رصينة، وهذا هو **الظرف الخاص** الذي ينبغي أن نضعه في الأذهان ونحن نبحث المنهج عند د. الجراري.

وحين نعود بذاكرتنا إلى بداية الأحياء والبعث في الأدب العربي إبداعه ودرسه، أي إلى العشرين سنة الأخيرة من القرن الماضي، ونقارن هذه البداية مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين، نجد أن درس الأدب عرف ثلاثة أجناس رئيسة هي، حسب الأهمية والتدرج في الزمن : النقد الأدبي مع الأحيائيين ومع المرصفي خاصة، وتاريخ الأدب خلال العقد الثاني من القرن العشرين مع زيدان والرافعي، والدراسة المتخصصة في الأدب، بعد ذلك، مع العقاد وطه حسين وغيرهما. وقد تكون هذه الخمسون سنة تقريبا النواة المنهجية لكل صراع ولكل اجتهاد وبحث في الدرس الأدبي. ومع أن المغرب، قبل الاستقلال، كان يتقيد بهذا المسار، إذ وجد عندنا نقد مع ذ. بلعباس القباج، ثم تاريخ الأدب مع ذ. عبد الله كنون، ثم دراسة متخصصة في الأدب مع ذ. باحنيني وذ. عبد الرحمن الفاسي وذ. عبد الله كنون، فإن الأجناس الثلاثة، بعد الاستقلال، سارت، في عمومها، سيرا معاكسا تماما ـ في الأهمية والترتيب الزمني ـ لما عرفه المشرق العربي. فكان أول عمل للأستاذ الجراري دراسة أدبية، ثم أعقبه بكتابه عن (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه)(5)، وهو أدخل في جنس تاريخ الأدب، ثم كانت المرحلة الثالثة خاصة بمسائل نقدية متنوعة، أو بمسائل منهجية، يمكن إدراجها في ما يعرف بنقد النقد من بعض الأوجه، وهو فيها لم يغب عنه الصراع النقدي العنيف الذي عرفه المغرب، طيلة سنوات السبعين، والتجريب المنهجي في النقد في عقد الثمانين، مما أثمر كتابه (خطاب المنهج)(6).

إذن، لأمر ما، كانت بداية أستاذنا العلمية تندرج ضمن جنس الدراسة المتخصصة في الأدب.

1 ـ **الدراسة الأدبية** : رغم أن كثيرا من الدارسين يمزجون بين الدراسة المتخصصة في الأدب والنقد الأدبي، فإن هذين في الواقع، جنسان واصفان للأدب متميزان، إذا اتفقا أحيانا فإنهما يختلفان أحيانا أخرى، مادة ومنهجا وغاية.

وقد عرفت الدراسة المتخصصة في الأدب، ومادتها حياة أديب معين وانتاجه[7]، منهجين كبيرين هما منهج السيرة ـ «بما أن أقرب شيء من خلاله نعرف الأدب هو سيرة الأديب، ومن هنا نشأ منهج السيرة الأدبية»[8] فكان أقدم منهج وأقواه، وربما هو ما يميز جنس الدراسة الأدبية عن جنس النقد الأدبي ـ والمنهج الجامعي أو الأكاديمي، ويهتم فيه صاحبه بتحقيق النص وتوثيقه، وشرح غامضه، وتخريج شواهده، ثم تحليله وتقويمه، ووضع الفهارس اللازمة له.

وقد جمع الدكتور الجراري في كتابه عن أبي الربيع بين المنهجين في الدراسة، ومنذ العنوان : «الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره، حياته وشعره».

يقول في تواضع : «ولم يكن هذا البحث عن أبي الربيع غير تجربة أولية في دراسة أدبنا حاولت فيها أن أقدم تحليلا جديدا لعصر الموحدين من حيث سياسته ومذهبيته، وأن أعرض الحياة الفكرية والأدبية، وأن أطرح أدباء هذا العصر من خلال تصنيف نابع من مختلف التيارات والاتجاهات التي كان يسير فيها أولئك الأدباء».[9]

وهذا الجمع المنهجي لم يكن سوى إطار عام للدراسة، لأن الباحث سيفيد من مختلف العلوم الإنسانية المتاحة :

«وقد تسنى لي بما جمعت من أخبار عن أبي الربيع أن أفحص هذه الأخبار، وأحللها وأنقدها وأستنتج منها ما يمكن استنتاجه، وأفسرها بما يجعلني أنفذ إلى أعماق حياة الرجل، بالتفسير النفسي آناً والتفسير الاجتماعي والتاريخي آناً أخرى، سعيا إلى سد ما بين الأخبار من ثغرات، وبالتالي إلى تكميل ملامح صورة هذه الحياة».(10)

وهكذا قسم البحث إلى قسمين كبيرين : قسم الدراسة، وهو المنشور، وقسم خاص بتحقيق الشعر، وقد وعد الباحث بنشره.

أما القسم المنشور فقد جاء على الشكل الآتي :

الباب الأول : عصر أبي الربيع. وفيه فصلان : **الأول** : ثورة سياسية ومذهبية.

والثاني : نهضة فكرية وأدبية.

وأما **الباب الثاني** المخصص لـ «حياته وشعره» فقد ضم فصلين كذلك : حياته (الفصل الأول)، وشعره (الفصل الثاني).

وأنهى الدراسة بفهارس :

الأول : للمصادر والمراجع عرض فيها سبعة وأربعين ومائة مصدر ومرجع (147) **والثاني** : للأعلام؛ **والثالث** للأماكن، **والرابع** للكتب.

فجاء الكتاب، بحق، جامعا لمناهج الدراسة الأدبية، كما عرفت في كل الآداب، من جهة، ولما طرأ على الدراسة الأدبية في الأدب العربي الحديث من إفادة من مناهج العلوم الإنسانية والتاريخية واللغوية) من وجه آخر، ومركزا على أهم ما ينبغي معالجته في هذا الفن، كما حددناه في تعريف هذا الجنس، ومحققا لغايات

كان الدرس الأدبي في حاجة ماسة إليها، وهي على سبيل الإجمال : كتابة سيرة عن الأمير الشاعر وأعماقه النفسية، إعطاء صورة عن عصر الشاعر ومجتمعه، إبراز أن الأدب الموحدي لم يكن منحطا (ص 6)، ولا مذهبيا فقط؛ وهذا ما أكدته دراسات أخرى جعلت عصر الموحدين يشهد نهضة علمية كبرى[11]، وعصرا تقف فيه المدرسة المغربية في الشعر، تلك التي بدأت مع المرابطين، على قدمها.[12]

كما كانت هذه الدراسة الخاصة بأبي الربيع تطبعها الموضوعية في الأحكام، وتقليب المسألة والقضية على مختلف وجوهها قبل إبداء رأي نهائي فيها. ويطول بنا الحديث لو رحنا نتتبع مثل هذه القضايا الفكرية والمذهبية والفنية؛ ويكفي أن نسوق ـ على سبيل المثال ـ مسألة شك بعض الدارسين والمؤرخين، قدماء ومحدثين، في صحة نسبة شعر أبي الربيع إليه، لعل أقدمهم صاحب (المعجب). وبعد عرض رأيه، ورأي بعض المعاصرين كالأستاذ المنوني والأستاذ كنون خاصة، يورد الباحث رأيه في القضية فيقول، في تواضع : «وعلى الرغم من أن مجال هذا البحث لا يسمح بالتوسع في مناقشة هذه القضية وما تتطلب من دراسة مقارنة لم تتيسر لنا وسائلها بعد، فإننا نستطيع بالنظر في ديوان أبي الربيع، وفيما بين أيدينا من شعر قليل لابن عبد ربه أن ننتهي إلى أنه إذا كان شعر أبي الربيع يمتاز بالبساطة والوضوح والسلامة فإن شعر ابن عبد ربه يبدو أرقى أسلوبا وأجمع ديباجة، وربما كان أكثر خفة ورشاقة وأصالة. ولعل السبب في ذلك أنه كان ذا ثقافة أدبية واسعة لم تتهيأ لأبي الربيع الأمير الحاكم».[13]

ومن الآراء المنهجية الصائبة في الدراسة، وصف البنية الفكرية والأدبية، ومكوناتها، قبل الشروع في الدراسة وبناء الأحكام.

لقد حدد البنية الفكرية في الفصل الثاني من الباب الأول، فأقامها على الفلسفة والتصوف والأصول والأحكام والتفسير والحديث والفقه والعلوم اللسانية من لغة ونحو وعروض، والعلوم العددية كالحساب والهندسة والتنجيم، والفن والطب والجغرافيا والتاريخ، وكل هذا كدليل على مظاهر «الازدهار الفكري لهذا العهد».[14]

ونفس المنهج، أي وصف البنية الفكرية والأدبية، احتكم إليه وهو بصدد الحديث عن شعر الأمير، يقول : «نعود بعد هذا لأبي الربيع، فنجد أنه عالج أغراضا شعرية مختلفة، سنتناولها حسب الترتيب الآتي :

أولا الغزل، وهو يستغرق نصف ديوان الشاعر.

ثانيا المناسبات، وسنتعرض فيها للموضوعات التالية :

1 ـ مجالس الأنس.

2 ـ التهاني.

3 ـ الاستعطاف.

4 ـ الرثاء.

ثالثا : الوصف، وهو قسمان :

1 ـ صريح.

2 ـ ألغاز.

رابعا : الزهد»[15].

والحق أن هذه الفكرة المنهجية، بقدر ما كانت يومذاك جديدة كل الجدة على الوسط الأدبي العربي، إذ هي فكرة بنيوية لم تعرف إلا حين كثر نقل التراث

الشكلاني الروسي عندنا مع سنوات السبعين والثمانين، بقدر ما كانت أكثر ملاءمة لخدمة الفكرة والحكم اللذين يريد الباحث الوصول إليهما، وهما أن الأدب في العصر الموحدي والشعر منه بخاصة لم يكن فقط أدبا ولا شعرا مذهبيا محضا، بل إن الشعراء بالذات تناولوا أغراضا شعرية قد تكون بعيدة عن المذهب الذي اعتنقه الموحدون. لذلك كان ثلثا شعر أبي الربيع الأمير شعرا في الغزل !.

ومن هذا الحكم على الشخص من خلال شعره يمكن بناء حكم على العصر برمته، وهو أن الأدب على عهد الموحدين لم يقطع الصلة بالأدب في العصر قبله، ولا مع الأدب العربي بوجه عام، وذاك ما يؤكده الدارس وهو يميز خمسة اتجاهات شعرية في العصر الموحدي صدرها بشعراء العصر المرابطي[16]، من أبرزهم القاضي عياض. وكان الاتجاه الرابع اتجاها ذاتيا اهتم فيه أصحابه بالغزل والوصف وأسلوب الصنعة وفن الزجل والتوشيح في غير مغالاة.[17] وهذا ما يبين أن الدارس لا يومن بالانقطاع بين العصور لأن الظاهرة الأدبية لا تعرف الطفرة، وإنما يمتد تأثير هذه في تلك وهذا العصر في ذاك.

وحين يصل الباحث إلى مثل هذا التعميم، والانتقال من الشخص موضوع الدرس إلى العصر بل وإلى الأدب المغربي بوجه عام، ندرك أنه يملك حسا تاريخيا ونقديا أهلاه ليخوض غمار تاريخ الأدب، على الرغم من أن هذا الجنس الأدبي لا تقوى عليه إلا جماعة، كما أوضح ذلك د. طه حسين في نهاية الربع الأول من القرن العشرين[18]، وعلى الرغم من أن الدارس نفسه كان يومن ولا يزال بأن تاريخ الأدب بالمغرب، خاصة، يجب أن تسبقه دراسات أدبية جزئية لأن كثيرا من أعلامه وظواهره لا تزال لدينا غامضة، وهذا ما يبين سر إشراف أستاذنا على كثير من الرسائل الجامعية في هذا المنحى المونوغرافي.[19]

2 ـ تاريخ الأدب :

لعل جنس تاريخ الأدب هو الجنس الواصف للأدب الذي اشتد الخصام حوله كثيرا، لا في الأدب العربي فقط، ولكن في الآداب العالمية أيضا، إذ إنه جنس حديث العهد بالظهور[20]. وقد كان الصراع بين من تبنى فيه منهج التقسيم إلى عصور كجرجي زيدان ومن سار في دربه، وبين من خالفه الطريقة كالأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ الذي رأى أن هؤلاء يجعلون تاريخ الأدب العربي «حميلة على تواريخ» آداب اللغات الأعجمية[21]، لذلك أخذ الرافعي بمنهجة التقسيم إلى فنون أو أبحاث [22]ـ وبين هؤلاء جميعا وأصحاب كتب التراجم والطبقات لأن هذه «لا يصح أن تسمى تاريخا لآداب اللغة بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم»، حسب زيدان [23]، أو هي «أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب، ولا تذكر ماعرا النظم والنثر من تحول وتقلب».[24]

حين نرجع إلى الدكتور الجراري المؤرخ الأدبي نجد أن كتابه (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء الأول) يندرج ضمن جنس تاريخ الأدب، بامتياز، على الرغم من أن فصوله مقالات أو دراسات، كما أسلفنا.

وحين ننظر في هذه الدراسات نجد أنها تتخذ لها إطارا زمنيا هو سنوات السبعين؛ وبالضبط فقد كتبها صاحبها ما بين سنة 1974 و1976. أي أنها بوجه عام كتبت بعد صدور عمله الجامعي الأول عن أبي الربيع بعقد من الزمان، أو يزيد قليلا.

وحين صدرت في شكل كتاب سنة 1979، كان ذلك مؤشرا على أن صاحبها يرى الرابط المنهجي بينها، وهو رابط التاريخ الأدبي. ولا يضير تلك الدراسات، بعد هذا، إن كانت دراسات متخصصة في الأدب، حين نأخذها مستقلة، أو نقدا أدبيا يهتم بمسألة فكرية أو أدبية أو إنتاج شعري أو مسرحي. ولا ينقص من قيمة هذا التصنيف إن وجدنا أن الباحث في تقديمه للكتاب يقول : «في نطاق هذه المعطيات أقدم جزءا عن أدبنا، آمل أن تعقبه إن شاء الله أجزاء أخرى، لا أقصد منها إلى مسح لهذا الأدب أو إلى تغطية تاريخه وتتبع حركته على ما في كمه وكيفه من امتداد، ولكني أقصد إلى تناول جوانب من هذا التاريخ وذاك الأدب من خلال ظواهر وقضايا تشترك بتفاوت في تحقيق الكثير من أهداف المنهج الذي ارتأيت للبحث، وإن كنت طرحتها في مجالات ومناسبات علمية مختلفة».[25]

ولقد تمثلت في الكتاب الذي ضم ثمان مقالات أو دراسات، عدا المقدمة والفهرس، وهي على التوالي :

- وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي ص 11.
- نشأة الأدب العربي في المغرب (ظروفها ومظاهرها) ص 39.
- التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب ص 81.
- قضية المعتمد بن عباد ص 107.
- المولد النبوي في الأدب المغربي ص 139.
- بوادر التجديد عند شعراء المغرب العربي ص 169.
- الشعر المغربي في مرحلة النهضة ص 195.
- المسرح عند العرب والمغاربة ص 235.

ملامح منهج تاريخي أدبي متكامل، ومن ثم وفق صاحبه غاية التوفيق في ما عالجه من قضايا وظواهر. ويمكن اختصار هذه المزايا فيما يلي :

1) أن ما كان صراعا بين المحدثين من مؤرخينا وأصحاب التراجم والطبقات أصبح، عند دارسنا، وحدة تشكل ظفيرة منهجية منسجمة.

* وهكذا لم يبق عنده من منهج التراجم غيرما هو مهم في إضاءة الأحداث، كذكر سنوات الميلاد والوفاة للشخصيات الفكرية والأدبية، وذكر تواريخ أهم الأحداث السياسية والاجتماعية، كما في الدراسة الثانية من الكتاب، وسرد المؤثرات الأساسية التي تؤدي إلى إحداث مذهب أو اتجاه خاص في الشعر، كما يتجلى مثلا في تحديد المؤرخ لخصوصية الشابي ونزعته الانسانية التي شارك فيها المهجريين، من أنها كانت نتيجة لدوافع خاصة به، منها حبه لرفيقة عمره التي ماتت وتركت صورتها في قلبه وخياله، ومنها أزمته العاطفية وداء القلب الذي كان مصابا به، ومنها ظروف الوطن المحتل، ومنها محيطه الطبيعي الجذاب الذي هرب إليه فوصف غابه وضبابه.[26]

* أما منهج الطبقات فقد استبدل به دراسة الاتجاهات، أو أصبح عنده هذان مترادفين وهو ما ترشح به الدراسة السابعة الخاصة بالشعر المغربي في مرحلة النهضة.

وهكذا نجد الاتجاه التقليدي في الشعر والتقليدي الجديد ـ وهذه عنده طبقة ـ يأتي بعده «طبقة الشعراء الجدد... في سنوات الخمسين وفي أعقاب الاستقلال»[27]. وقد ضمت هذه الطبقة الجديدة الشعراء الاجتماعيين وشعراء التفعيلة (الشعراء الشباب)، ثم يأتي، بعد ذلك، دور الاتجاهات الشعرية الشكلية،

نجد القصيدة (تقليدية عمودية، وموشحات وأناشيد وأشعارا حرة) والقالب القصصي والمسرحي.[28]

* أما العاملان الزمني والجغرافي ـ الزمان والمكان ـ فإنه لم يغفلهما الباحث، غير أنهما أصبحا عنده مجرد إطارين ضروريين لحصر الظاهرة الفكرية والأدبية المدروسة.

وإذا كان العامل الزمني ومسألة التحقيب واضحة في الكتاب، إذ يبدأ المؤرخ بأقدم مرحلة من مرحل الفكر والأدب بالمغرب إلى آخر ما استحدث فيه من أجناس أدبية معاصرة كالمسرح، فإن العامل الجغرافي أعاره المؤلف اهتماما كبيرا، في تصوره المنهجي، وحجاجه، في مقدمة الكتاب[29]، وأثناء التطبيق، كما فعل، مثلا، مع الشابي، الذي ربط حبه للطبيعة بجمال تونس.

2) أنه إذا كان قد استبدل الظاهرة بالطبقة ـ وفي ذلك تجديد منهجي لعله يضاهي من استبدل المدرسة الأدبية في تاريخ الأدب العربي بمفهوم التقسيم إلى عصور أو فنون كما فعل د. طه حسين في تحديده للمدرسة الأوسية في الشعر العربي[30] ـ فإنه أضاف إلى البحث التاريخي مفهوم القضية، وهو يحدد بجلاء الفرق بين المفهومين : «ولم أكن أعني بالظاهرة غير الموضوع الذي نتج عن ظروف وشروط مضبوطة والذي تحددت ملامحه واتضحت سماته وشاع أمره، كما هو الشأن بالنسبة لأدب المولديات، في حين عنيت بالقضية كل موضوع شائك لم تتحدد سماته بعد، مع ما يثيره من مناقشات قد تتباين فيها الآراء، على حد ما كان يكشف حال الأدب في عهد المرابطين. واعتبرت أن كلا من الظاهرة والقضية - على ما بينهما من بون خارجي ـ يعتبر إشكالا أو مشكلا يحتاج إلى أن يضبط ويوثق ويشرح ويفسر ويحلل ويعلل ويستنتج منه ويربط بعضه إلى بعض»[31].

معنى هذا أن مفهوم القضية يختلف عن مفهوم الظاهرة من حيث الوضوح والغموض ومن حيث ارتباط ذلك الغموض وذلك الوضوح بقلة المصادر ووفرتها. ويبدو أن القضية تغلب على عصور أدبية بعينها كالعصر المرابطي أو العصور السحيقة.

3) من ميزات الكتاب كذلك أن صاحبه وقف عند العصور القديمة من التاريخ الحضاري للمغرب. فأول دراسة في الكتاب خصصها المؤلف لـ «وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي» الذي يرتد إلى أربعة آلاف عام على الأقل، بما «أن الانسان الأول الذي ظهر في افريقيا الشمالية هو أقدم انسان عثر على أثر له إلى هذا اليوم».

وقد كان نبش المؤرخ لهذه العصور من خلال الوثائق الأجنبية، لأن المؤرخين العرب أهملوا هذه الحقب. يقول :

«من بين قضايانا التاريخية والفكرية، تبدو قضية مغرب ما قبل الإسلام ذات أهمية كبيرة... وعلى الرغم من أنا لا نشك في أن الاسلام أعاد خلق المغرب وغير مجرى الحياة فيه، وفتح له آفاق حضارة وثقافة جديدتين، وجعله في نطاق هذه الآفاق يتحمل رسالة نهض بها خلال التاريخ ومازال، فإن وهم المؤرخين في فكرتهم يبدو سافرا لمن يطلع في أبحاث الدارسين من الأجانب، فيتعرف إلى تاريخ المغرب في المرحلة السابقة على الإسلام، ويجده حافلا بالأحداث وملامح الحياة، وبما يجعله يستحق أن ينظر فيه ويعنى به على الرغم مما يكتنفه من غموض واضطراب».[32]

والواقع أن الرجوع في تاريخ الأدب بالمغرب إلى ما قبل الفتوحات الإسلامية يعتبر ضروريا من الناحية المنهجية، في هذا الكتاب بالخصوص، وعند الدكتور

الجراري، بوجه عام، فالدوافع المنهجية إليه كثيرة، منها ماهو عام، وهو هذا الوجود الحضاري المغربي الحافل في العصور القديمة، ومنها ماهو خاص بأستاذنا، فإنه لا يؤرخ تاريخا تحقيبيا عاديا، ولكنه ـ إضافة إلى دراسته الظواهر، كما أسلفنا، يطرح الأسئلة حول الحلقات غير الواضحة من تاريخ المغرب الأدبي، أي أنه يسهم في معالجة قضاياه. وهذه العصور القديمة، لطولها وقلة المصادر حولها تعتبر مادة خصيبة له؛ وهو لا يؤرخ للأدب في معزل عن السياق الاجتماعي والحضاري الذي تنفس فيه وترعرع وتبادل معه التأثر والتأثير، ولكنه، كما سبق، يدرس البنية الأدبية في ارتباطها بالبنية الاجتماعية والحضارية الفاعلة فيها والمنفعلة بها معا، كل هذه العوامل كانت كافية لجعل أول دراسة في الكتاب تعرض هذه العصور القديمة، ولو لم يتضمنها الكتاب لكنا أحق بمساءلة الدارس عن سبب إغفالها، وهذا يفضي إلى ميزة رابعة تضمنها الكتاب وهي :

4) الانطلاق في تاريخ الأدب المغربي من مفهوم عام للأدب :

حينما نرجع إلى المؤلفات التي أرخت للأدب العربي في الربع الأول من القرن العشرين، وإلى مقدماتها خاصة وهي التي أفصح فيها المؤرخون عن المنهج الذي سيصطنعونه في عملهم، نجد أن الصراع المنهجي عندهم وهو الذي أفضى، تطبيقيا، إلى التاريخ حسب الأبحاث أو حسب العصور أو حسب المدارس، إنما يرجع، في أساسه، إلى المفهوم الذي أعطي للأدب عند هؤلاء الدارسين. فقد وجدنا من ينظر إلى الأدب بالمفهوم الذي شاع في التراث من أنه الأخذ من كل فن بطرف، أي بإدخال التاريخ والرحلات والعلوم الشرعية والعلوم اللسانية وغيرها إلى حظيرة الأدب؛ وهناك من يحاول أن لا يعير هذه العلوم العقلية أي اعتبار، ويقصر عمله علي الشعر والنثر الفنيين.

وعلى الرغم من أن الغلبة كانت في تلك الفترة للمفهوم الخاص حيث إن الذوق الأدبي، بوجه عام، كان ينصت إلى ما يقع خارج الخارطة العربية من تقلبات فكرية وفنية وأدبية[33]، فإن المفهوم العام للأدب، مع ذلك، لم يمت نهائيا، لا في بعض الأعمال التي اصطنعت منهج التاريخ حسب الأبحاث، ولا حتى في أذهان من اختار منهجا مخالفا[34].

وحين ننظر في أعمال أستاذنا الجراري وفي كتابه (الأدب المغربي...) بالذات، نجد أن المؤرخ يصدر عن المفهومين معا :

أما المفهوم العام للأدب فلربما يملك على أستاذنا كل الحواس، وله في ذلك اعتبارات؛ يقول :

«ويكتمل الإطار عندي بعناصر ثلاثة :

أولها : النظر إلى الأدب من خلال نوعيه المدرسي والشعبي.

الثاني : اعتبار مفهومه شاملا لكل الانتاج الفكري لأمتنا دون حصره في نطاق الشعر والنثر الفني كما يحدده الاصطلاح المدرسي الضيق لمدلول الأدب».[35] فهو لا يقنع بتوسيع دائرة المفهوم إلى الأدب الشعبي فقط، ولكنه يدخل فيه أيضا كل الإنتاج الفكري للأمة العربية، مما يجعل الجسور ممتدة بين القديم والحديث؛ بل أكثر من هذا يعتبر ما كان تجديدا في سنوات العشرين في مصر، وهو قصر الأدب على الشعر والنثر المؤثرين[36] من قبيل التعريف «المدرسي الضيق لمدلول الأدب»، ولو لم يكن له غير إحياء هذا المفهوم وتوظيفه في كتاباته لكفاه تجديدا في ميدان البحث المنهجي.

لم يكن هذا التجديد المنهجي، المرتبط بتجديد المفهوم الأدبي، جريا وراء الشهرة أو اكتساب البريق بالمخالفة، وإنما ترتبط المسألة بواقع الأدب المغربي وطبيعته، ذلك بأن الأدب، في أضيق حدوده، عندنا، لا يمكن الوصول إليه بسهولة، فهو غير مدون في مجاميع خاصة، ولكنه مفرق هنا وهناك، يقول :

«وإذا كان دارس الأدب قلما يقف على نصوص الإبداع مجموعة في دواوين، فإنه يضطر إلى البحث عن هذه النصوص وأخبار أصحابها موزعة في ألوان من المصادر متباينة، ككتب التاريخ العام والخاص، وكتب التراجم والطبقات، وكتب الجغرافيا والرحلات وكذلك في الفهارس والبرامج، وحتى في الكناشات وكتب النوازل الفقهية، فضلا عن الدراسات الحديثة والمعاصرة»[37].

ثم إن هذه المصادر تساعد في إلقاء الضوء على هذا الأدب، لأن الفكرة الكبرى التي تنتظم العلوم اللغوية والشرعية والفكرية فيها، بوجه عام، تنتظم الأدب أيضا. ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا ما مر من أن الأدب، عند الأستاذ، بنية فنية ترتبط ببنية اجتماعية وفكرية شاملة[38].

إذن لقد فرض واقع الأدب المغربي وطبيعته على الباحث أن يصدر عن هذا المفهوم العام للأدب، ولم يكن ذلك اختيارا مجانيا، وهذا المنهج هو الذي سيقضي بأن «يختار» الدارس المفهوم الخاص للأدب في بعض أبحاثه. والواقع أن الأستاذ الجراري، حين يجنح إلى دراسة قصيدة شعرية أو ديوان شعري أو نص نثري يغلب عليه الجانب الفني، فإنه لا يجد خيرا في أن يحصر زاوية الرؤية في الأدب بمعناه الخاص.

فهو حين ينشئ قصيدة شعرية[39]، يقدم لها بهذه الكلمات : «... إن الشعر تعبير عن ذات صاحبه ووجدانه وكشف ما يختلج في نفسه من عواطف انسانية. والشعر كفن وتجربة لا يصدر إلا إراحة لهذه العواطف وإشباعا لنهم هذه النفس وإرضاء لرغبة كامنة فيها...). وكأنه يريد أن ينطلق كل ناقد لقصيدة من هذه الزاوية الوجدانية، وأن يقيسها بمقياس الفن. ولعل هذا ما حدا به إلى دراسة شعر ابن زيدون، إذ قصر البحث على فنية التعبير في شعره[40].

ويكفي أن نقول في هذا الكتاب وفي هذا المفهوم الوجداني للشعر أن الأستاذ الجراري كان لا يرى غضاضة في هذا الشعر الذي يعبر عن الأحاسيس في أضيق حدود الذاتية، في وقت كان هذا المفهوم يقصى من الاعتبار بالمشرق العربي، ولا يهتم إلا بالأدب المرتبط بقضايا المجتمع.[41]

3) **النقد الأدبي** : يصعب تتبع النقد الأدبي عند الاستاذ الجراري لأن أعماله كلها ترشح به، فهو قبل أن يكتب موضوعا وبعد معالجته يحيل النظر في أفكاره الكبرى وجزئياته. ولعله في هذه المسألة لا يختلف كثيرا عن معظم الدارسين، أليس الأديب الناقد الأول لإنتاجه؟ غير أن تتبع الموضوعات التي طرقها الباحث يفضي الى حكم لا يختلف فيه المهتمون ببحوثه، وهو أن الرجل لا يعالج إلا ما يرى أنه أحق بالمعالجة وأجدر بالبحث والتمحيص. وقد أشرنا إلى أن سيره في الدرس يتخذ وجهتين : استخلاص ملامح ظاهرة فكرية أو أدبية حين تسعف النصوص والوثائق، وتحديد الأسئلة وصوغها بصدد قضية إذا عزت الوثائق أو اختلفت الرؤى حولها والمشارب. لأجل هذا نجد أن بحوثه، في جملتها، من حجم متوسط، لا لقصور فيه، فقد كتب بحوثا من أحجام كبيرة، كـ«القصيدة» و«أبي الربيع»

"الأدب المغربي...»، ولكن، وكما ذكرنا مرارا، فإن أسلوب الرجل في البحث أسلوب فريد، إذ لا يعرف الحشو ولا الاطناب أو الشقشقة الكلامية، ولا يحبها، على الرغم من أنه من أبلغ كتابنا المعاصرين.

وبما أن النقد الأدبي يسري كالنسخ في كل أعماله، فإننا ـ تجنبا للإطالة ـ سنكتفي، في هذه العجالة، بالوقوف عند نقطتين :

الأولى : تتعلق بمفهوم النقد في أعماله، ووظيفته، والغاية منه، وما يندرج تحته من «ألوان» أدبية، **والثانية** تعنى بمجموعة من المفاهيم النقدية التي غلبت عليه والتي أثرت في طلابه وامتدت إلى أعمالهم وبحوثهم.

أ – فأما **مفهوم النقد** فإنه يرتبط عنده بوظيفتين أساسيتين : التفسير والتوجيه، أي فهم النص في مختلف مستوياته، وما يرشح به من ظواهر فكرية وفنية، أو ما يطرحه من إشكال بخصوص قضية فكرية وأدبية، ومن ثم يتم توجيه الفكر الأدبي إلى مجالات لقيت إغفالا أو تجاهلا من قبل الدارسين، ولفت الأنظار إليها.

وقد يبدو فهم النص الأدبي أمرا يسيرا، والواقع أنه، من خلال المفهوم النقدي الذي نحن بصدده، ليس كذلك، فإن مسألة الفهم شائكة ومعقدة، إذ بالإضافة إلى فك مغلقات النص الجزئية من لغة ومعجم وما إلى ذلك، يجنح الناقد إلى الدلالة السياقية التي تتحقق لديه من خلال مستويين : مستوى ربط أجزاء النص بعضها ببعض بواسطة توظيف منجزات النقد العربي القديم، واستثمار مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني خاصة، ومستوى ربط النص بالعلم أو الفن الذي ينتمي إليه من نحو وبباقي الفنون والعلوم الأخرى من نحو ثان، وبكل هذا المعمار الفني والبنية الاجتماعية والحضارية التي يقع تحت شروطها من نحو ثالث.

فبعد أن عرض مفهوم الجرجاني للصياغة و«أن سبيل المعنى الذي يعبر عنه ـ الشعر ـ سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار» (الاعجاز ص 89) علق عليه بقوله الذي يتضح منه اتفاقه معه :

«هذا جانب فقط مما يمكن النظر فيه والاستئناس به إن لم نقل الانطلاق منه وتطويره في سياق الاتجاه اللغوي وحتى الشكلي الذي جاءت به بعض النظريات الجديدة.»(42)

ويمكن نعت هذا السياق الذي تجري فيه هذه القراءة بأنه سياق خاص، ويغلب عليه التفسير، إذ غالبا ما يلجأ إلى جزئية في النص لفك غموض أو ترسيخ فكرة أو تزكية وجهة نظر. على أن السياق الخاص قد لا يفي بكل الحاجة أو قد تتعدد القراءات فيه فيحتاج إذ ذاك إلى ربط النص، وسياقه الخاص، بسياق عام؛ وهنا يخرج الناقد من عملية التفسير إلى عملية التأويل، وفق شروط يحددها الناقد هكذا :

«أعود فألفت النظر إلى أني حين أقول قراءة هذه النصوص، فإني أفترض قراءة قد تختلف عن قراءة غيري من الدارسين، أي أنها لن تكون قراءة واحدة أو موحدة. فقد أقرأ نصا، وقد يقرأ زميلي نفس النص برؤية أخرى وبأدوات مختلفة، وينتهي إلى ما أصل إليه أو إلى غيره، ثم إن هذه القراءة قد تلجئ أحيانا إلى التأويل، ولكن ينبغي أن نتفاهم حول مدلول التأويل بالنسبة لهذا النوع من النصوص، فهو عندي لا يعني طرح تصور أو افتراض معين ومحاولة فرضه بتعسف وافتعال على النص، ولكن يعني التأويل الذي ينبثق من القراءة أي من

مغلقات النص ومن الاجتهاد في فتحها بالفهم الذي يوافق السياق العام. والسبب أني أربط الأدب بل المعرفة كلها بمجال متحرك لا يقبل الثبوت والجمود..».[43]

هذا ما يتعلق بالوظيفة، فما الغاية من كل هذا ؟ :

يمكن أن نشير، باختصار إلى أن الغاية من النقد، هنا، هي في واقع الأمر غايتان : قريبة، وبعيدة، أما القريبة فمفادها أن تستكمل الحلقات الأدبية في تاريخ المغرب الأدبي، من خلال بحث القضايا والظواهر؛ وهي غاية ذات حس وطني، أي أنها محاولة لبناء كيان ثقافي وطني ضدا على الإهمال الذي تعرض له الوطن خلال فترات من التاريخ الحديث، بسبب الاستعمار؛ وفي هذا يلتقي النقاد مع أهداف الحركة الوطنية في مجال الأدب التي دشنها الرعيل الأول من الدارسين للأدب المغربي، منذ سنوات العشرين والثلاثين؛ وضدا على المغالاة أو التقصير الذي تعرضت له حقب قديمة في هذا الأدب ذاته؛ وأما الغاية البعيدة فمحاولة ربط الأدب المغربي بالأدب العربي ككل : «أقصد بالوطني ألا تنتهي الدراسة إلى التفكيك والتجزئ والتشتيت؛ وهو قصد أربطه بما سبق أن قلته في البداية عن المفهوم المتسع الذي أنظر إلى الأدب من خلاله. فبقدر ما أوسع نطاق هذا المفهوم لقبول جميع أنماط الأدب وأشكاله وألوان تعبيره في الدراسة، أخشى على هذا الأدب أن ينتهي إلى... مجموعة من الكيانات الأدبية الصغيرة، بحكم البيئات المتعددة والمتنوعة التي تبدع الأدب والفن والفكر، وتغني الحركة الإبداعية بصفة عامة في هذا البلد. وأقصد بالمستوى العربي أن تحاول الدراسة ربط قنوات للاتصال أو الوصل بين الأدب المغربي في مختلف أنماطه، بما في ذلك النمط الشفوي، وبين الأدب العربي ككل».[44]

غير خاف، إذن، أن نقدا كهذا، في وظائفه وغاياته، سيشمل كل الإنتاج الأدبي والفكري الذي كتب بالعربية، والذي يؤهله المقياسان الفكري والفني، وحدهما، لاحتلال المنزلة التي تجعل النقد ينشغل بها ويطمح إليها. من أجل هذا عني ناقدنا بالأدب الرسمي، شعرا ونثرا، وبالأدب الشعبي، إضافة إلى ما عرفه اللون الأول من تغيرات في موضوعاته وأشكاله، كالتوشيح والزجل وما إلى ذلك.

ومن أجل هذا لم يقتصر هذا النقد على المقاييس الفنية التي اعتورها النقد العربي على اختلاف مراحله، بل لربما كانت الافضلية في منهاج أستاذنا النقدي تغليب الرؤية العقلية للنصوص على النظرة الفنية المحض : «ويقضي محتوى المنهج عندي كذلك أن أنظر إلى تلك القضايا والظواهر من زاوية تعطي الأسبقية للتمثل العقلي على النقد التأثري أي بنظرة فكرية عقلانية وليس إلى مجرد التذوق الفني النابع من الاحساس الجمالي والتأثر العاطفي والانفعال الانطباعي بالأثر المدروس، وإن كنت لا أنكر أهمية المنهج الفني وجدواه بالنسبة لنوع معين من الموضوعات. وقد سبق لي أن جربته في بعض الأبحاث».(45)

ولئن كانت هذه الرؤية العقلية تشكل عصب الشق الإجرائي في العملية النقدية عند الأستاذ الجراري، وتلحم عنده المنهج النقدي المتكامل الذي يعني الرجوع إلى التراث والتفتح بوعي وعمق على تراث الغرب من جهة(46)، وتوظيف بعض العناصر النفسية والاجتماعية والبنيوية واللغوية، وبعض أدوات الدراسات الاجتماعية والأنثربولوجية(47) فإن المنهج النقدي لديه، ككل، وبكل تلك المواصفات السابقة، لا يكتمل إلا بالشق التصوري، ويقصد به الناقد تلك : «الجوانب اللامرئية التي تكون في وعي الباحث سواء أفصح عنها أم لم يفصح والتي تساعده على تكوين الرؤية وعلى تحديد الهدف».(48)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن النصوص ـ الوثائق هي وحدها التي تولد هذا التصور؛ وهي وحدها التي تفرض غلبة منهج من المناهج المساعدة السابقة، على غيرها، في عملية القراءة؛ وهي أيضا، أخيرا، التي يعتمد عليها في صوغ الأحكام النقدية، وهذه هي التي نود أن نقف عندها، قليلا.

ب – الأحكام النقدية :

لا نريد القيام بجرد عام لهذه الأحكام، بقدر ما نبتغي إعطاء نماذج منها، تمثيلا. من ذلك مثلا : أننا نجد لأستاذنا حكما نقديا مفاده أن المغاربة عرفوا الحضارة في فجر التاريخ، من معمار ونقوش وزخارف وزليج وما إلى ذلك، كما عرفوا المسرح خاصة على الطريقة اليونانية[49]، ومن ذلك أيضا أن الأدب في المغرب لم ينهض إلا في القرن الرابع[50]، وأن ما سبق هذه الفترة من انتاج كان ضعيفا، أو كان مشرقيا بالروح والعقلية ومستوى التعبير، كما كان على عهد الأدارسة[51]، ومن ذلك أيضا أن المرابطين لم يخنقوا الفكر ولا الأدب نتيجة جهلهم أو جمودهم، كما شاع عند المشارقة وبعض المستشرقين، وإنما أحيوا الفكر ونشطوا الحركة الأدبية [52]، كما أن الأدب لم ينحط مع الموحدين بسبب مذهبيتهم[53]. ومن تلك الأحكام النقدية كذلك أن مدرسة البعث الصحراوية كانت أسبق من المدرسة الاحيائية المصرية وأكثر تمثلا للشعر القديم الجاهلي والأموي[54]؛ ومن ذلك أيضا أن الأدب في المغرب العربي لم يكن ظلا للأدب في المشرق العربي في عصر النهضة، وإنما كان ثمرة لعوامل نفسية واجتماعية وبيئية كما يتجلى ذلك في شعر الشابي خاصة[55]؛ ومنها أخيرا، أن التوشيح لم يضف إليه المشارقة شيئا بل جمدوه، حتى كاد يموت عند هؤلاء، لولا أن أحياه وشاحو المغرب الكبير»[56].

هذه، باختصار، بعض المجالات التي خاض فيها الاستاذ الجراري في مجال الدرس الأدبي. وحين نمعن النظر نجد أن مشروعه في درس الأدب المغربي كان مشروعا شاملا جمع بين النقد وتاريخ الأدب والدراسة الأدبية، كما نجده باحثا متميزا؛ ذلك بأن عملية البحث، عنده، تنطلق مما انتهى إليه السابقون، فيقر ما تقره النصوص والوثائق، ويعيد النظر في ما تظن به النصوص، وفي ما تفتقر إليه الأحكام، دونما سند من واقع أو إثبات، ويحاول، في صبر وأناة، لحم الجسد الأدبي المغربي، بوضع اللبنات التي تساعد في إضاءة العصور، وتبين الاتجاهات، وتحبيب النصوص الأدبية والفكرية، على اختلافها، إلى الباحث، واستشارتها وحدها، في رصد الظواهر وطرح القضايا.

ولئن كانت بعض الأحكام والآراء النقدية قد سبق إليها في كتابات اهتمت بالأدب المغربي، «النبوغ» خاصة، فإن أستاذنا لم يكتف بتلك الأحكام فقط، بل طورها وأدار حولها بحوثا ودراسات، ووجه طلبته إليها. ويكفي أن نشير إلى أن فكرته حول الأحياء بجنوب المغرب والصحراء التي وردت في النبوغ ج 1 ص 285 ط 3، قد وضع فيها كتابه «ثقافة الصحراء»، كما أشرف أو وجه إلى بحوث في هذا الإطار، منها بحث د. أحمد مفدي «الشعر العربي في الصحراء المغربية...» وبحث ذ. محمد الظريف «الحياة الأدبية في الزاوية المعينية وبحث صاحب هذه الدراسة بعنوان «بناء النص الشعري عند المغاربة في العصر الحديث، شعراء سوس نموذجا..، وغيرها كثير وكثير.[57]

إن باحثا بهذا الحجم، جدير بأن يعد، إذن وبحق، رائد بل عميد الأدب المغربي.

* * * *

هوامش :

1) انظر على سبيل المثال فقط، الأعمال الخاصة بتكريمه بكلية اللغة العربية بمراكش في مجلة : حوليات كلية اللغة العربية ع 2، 1414 هـ-1993م.
2) نظرية الأدب، لا وستين وارين ورونيه ويليك، ط 1 سنة 1948.
3) مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، عالم المعرفة، فبراير 1987. الكويت.
4) انظر على سبيل المثال، أدونيس : زمن الشعر، ط 2، 1978، ص 27-51.
5) الطبعة الأولى، 1979 عن مكتبة المعارف، الرباط.
6) الطبعة الأولى، 1990، مطبعة مونتريال، منشورات السفير.
7) رونيه ويليك ووارين، ترجمة محيي الدين صبحي ومراجعة حسام الخطيب ط 3، ص 93.
8) نفسه.
9) الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره حياته وشعره، دار الثقافة 1974، ص 5.
10) نفسه ص 6.
11) النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 3، ج 1 ص 127.
12) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط 1 ـ ج 2 ص 405.
13) أبو الربيع... ص 174.
14) نفسه من ص 66 إلى ص 100.
15) نفسه ص 179-180 وقد اتضحت عنده أكثر في كتابه (الأدب المغربي...) يقول : «وإذا كان للأدب ـ باعتباره بنية ابداعية ـ يرتبط في أشكاله ومضامينه ببقية بنيات المجتمع الذي ينبغ فيه مبدعوه، فإنه...» ص 3 من المقدمة.
16) نفسه ص 100.
17) نفسه ص 110.
18) د. طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف ص 53-55.
19) انظر نماذج لذلك في كتابه خطاب المنهج، ص 99-117.
20) حسين الواد، في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، دار المعرفة للنشر تونس 1980، ص 91 ويجعل الباحث منهج التقسيم إلى عصور يبدأ بفرنسا على يد اندريه دوشيسن سنة 1733، ومن ثم تبعه المستشرقون والعرب في وضع تواريخ في العربية وفق هذا المنهج، وانظر كذلك جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية 1 : ص7.
21) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب 18/1. مط. الاستقامة 1938.
22) نفسه ص 24 ج 1.
23) نفسه ص 8 ج 1.
24) الزيات (أحمد حسن)، تاريخ الأدب العربي ص 4، وانظر حسين الواد. م.م. ص 82.
25) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص 10.

26) نفسه ص 188.
27) نفسه ص 215.
28) نفسه ص 221-222.
29) نفسه ص 8 الفقرة الثالثة خاصة.
30) طه حسين في الأدب الجاهلي، ص 63. وانظر أيضا ص 291 حيث يبين التنافس بين المدرسة المضرية بزعامة أوس بن حجر ومدرسة الشماخ وحسان بن ثابت والمنخل.
31) د. عباس الجراري، خطاب المنهج، ص 68 وانظر أيضا مقدمة الأدب المغربي ص 3-6.
32) نفسه ص 13.
33) نشير هنا – على سبيل الاستئناس – إلى أن الرمزية والسوريالية كانتا آخر ما عرفته الآداب من تجديد في أعقاب الحركة الرومانسية بغرب أوروبا؛ أما شرق أوروبا فكان يتنفس الأجواء الشكلانية بكل ما كانت تضمره وتعلنه من عداء تجاه ربط الأدب بأي موضوع خارجي، سوى الأدب ذاته.
34) قارن في هذا، مثلا بين مقدمة الرافعي لكتابه من جهة، ومقدمة زيدان والزيات لكتابيهما، من جهة ثانية.
35) الأدب المغربي، ص 8-9.
36) عرف طه حسين الأدب هكذا : الأدب «هو هذه الآثار التي يحدثها صاحبها لا يريد بها إلا الجمال الفني في نفسه. لا يريد بها إلا أن يصف شعورا أو إحساسا أحسه أو خاطرا خطر له، في لفظ يلائمه رقة ولينا وعذوبة أو روعة، وعنفا وخشونة. هو هذه الآثار التي تصدر عن صاحبها كما يصدر التغريد عن الطائر الغرد، وكما ينبعث العرف من الزهرة الأرجة، وكما ينبعث الضوء من الشمس المضيئة» في الأدب الجاهلي ص 33؛ وقد التقت هذه الفكرة أو هذا المفهوم بدعوة جماعة الديوان التجديدية بربط الشعر بالوجدان، واستمر هذا المفهوم الضيق للأدب بعد ذلك في أعمال تاريخية أدبية ككتابي د. شوقي شيف ود. عمر فروخ بعنوان : تاريخ الأدب العربي.
37) الأدب المغربي... ص 5.
38) انظر هامش 14 من هذا البحث.
39) انظر «دعوة الحق» س 63، ص 54، تقديم قصيدة «أصحيح مات حبي؟»
40) د. عباس الجراري، فنية التعبير في شعر ابن زيدون، مكتبة النجاح الجديدة ط 1، 1977، الرباط.
41) يبين د. عبد القادر القط أن «الأدباء والنقاد في تلك الأيام – أواسط الخمسينات – قد تعودوا أن ينظروا إلى « الرومنسية» على أنها نعت غير مقبول». انظر كتابه : في الأدب العربي الحديث، القاهرة 1978 ص 82-84، نقلا عن كتاب د. شكري محمد عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، عالم المعرفة رقم 177، ص 35.
42) خطاب المنهج، ص 28-29.

43) نفسه، ص 70-71.
44) نفسه ص 72.
45) الأدب المغربي... ص 9.
46) خطاب المنهج، ص 31.
47) نفسه، ص 71.
48) نفسه ص 73.
49) الأدب المغربي... ص 23 وص237 وانظر كذلك كتابه : من وحي التراث ص 100.
50) نفسه، ص 67.
51) نفسه، ص 50.
52) نفسه، ص 64-106.
53) الأمير الشاعر... ص 238-239.
54) نفسه ص 181، وانظر أيضا محمد المختار المداح : «خواطر حول أدب الصحراء المغربية»، حوليات كلية اللغة العربية بمراكش القسم الثاني ص 181 وما بعدها، وأيضا، ماء العينين النعمة علي «الشعر العربي في الصحراء المغربية ودوره في حركة البعث والاحياء الأدبي (نفسه ص 187).
55) الأدب المغربي... ص 188.
56) نفسه ص 174-175.
57) انظرها في خطاب المنهج، ص 99-117.

****

مجالات التأسيس في البحث العلمي عند الأستاذ الدكتور عباس الجراري

الدكتور مصطفى رمضاني(*)

يعد الدكتور عباس الجراري عَلَما من أعلام الفكر والأدب في المغرب، إذ تتميز شخصيته بالتنوع والخصوبة، إلى درجة يحتار معها المرء في اختيار مجال منها، ما دام كل مجال يغري بالحديث ويمنح للمتحدث إمكانيات فسيحة لإبراز طول باعه ومواطن تميزه.

وقد فضلت أن أركز على مجال واحد في شخصية أستاذي الفاضل الدكتور عباس الجراري، سميته مجال التأسيس. وهو مجال يتضمن في حد ذاته مجالات أختزلها فيما يلي :

1 ـ مجال تأسيس البحث الجامعي الأكاديمي

2 ـ مجال تأسيس هوية الأدب المغربي

3 ـ مجال تأسيس الوعي بأدب الصحراء المغربية

4 ـ مجال تأسيس درس الأدب الشعبي في الجامعة المغربية

5 ـ مجال تأسيس المنهج الإقليمي لدراسة الأدب المغربي

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة.

إن فعل التأسيس لا يعني إطلاقا فعل الخلق على غير سابق إنجاز، وهذا يعني إقصاء كل الأفعال المنجزة بدون سبق إصرار كما يقول رجال القانون، أي تلك التي تتضمن وعيا قبليا بذلك الفعل، أو غاية محددة توجهه، دون أن يعني ذلك إطلاقا معنى الإقصاء أو الإلغاء.

أولا : مجال تأسيس البحث الجامعي الأكاديمي بالمغرب

فالأستاذ الجراري أحد مؤسسي البحث الأكاديمي في الجامعة المغربية. وفضله في هذا المجال الأول صار جزءا من الذاكرة التي تدرج ضمن عيون التاريخ الوطني. وتتوزع هذا التأسيس نفسه اهتمامات علمية تشكل في حد ذاتها تأسيسات فرعية نذكر منها :

1 ـ التدريس بالجامعة، إذ يعتبر الجراري من أوائل الأطر الوطنية التي دشنت عملية التدرسي بالجامعة المغربية مع بداية الستينات، إلى جانب ثلة من زملائه الذين يمثلون اليوم مرجعا في هذا الباب.

2 ـ الإشراف والتأطير : وتفيد الإحصائيات التي قدمت في هذا الشأن أن الأستاذ الجراري يأتي في طليعة الأساتذة الذين يشرفون على أكبر عدد من الأطروحات والرسائل الأكاديمية. وأغلب الأطر الجامعية التي تؤطر البحوث الأكاديمية في الجامعات المغربية ـ وفي كثير من الجامعات العربية ـ تدين له بهذا الفضل، حتى ليصدق أن نستعير ما قيل عن غوغول، فنقول نحن الباحثين الشباب «كلنا خرجنا من معطف الجراري». وتمتد هذه العملية على ثلاثة عقود كاملة من الزمن. وما زال يخرج من معطفه العلمي سنويا عشرات من الطلبة والباحثين أطال الله عمره ومتعه بالصحة والعافية.

3 ـ تأسيس السلك الثالث تخصص أدب مغربي : لا أحد ينكر الجهاد الذي خاضه الجراري لتأسيس هذا التخصص مع بداية السبعينات، في وقت كان فيه الأدب المغربي يدرس بالجامعة المغربية على هامش الأدب العربي، باعتباره أدبا لا يرقى إلى مصاف الأدب العربي في المشرق. وكان على الجراري أن يفند هذا الادعاء أولا، ويبرهن على أصالة الأدب المغربي وأدبيته ثانيا، ويؤسس فرع السلك الثالث تدعيما لموقفه الذي هو موقف وطني في نهاية المطاف، ومسؤولية تاريخية لا يمكن أن يضطلع بها إلى من تربى في مدرسة الوطنية. والجراري من خريجي هذه المدرسة ومؤطريها بعد ذلك.

لهذا فقد نذر جهده لتحمل هذه المسؤولية بكل حزم منذ بداية ولوجه عالم الجامعة.

يقول : «لأمر ما، لست أدري أهو من حسن حظي أم سوئه إذ هو ذو حدين، ارتبطت التجربة المنهجية عندي منذ بداية تكوينها بممارسة البحث العلمي في الأدب المغربي وبمزاولة تدريس هذا الأدب في الجامعة المغربية. كان ذلك منذ فترة تزيد عن عشرين سنة لعلها نحو ربع قرن. الأدب المغربي يومئذ لم يكن معروفا، فضلا عن أن يكون معترفا به، أو لأقل إنه كان يجتاز فترة غموض. والبحث العلمي كان في فترة مخاضه الأول. والجامعة في بداية تأسيسها، والفكر المغربي بصفة عامة في أولى مراحل البحث عن الذات.

وحين سعيت إلى تدريس مادة الأدب المغربي، كان الأمر بالنسبة للكثيرين، سواء من الزملاء الأساتذة أو من القائمين على شؤون الإدارة، لا يعدو أن يكون من قبيل الترف أو الطرافة، إما لإيمانهم بأن هذا الأدب غير موجود، أو لاعتقادهم

بأنه حتى إن كان موجودا فهو غير ذي قيمة، ولا يستحق أن يختلف الطلاب إلى فصول الجامعة لتلقيه وتدارسه. ولكن الأمر بالنسبة لي كان أكثر من ذلك. أي يتجاوز هذا الضرب من التفكير، إذ كان مسؤولية ما لبث أن اتسعت آفاقها وتضخمت تبعاتُها وانتهت إلى ما أصبحت عليه الآن مما هو معروف لدى الجميع»[1].

والجراري نفسه يصف هذه العلمية بالتأسيسية حيث يقول : «وانتهت هذه الفترة التأسيسية الأولى، ودخلت الجامعة مرحلة ثانية للتأسيس المتمثل في إقامة البناء، وتم ذلك في اتجاهين :

الأول : تقرير درس الأدب المغربي، أي تدريسه في مختلف أسلاك الجامعة، مع تخصيص شعبة له في الدراسات العليا.

الثاني : فتح مجال البحث والدراسة في هذا الأدب»[2].

كما يؤكد الطابع الوطني لهذا التأسيس، وحجم المسؤولية التي كان يحس بها هو ورفاقه من الباحثين الذين جعلوا من مسألة الاهتمام بالأدب المغربي قضية وطنية والتزاما تاريخيا فيقول :«لقد تحول الدرس الأدبي إلى رسالة نابعة من الشعور بمسؤولية تنطلق من الجامعة لتعانق اهتمامات الأمة وهمومها وما يشغلها من طموح، وهو شعور تحول في هذه المرحلة إلى شبه نظام وانضباط، وإن في غير تخطيط ملزم»[3].

ثانيا : مجال تأسيس هوية الأدب المغربي

وهذا الاهتمام يجرنا إلى الحديث عن المجال الثاني الذي سميناه مجال تأسيس هوية الأدب المغربي. فالأستاذ الجراري هو عميد الأدب المغربي، إذ كلما

ذكر الأدب المغربي إلا وذكر مقرونا باسمه. فهو عمدة في هذا الباب. ومؤلفاته فيه تعد مصدرا لا غنى للباحث عنها.

وقد أشرنا من قبل إلى أنه جاهد من أجل أن يكون هذا الأدب في المركز بدلا من أن يكون في الهامش فقط. ودافع عنه بالكتابة والتوجيه والإشراف والتنظير، حتى تحول الإبداع المغربي عنده إلى هاجس وقضية والتزام وجهاد. ولا أدل على ذلك من كونه حول بيته إلى ناد أدبي يضطلع بمهمة تدارس قضايا الأدب المغربي، واستمرار للنادي الأم الذي أسسه والده - رحمه الله - وسمي بالنادي الجراري، فكان بمثابة الخلية إلى توجه الفكر وتنير الوعي وتربي الأذواق. وما زال الدكتور عباس الجراري يشرف على هذا النادي بنفس الأهداف التي رسمها منذ انطلاقته الأولى.

والحق أن لهذا الالتزام بقضية الأدب المغربي مبررات موضوعية يمكن إجمالها فيما يلي :

أ - تربيته الأدبية والعلمية داخل الأسرة : فقد كان والده المغفور له عبد الله الجراري من أوائل الأدباء الذين اهتموا بالأدب المغربي، إذ كتب مؤلفات تؤكد العبقرية الوطنية إلى جانب بعض الأدباء المغاربة الرواد، نحو أحمد النميشي ومحمد الحجوي وعبد الله القباج ومحمد السايح وإبراهيم الإلغي ومحمد بن عباس القباج وعبد الله كنون ومحمد الفاسي والحسن السايح ومحمد بن تاويت وغيرهم...

فقد كان لوالده الدور الواضح في توجيهه نحو الاهتمام بالأدب المغربي. ولما كان الحس الوطني هو الذي حكم مسيرة والده الفكرية والأدبية، فكان طبيعيا أن يكون هذا الشبل من ذلك الأسد.

ب ـ دحض الآراء التي تنفي الأدبية عن الأدب المغربي، ذلك بأن الرأي الذي روجه كثير ممن كتبوا عن الأدب المغربي ـ ولا سيما شعره، ومنهم بعض المشارقة ـ كان يذهب إلى تأكيد الطابع الفقهي والنظمي عن الشعر المغربي : أي غياب سمة الشعرية. وكان على الجراري أن يقوم بنفي هذه المزاعم، وذلك بتقديم الأدلة على شعرية الشعر المغربي وأدبية أدبه عامة. لذلك تصدى لها فكتب ما ينيف عن عشرين كتابا في هذا الصدد، فضلا عن كتبه المختلفة التخصصات، واعتبر موقف بعض المشارقة من هذا الأدب المغربي موقفا يفتقر إلى العلمية لسببين :

«**أولهما** : الجهل. فهم لا يعرفون أولا يريدون أن يعرفوا ما عند غيرهم، وأظن أننا نحتمل في ذلك قسطا من المسؤولية.

الثاني : روح التنقيص التي ينظرون بها دائما إلى أعمال المغاربة»[4].

ج ـ التعريف بالأدب المغربي والكشف عن مواطن النبوغ فيه :

فمنذ انطلاقته الأولى في البحث العلمي الأكاديمي، اتجه الجراري إلى المغربيات ليبرهن على النبوغ المغربي من خلال كشف الجوانب التي تجعل من الأدب المغربي شعره ونثره أدبا له من المميزات ما يجعله راقيا في مكوناته الجمالية، يحذوه في ذلك هاجس وطني وإحساس بالمسؤولية، باعتباره وطنيا متحمسا لترسيخ أسس المجتمع المدني في مغرب ما بعد مرحلة الاستقلال، وكذا من خلال طلبته إلى الاهتمام بهذا الأدب الرسمي منه والشعبي.

وقد جعل من بين أهدافه الأساسية، التعريف بالأدب المغربي، ومن خلال الشخصية الوطنية ما دام كل تراث كما يقول : «هو عنوان شخصيتها الوطنية يعبر عن قدرة عقليتها ويحدد مدى عبقريتها»[5]، وما دام هذا التراث الأدبي يمتد

على مساحات زمنية متعددة، ويتربع على أجناس وظواهر وقضايا أدبية متنوعة وكثير منه ما زال يعاني الضياع والبتر. وهو أمر كان وراء ما يروج من أحكام تنقص من قيمته كما رأينا مع بعض الدارسين.

يقول د. الجراري : «الملاحظة الثانية : أن هذا الأدب - على امتداده واتساعه وتنوعه - يعاني مشكل البتر، وقد تجلى لي هذا البتر في جانبين أساسيين : فهو يمس السياق التاريخي بما فيه من تقطع وتعثر، ثم هو يمس ضياع المادة أو المواد التي ضاعت من أدبنا أو هي في كم الضائعة»[6].

وقد سعى الجراري إلى البرهنة على أن الأدب المغربي كالآداب العالمية الأخرى له مكوناته الأساسية المعرفية والجمالية والفكرية، وله أيضا سياقه الخاص الذي يشكل مجال تميزه[7]، وينبغي للدارس أن يراعي هذا السياق أثناء الكشف عن مواطن النبوغ فيه ومظاهر العبقرية وخصوصية الشخصية المحلية.

وفضلا عن كل ذلك، فالأستاذ الجراري باعتباره أديبا، له من الحق ما لغيره من الأدباء في نشر المعرفة وتطوير الوعي الفكري والجمالي، وترسيخ القيم النبيلة، وتعميق المفاهيم والرؤى، وتحسين الذوق الفني. وكان من الطبيعي أن يمتطي صهوة الأدب المغربي حتى يجعل منه الوسيلة والغاية في نفس الوقت.

وتدعيما لهذا الموقف الوطني، فضل الأستاذ الجراري دراسة الأدب المغربي عبر قضايا وظواهر وشخصيات، لأنها في نظره هي المواطن التي تبرز صفات النبوغ والعبقرية. لأجل هذا وجدناه ينتقي بذكاء عناوين كتبه ومقالاته، لتظل مسألة النسبة إلى المغرب حاضرة باستمرار وبشكل مركزي، إذ نجد عناوين مثل "الزجل في المغرب"، و "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، و"قضية فلسطين في

الشعر المغربي"، و"معالم مغربية" و"وحدة المغرب المذهبية" و"موشحات مغربية"، و"بحوث مغربية في الفكر الإسلامي".... إلخ.

وفضلا عن صيغة النسبة هذه، نجد ما يؤكدها صراحة كما هو الحال مع كتبه التي تتحدث عن شخصيات مغربية مثل : "الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي"، و"العالم المجاهد عبد الله بن عباس الجراري"، و"عبقرية اليوسي"، أو أبحاثه المتنوعة التي أبرز فيها ذلك النبوغ من خلال شخصيات وطنية كعلال الفاسي، والمكي الناصري، وأبي شعيب الدكالي، ومحمد الفاسي، وإبراهيم الإلغي، والحاج امحمد باحنيني، ومحمد الروداني وغيرهم... ثم أفرد مؤلفات وأبحاثا في هذا المجال من خلال ظواهر وقضايا فنية كما هو الحال في كتبه : "من وحي التراث"، و"الأدب والحرية"، و"النضال في الشعر العربي بالمغرب"، و"في الإبداع الشعبي"، و"مصطلحات الملحون الفنية"، و"الثقافة من الهوية إلى الحوار"، و"الفكر والوحدة"، و"خطاب المنهج"، و"مع المعاصرين"، و"صبابة أندلسية" وغيرها... طبعا إلى جانب كثير من الدراسات والمحاضرات التي تنحو هذا المنحى، والتي لم تجمع بعد في كتاب مستقل.

ومن بين تلك القضايا التي تعد من بين مجالات التأسيس في هذا الباب، نجد قضية المسرح المغربي، ذلك بأن الأستاذ الجراري يأتي في طليعة الباحثين الذين انتبهوا إلى ما يطلق عليه صفة الأشكال الماقبل مسرحية، إلى جانب بعض أساتذتنا الأجلاء كالدكتور حسن المنيعي والحسن السايح وعبد الله شقرون والمرحوم عبد الله كنون.

فقد ظهرت كتابات هؤلاء في فترات متقاربة خلال أواسط السبعينات. وتعتبر هذه الكتابات المصادر التأسيسية للخطاب النقدي والتاريخي للمسرح المغربي

عامة. وقد جاء اهتمام الأستاذ الجراري بهذا الجانب الأدبي الفني في سياق اهتمامه بابراز الشخصية الوطنية، ومجالات الإبداع عندها بمختلف أجناسها الأدبية والفنية، وتنوع صيغها وأشكالها الرسمية والشفوية.

ثالثا : مجال تأسيس البحث في أدب الصحراء المغربية

أما المجال التأسيسي الثالث، فهو مجال البحث الأكاديمي في أدب الصحراء. ولا يخفى على أحد هذا المجال البكر، كما لا يخفى بعده الوطني. وقد جاء اهتمام الدكتور الجراري بهذا الموضوع في سياق اهتمامه بالشخصية الوطنية وتراث الأمة ضمن المحور العام الذي هو الأدب المغربي. فباستثناء الدراسات التي قام بها الأدباء الذين ينحدرون من الصحراء المغربية أو من جنوب المغرب عامة، مثل محمد البيضاوي الشنجيطي وشبيهنا حمداتي ماء العينين، وأحمد بن الأمين الشنجيطي، والشيخ النعمة، والعلامة المختار السوسي، وكذا بعض الأبحاث النادرة لباحثين آخرين كالأستاذ عبد العزيز بن عبد الله وزين العابدين الكتاني، لا نكاد نجد اهتماما جادا بأدب الصحراء.

وكان للأستاذ الجراري فضل تأسيس البحث الأكاديمي في هذا المجال، وذلك بما ألفه أو أشرف عليه. وفي هذا الصدد نشير إلى الكتابين الهامين اللذين خصهما بالحديث عن أدب الصحراء : الأول بعنوان "ثقافة الصحراء"، والثاني "شعر الصحراء".

أما في مجال الإشراف، فقد عمد إلى توجيه طلبته إلى البحث في هذا الموضوع البكر، نظرا إلى ما يكتسبه من أهمية وطنية وفكرية، فضلا عن الأهمية الفنية طبعا. وفي هذا الصدد يبرز اسم الأستاذ أحمد مفدي الذي دشن هذه

العملية بتحقيقه لديوان الأبحر المعينية للشيخ محمد الغيث النعمة، وألحقه ببحث ثان حول "الشعر العربي في الصحراء المغربية". كما تبرز أسماء أخرى نحو محمد الظريف في بحثيه "الحياة الأدبية في الزاوية المعينية"، و "الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية من بداية القرن 19 إلى منتصف القرون 20"، ومحمد سالم الحسين النزاع في بحثه "شعر المسيرة الخضراء من 75 إلى 85" وأولياس بوبكر في "الصورة الفنية في شعر الصحراء بالمغرب"، وسميرة الفرودي في "الاتجاه الوطني عند شعراء الصحراء المغربية من 1921 إلى 1956"، وماء العينين النعمة في "شعر محمد مصطفى مربيه ربه : جمع وتحقيق ودراسة"، وغيرهم...

ومن الواضح أن أهم الدوافع التي دفعت أستاذنا الجراري إلى الاهتمام بهذا الموضوع، فضلا عما ذكرناه من الوازع الوطني والرغبة في تأكيد هوية الأدب المغربي ونبوغه، دافع تأكيد الروابط الوطنية القوية التي ظلت تشد شمال المغرب بجنوبه، ووحدة الهم والرؤية والموقف في الشعر المغربي عامة، سواء أكان بالشمال أم بالجنوب، إضافة إلى كون منطوق شعراء الصحراء نفسه يتضمن هذا الهاجس الوحدوي. يقول الدكتور الجراري : «أما الظاهرة الأولى، فتتعلق بعنصر نلح عليه ونثبته إذا كان النهار يحتاج إلى دليل، ذلكم هو عنصر الوحدة التي تجمع الصحراء إلى أرض الوطن، لأن الفكر واحد والأدب واحد والشعر واحد، والتعبير في عمومه واحد مهما كانت الأداة التي يتوسل بها فيه. ومن ثم فالروح الوطنية قائمة، أعني روح الوحدة التي لم تتغير قط، على الرغم من ظروف الاستعمار وما صاحبها من محاولة تمزيق الأرض وتفريق الشعب. فقد ظلت تلكم الروح حية في

ذات الأمة ووجدان شعرائها لا يتوقف لها نبض. ولهذه الحقيقة أهميتها، وإن نظر إليها البعض دون أن يعيرها القيمة التي هي بها جديرة، وثقوا بأن العناصر الفكرية والأدبية والثقافية عامة تشكل طليعة مقومات الوحدة وفي أي بلد وأي مجتمع»[8].

ولم يقف الأستاذ الجراري في تناوله لموضوع شعراء الصحراء عند هذا البعد الفكري أو الوطني، وإنما تعداه إلى البرهنة على مظاهر التطور الذي بلغه ذلك الشعر في جانبه الفني. وقد انتهى إلى شعراء الصحراء المغربية وفقوا أكثر من غيرهم من شعراء النهضة في المشرق العربي في تمثيل حركة البعث والإحياء، بفضل ما توافر لهم من ظروف جغرافية لا تختلف كثيرا عن ظروف شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، إضافة إلى مؤهلاتهم الثقافية والعلمية التي بلورتها المجالس الأدبية والحركة العلمية والفكرية النشيطة في بيئتهم[9]، رغم أن عوائق كثيرة حالت - وتحول - دون كشف تلك المظاهر.

وإذا كان الدكتور الجراري يذهب إلى حركة الإحياء التي عرفتها الصحراء المغربية شبيهة بنفس الحركة التي عرفتها مصر خلال أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحالي، فإن دارسين آخرين يذهبون إلى أن الصحراء المغربية كانت أسبق من مصر في نهضتها الأدبية الحديثة[10].

ومهما يكن من أمر، فإن ما يهمنا هو أن للأستاذ الجراري الفضل الكبير في التعريف بهذا التراث الوطني، وفضل تأسيس البحث الأكاديمي فيه والإشراف عليه، وتوجيه الطلبة إلى الاهتمام به جمعا وتحقيقا ودراسة ونقدا.

رابعا : مجال تأسيس درس الأدب الشعبي في الجامعة المغربية

من المعلوم أن الأدب الشعبي ظل يشكل النص الغائب في الدراسات الأدبية بالمغرب، ناهيك عن الدرس الأكاديمي في الجامعات المغربية. وكان لالتفات الدكتور الجراري إليه ضمن بحث أكاديمي في مستوى دكتوراه الدولة أكثر من مغزى، ذلك بأنه دشن مرحلة جديدة في تاريخ البحث العلمي بالمغرب، في الوقت الذي كان فيه اهتمام الباحثين والدارسين منصبا على الأدب الرسمي بمختلف أجناسه وأشكاله. لهذا يمكن اعتبار ذلك التدشين فتحا لتأسيس الوعي بالتراث الشعبي والمسكوت عنه في تراثنا الشفوي عامة. وقد جاء اهتمامه بهذا التراث كذلك ضمن انشغاله العام بهوية الأدب المغربي وتأكيد البعد الوطني وهو مظهر يؤكد فعل الالتزام عند الجراري، ما دام هذا الأدب الشعبي عنوان شخصية الأمة الذي يعكس صورتها بشكل أوضح من الأدب الرسمي[11]، وما دام يعبر بتلقائية وصدق عن الفئات الشعبية بمختلف المظاهر والأشكال التعبيرية التي هي جزء من ذاته وكينونته.

وليس خاف على أحد كيف كان الاهتمام بالأدب الشعبي في المغرب حكرا على المستعمر الذي فطن إلى ضرورة غزو الأفكار قبل غزو الأوطان. وقد وجد في التراث الشعبي ما يسعفه لتحقيق تلك الغاية، ما دام ذلك التراث كما ذكرنا آنفا هو عنوان شخصية الأمة الذي يختزن هويتها ويجسد كينونتها الفطرية. لذا كان من الطبيعي أن تسند مهمة دراسة هذا التراث إلى عسكريين وضباط في الجيش الاستعماري، بل وأن تخصص مراكز للبحث فيه يشرف عليها أولئك الضباط قصد تحريفه وتشويه ما يحمله من أبعاد وطنية أو قومية أو عقدية.

وفي سياق جهاده من أجل الحفاظ على هوية الأدب المغربي عامة، سعى الدكتور الجراري إلى رد الاعتبار لذلك التراث الشعبي وتصحيح ما كان يتوخاه

المستعمر من الإساءة إليه وتحريفه. وكان هذا الفعل الجراري يندرج آنذاك ضمن الأفعال الثورية التي تترجم رغبة الجيل الجديد المتشبع بالرؤى المتحررة والتقدمية في جعل الأدب وسيلة للنضال، والتزاما جماهيريا، ووسيلة لترسيخ معالم المجتمع المدني المتنور.

لهذا فما أن أنهى بحثه عن شعر أبي الربيع سليمان الموحدي، حتى سارع إلى دراسة جزء من هذا التراث ضمن بحث أكاديمي لنيل دكتوراه الدولة. وكان ذلك دليلا على رغبته في تأسيس تخصص الأدب المغربي في السلك الثالث، وحرصه على طلبته إلى البحث في موضوعات الأدب الشعبي، وانهماكه على التأليف في هذا الباب.

ومن أهم المؤلفات التي خص بها الأدب الشعبي نذكر :

1 ـ القصيدة

2 ـ من وحي التراث

3 ـ في الإبداع الشعبي

4 ـ معجم مصطلحات الملحون الفنية

5 ـ موشحات مغربية

هذا فضلا عن الأبحاث العديدة المبثوثة هنا وهناك في مختلف كتبه، وكذا الدراسات التي شارك بها في مختلف التظاهرات العلمية والثقافية، والتي لم يتح لها أن ترى النور بعد.

والملاحظ أنه في كل هذه المؤلفات والأبحاث ظل وفيا لرؤيته إلى التراث الشعبي، وإلى الأهداف التي رسمها من خلال البحث فيه. ومن أهم تلك الأهداف نورد ما يلي :

1 ـ جمع مادة الأدب المغربي الرسمي والشفوي

2 ـ التعريف بالتراث الشعبي المحلي ودراسته

3 ـ رد الاعتبار له ولفت الانتباه إليه

4 ـ تصحيح الرؤى بالرد على المستعمر

5 ـ التعرف إلى الذات وتحديد القدرات والإمكانيات

6 ـ توجيه الرؤى والتصورات(12)

7 ـ إبراز الشخصية الوطنية من خلال الأدب الشعبي

8 ـ ربط الثقافة بالمجتمع وبالفئات الشعبية

9 ـ توسيع الرؤية إلى الثقافة، واستحضار الثقافة الشعبية ضمن هذه الرؤية

10 ـ التعريف بجمالية الإبداع والتلقي عند الإنسان الشعبي

11 ـ تأكيد الدعوة إلى المنهج الإقليمي ما دام التراث الشعبي يعكس الخصوصية الشعبية، مع الحرص على جعل هذه الخصوصية لا تقصي الطابع الإنساني للأبداع الشعبي والفلسفة الشعبية العامة، لا سيما و «أن هناك استعدادا فطريا لدى الشعب لتجاوز الحدود، أي لتجاوز الحدود البيئية والإقليمية، لأن العقلية الشعبية لا تعرف تلك الحدود، إنها لا تعرف الحدود لا في الزمان ولا في المكان»(13).

من هنا يتضح أن اهتمام الأستاذ الجراري بموضوع الأدب الشعبي يندرج ضمن أفعاله التأسيسية. وهي كلها أفعال تنصب في اتجاه تأكيد الهوية الوطنية في علاقتها بالآخر، مع مراعاة صفة التنوع في هذاالصدد يقول الدكتور عباس

الجراري : «وربما كانت مسألة الهوية في ارتباطها مع غيرها عن طريق الحوار في طليعة ما يشغل المهتمين بمصير الشعوب الساعية إلى النمو في علاقتها بالقوى الكبرى والدول المتقدمة المتطلعة إلى بسط هيمنتها والتفرد بالنفوذ في جميع جوانبه وشتى مظاهره»(14).

وتوضيحا لهذه النظرة، يؤكد الجراري أنه لا ينبغي النظر إلى الهوية الوطنية في إطارها الضيق، لأنها تسع التحاور مع هويات أرحب، تبدأ بالعربية فالإسلامية فالإفريقية لتصل إلى فضائها الإنساني الأصيل. ولما كان الإبداع الشعبي يتميز بأصالته وفطريته، فإنه بذلك يتجاوز حدود المحلية الضيقة ليكتسب طابعه الشمولي، وقدرته على محاورة الإنسان في فضائه العام، انطلاقا من الفلسفة الشعبية التي تتميز باطلاقيتها وتحررها من قيود الزمان والمكان.

خامسا : مجال تأسيس المنهج الإقليمي لدراسة الأدب المغربي

إذا كان الأسلوب هو الرجل نفسه كما قال الناقد الفرنسي بوفون، وإذا كان الأسلوب جزءا من تصور الإنسان ومنهجه، فإنه يحق لنا نتيجة لذلك أن نقول : إن المنهج هو الرجل نفسه. والأستاذ الجراري حين دعا إلى المنهج الإقليمي، فإنما كان يعبر عن تصوره للفن والمجتمع والوجود. وقد أشرنا إلى مجالات التأسيس عنده، وكيف كان مبدأ الهوية يتحكم في كل هذه المجالات. إلا أن مجال المنهج يعد من أهم المجالات التي توجه ذلك المبدأ، ما دام المنهج يعكس تصور المرء ورؤيته للفن والمجتمع والوجود، وما دام هو الإنسان نفسه كما قلنا.

لقد دعا الجراري إلى المنهج الإقليمي، واعتبره وسيلة لإبراز خصوصية الشخصية الوطنية، ووسيلة للم شتات المتفرق من الآداب المحلية قصد تحقيق

شمولية الرؤية. فالغاية من التركيز على المحلية تكمن إذن في تحقيق مبدإ الوحدة والتكامل، ما دامت هذه الغاية لا تتأتى إلا باعتمادها على المحلية منهجا وسبيلا. يقول الدكتور الجراري : «أقول هذا ولا أخفي أني أومن بالإقليمية مرحلة لجمع شتات أدبنا في مختلف أجزاء الوطن العربي، وسبيلا لدراسة هذا الأدب بهدف تكميل الرؤيا الوحدوية له وإكسابه خصبا وغنى وتنوعا، انطلاقا من خصائص في المزاج وفي الخلفية الثقافية والتجربة المحلية لكل إقليم، فضلا عن العوامل البيئية المؤثرة، على اعتبار تأثير البيئة متمثلا في المزاج والروح والطابع واللون، إلى جانب تأثير الذات في إضفاء خصائص معينة على الشعر والأدب والفكر عامة»(16).

ويضيف أن الإقليمية في حد ذاتها لا تلغي الطابع الإنساني باعتبار أن مبدأ التأثر والتأثير بين الحضارات يظل قائما. ولكن في نفس الوقت يلح على أنه كلما كانت رقعة البحث ضيقة، إلا وكانت نتائجه أكثر دقة واستيفاء. وفي هذا يقول :«أما الإطار فيتمثل في الإقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها أساسا للدراسة، وأؤكد أنني حين أقول الإقليمية وتأثير البيئة في الأديب لا أنسى الشخصية الذاتية والموهبة الفردية، ولا أعني تضييق الأفق والانحصار في إطار المحلية، ولكنني أعتبرها الوسيلة الوحيدة للم شتات الأدب العربي في كل الأقطار التي أبدعته، والوسيلة كذلك للعالمية والإنسانية، بل إني أرى أنه كلما قسم نطاق الإقليم في الدراسة إلى بيئات صغيرة، كانت دراسة الإقليم مكتملة ومستوفاة»(17).

فالأستاذ الجراري إذن كما هو واضح من هذه التصريحات، حين يدعو إلى الإقليمية لا يلغي مبدأ الكلية أو الوحدة، لأن هذه الكلية هي ضمان وحدة الأمة،

هذا بخلاف ما اعتقده بعض القراء الذين وقفوا عند كلمة "المحلية" دون مراعاة للسياق الذي وظفت فيه، ولا للأهداف العامة التي ظل الأستاذ الجراري يناضل من أجل ترسيخها، ومن أهمها : «نشر الوعي وتوجيه الرأي وصقل الذهن وتوضيح الرؤيا وتعميق المفاهيم، وتهذيب القيم وتفتيح الآفاق لنظرة وسلوك علميين ... وخدمة قضايا الوطن ومشاكل التنمية ...»، و«إعطاء منظور قومي واضح للعلوم الإنسانية»[18].

وإذا كانت الدعوة إلى النهج الإقليمي تلتقي مع الأهداف العامة التي سطرها الأستاذ الجراري حين نذر كل جهده للبحث الخاص بالأدب المغربي، فإن هذا المنهج يتميز بالمرونة ما يجعله قابلا لاحتضان مختلف الأدوات الإجرائية التي تنحدر من مناهج أخرى، شريطة احترام ضوابط النص وخصوصياته وسياقه العام. لهذا فهو يقر نسبية المناهج، ويؤكد أن قيمة أي منهج تكمن أساسا في قيمة النتائج التي يفضي إليها لا في الأدوات والطرائق التي يوظفها، ذلك بأن نجاعة أي منهج رهينة بمدى قدرة الباحث على تطويع رصيده المعرفي، وإشغال مداركه الذهنية، واستغلال طاقاته الإبداعية، مع مراعاة السياق العام دائما.

وفي هذا الإطار يعرف الدكتور الجراري المنهج قائلا :«اتضح المنهج عندي في ملامحه اللامرئية، ومن خلال عناصره الظاهرة، بل لقد تحدد اللامرئي عندي قبل الظاهر منه. ماذا أقصد بالملامح اللامرئية؟ وبالعناصر الظاهرة؟.

أعني بالملامح اللامرئية الوعي والرؤية والهدف، أي سياق المنظومة التي يطرح فيها المنهج، وأعني بالعناصر الظاهرة، مجموع الأدوات والقواعد والمقاييس والطرق التي يتوسل بها لتحقيق المنهج»[19].

فالملامح اللامرئية إذن يحكمها التصور والذوق والموقف الفكري والغاية أو الغايات المنشودة. أما الملامح المرئية، فتتمثل في الأدوات العلمية التي يتوسل بها الباحث لتحقيق النتائج المتوخاة. لهذا يمكن الحديث عن الملامح العامة والخاصة في تصور الجراري للمنهج. أما الملامح العامة، فهي التي وصفها بالمرئية، وهي أمور مشتركة بين عامة الباحثين. في حين تمثل الملامح اللامرئية الملامح الخاصة، لأنها مرهونة بذات الباحث وهمومها وانشغالاتها العلمية ومواقفها الفكرية والجمالية. وتتلخص هنا عند الأستاذ الجراري في مسألة تأكيد هوية الأدب المغربي وترسيخ الوعي بأسسه المعرفية والفكرية والفنية.

من هنا يتأكد مرة أخرى أن المنهج كما يتصوره ليس مجرد وسيلة تضبطها خطة قصد تحقيق هدف معين، ولكنما هو «منظومة متكاملة تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيا وذلك الوعي من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل والبرهنة للإثبات أو النفي»(20).

فالجراري إذن لا يتحدث عن خطة إجرائية عابرة، وإنما يتحدث عن المنظومة. كما أنه لا يتحدث عن الرؤية، ولكنما يتحدث عن الرؤيا، فضلا عن العناصر المكونة لها. بمعنى أنه لا يتحدث عن الرؤية، ولكنما يتحدث عن الرؤيا، فضلا عن العناصر المكونة لها. بمعنى أنه يعتبر المنهج تصورا شاملا تتحكم فيه عناصر غير مرئية هي الوعي الفكري والتذوق الجمالي، وعناصر مرئية هي الأدوات الإجرائية المباشرة المتمثلة في الفحص والدراسة والتحليل والاستدلال. وهذا التصور يتضمن فعل التنظير بدون شك. والتنظير كما نعلم رؤيا وتصور مستقبلي لظاهرة ما في

إطار كليتها. بمعنى أنه فعل ينبني على تجاوز الكائن لتحقيق الممكن. فهو إذن استشراف لهذا الممكن في إطاره الشامل، وهو ما يسميه الأستاذ أحمد الطريسي بالنسق. والرؤيا «لا تكون إلا مع التجاوز، أي مع احتواء المشكلات في إطارها الوجودي. والنسق لا يكون إلا مع وجود الرؤيا»[21].

وهذه الرؤيا عند الجراري هي جزء من نسقيته، إذ عنها تصدر مواقفه ورؤاه وتصوراته، ومن ثم منهجه ما دام النسق هو «جوهر كل عمل أو مظهر أو سلوك يصدر عن رؤية شمولية لها موقعها الثابت في الحياة»[22].

وقد تجلت هذه الرؤيا في مؤلفاته وأبحاثه ومحاضراته. غير أنها ظلت محكومة بخطة إجرائية واضحة فيما يخص دراساته للأدب المغربي الرسمي والشفوي، تنطلق من مبدإ الوثيقة، واعتبار كل نص وثيقة بالأساس. أما كيفية التعامل مع النصوص، فتنطلق من الخطة الثلاثية المتمثلة في جمع النصوص أولا، واستقصائها ثانيا، ثم استقرائها ثالثا، في حين تعتمد خطوات الدراسة على المراحل الآتية :

أ ـ الفهم.

ب ـ التفسير والتحليل.

ج ـ النقد بالتقييم والتقويم.

د ـ إدراك الحركية داخل السياق.

هـ ـ ربط النص بالإطار الذي يحتويه.

أما العناصر التي تتحكم في هذه الخطوات، فيلخصها في ثلاثة هي : الذوق والعقل والنقد، مع مراعاة إمكانية استغلال التأويل انطلاقا من القراءة الخاصة

إمكانية اجتهادها، وما تقتضيه خصوصية النص وسياقه العام، والتوسل بما يسعف من أدوات إجرائية أخرى قادرة على إضاءة النص وتحقيق أهداف الدراسة، وقبول مبدإ الاختلاف والمغايرة وتعددية القراءات.

إن هذا التصور كما هو واضح ـ وإن كان ينطلق من إطار عام هو المحلية ـ لا يتعارض إطلاقا مع مبدإ الوحدة والتكامل الذي يمثل هاجسا أساسيا في مسيرة الأستاذ الجراري الفكرية والأدبية والعلمية. ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن كبار المنظرين في العالم قدموا تنظيراتهم انطلاقا من الاستقراء العام للإنتاج المحلي. كما أن عباقرة الأدب الإنساني استطاعوا مخاطبة الآخر في تعدديته وتنوعه انطلاقا من التعبير الأصيل عن الفضاء المحلي وما يحتضنه من قضايا ومشاغل قد تبدو لنا بسيطة في إطارها المحلي ذاك، ولكنها تصير جوهرية حين تمتد إلى الإنسان في فضائه الشمولي. وهذا ما نلمسه في أغلب تنظيرات كبار المنظرين كأرسطو، واستنسلافسكي، وبريخت، وإبداعات كبار الأدباء كصوفوكليس، وسينكا، وشكسبير، وموليير، وتولستوي، وغوركي، وغابرييل ماركيز، ونجيب محفوظ وغيرهم...

والأستاذ الجراري حين ألح على المنهج الإقليمي، إنما سعى إلى أن نعرف ذاتنا، إذ عبر معرفتنا بهذه الذات، نتعرف إلى الآخر، وإلا فكيف نعرف هذا الآخر إذا لم تكن لنا مقاييس ذاتية نقارن بها ما لدينا بما لغيرنا. فالوحدة هي الغاية الكبرى. أما الإقليمية، فغاية مرحلية. وهذا يعلن عنه الدكتور الجراري نفسه صراحة حين يعتبر الخصوصيات المحلية لا تعمل على تكملة الصورة الشمولية : «وهذا ما يجعل الإقليمية من منظور المنهج مجرد وسيلة لغاية أوسع، لا هدفا في حد ذاته يسعى إلى تحقيقه»[23].

هذه إذن هي المجالات التأسيسية التي تحكمت في مسيرة الأستاذ الجراري الفكرية والعلمية والأدبية، وهي مجالات ظلت تحكمها غايات تتلخص في ترسيخ القيم النبيلة العليا معرفيا وفكريا وجماليا، انطلاقا من عمق الرؤيا ونبل الهدف ووضوح المنهج.

*****

الهوامش

(1) الدكتور عباس الجراري : خطاب المنهج، منشورات النادي الجراري رقم 8، طـ 2، دار الهلال العربية ـ الرباط، 1995، ص : 74.

(2) نفسه، ص : 94.

(3) نفسه، ص : 95.

(4) د. عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء الأول، مكتبة المعارف، الرباط، ص : 187.

(5) القصيدة، مطبعة الأمنية، الرباط، 1970، ص : 1.

(6) عباس الجراري : خطاب المنهج، منشورات النادي الجراري، رقم ـ 8 ـ طـ 2، دار الهلال العربية، الرباط، ص : 75.

(7) نفسه، ص : 77ـ78.

(8) شعر الصحراء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، سلسلة الدروس الافتتاحية للسنة الجامعية 1987 ـ 1988، مطبعة المعارف الجديدة، ص : 20 ـ 21.

(9) نفسه، ص : 14.

(10) انظر مثلا مقال محمد المختار المداح : خواطر حول أدب الصحراء المغربية، حوليات كلية العربية بمراكش، عدد خاص بتكريم عباس الجراري، ع 4 ـ 1994، ص : 180 ـ 183.
وكذا مقال ماء العينين النعمة علي : الشعر العربي في الصحراء المغربية ودوره في حركة البعث والإحياء الأدبي، نفس المرجع، ص : 184 ـ 216.

(11) القصيدة، ص : 2.

(12) انظر الدكتور عباس الجراري : الثقافة من الهوية إلى الحوار، منشورات النادي الجراري، رقم 3، دار الهلال العربية، طـ 1، 1993، ص : 22.

(13) د. عباس الجراري : الفكر والوحدة، مكتبة المعارف، الرباط 1984، ص : 151.

(14) الثقافة من الهوية إلى الحوار، ص : 7.

(15) نفسه، ص : 17 ـ 18.

(16) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج 1، مكتبة المعارف، الرباط، 1979، ص : 190.

(17) نفسه، ص : 8.

(18) نفسه، ص : 8.

(19) خطاب المنهج، ص : 75.

(20) نفسه، ص : 10.

(21) النسق والشخصية الإنسانية، حوليات كلية اللغة مراكش، ع 2، 1993، ص : 289.

(22) نفسه، ص : 288.

(23) خطاب المنهج، ص : 84.

* * *

تشغيل مسألة الإقليمية ومعيارية المنهج النقدي في كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» للدكتورعباس الجراري

عبد السلام الطاهري(*)

I ـ تقديم :

إن الحضور الفكري والبحث العلمي المتميز الذي حققه الدكتور عبا س الجراري على مستوى التأليف والكتابة والدراسات المغربية، كان حضورا فاعلا من حيث التنظير والتطبيق على قضايا وظواهر الأدب والثقافة والفكر، مما جعله يؤسس منظومة فكرية ونقدية، ترسم ميكانزمات أشغالها، وتحدد أدواتها العلمية داخل نسق عام، في حقل الدراسات الأدبية والنقدية، وتؤرخ لتجربة أستاذ أكاديمي في فكره وتصوره ومنهجيته، وترسخ تقاليد علمية تتجاوز ممارسة النقد الاحترافي إلى ممارسة عالمة متحكمة في اختيار مادة البحث ومنهج الدراسة، متمثلة للأسس والقواعد والطرائق العلمية، من منظور الوعي بالمنهج، وبالواقع الأدبي والتاريخي، وبشروط الإنتاج، هذه الخصوصيات التي تميز بها بين

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط.

الدارسين الجامعيين، واشتهر بها في دراسة حقل المغربيات، كان لها أثر عميق في حياتنا الأدبية والنقدية، وفي البحث والدراسات التي أشرف عليها، إذ ساهم بفعالية في توجيه الشباب إلى كنوز الأدب المغربي، والتعريف بتراثنا.

فعطاءاته الدراسية النقدية كثيرة، تهتم أساسا بالأدب العربي الفصيح (المدرسي)، وبالأدب الشعبي (الزجل - القصيدة)، ويعتبرهما متكاملين، لا فرق بينهما، وأن الدراسة الصحيحة في نظره يجب أن تنطلق منهما، كقاعدة للبحث والدرس، على اعتبار أنهما يمثلان تراثنا الأدبي العام، ويؤرخان لنهضتنا الفكرية والأدبية، وليس من شك أن الحديث عنه كدارس وناقد يطرح إشكالية صعبة، والخوض فيها يعد مغامرة، لأن مؤلفاته كثيرة، وطبيعتها الفكرية والنقدية متنوعة، ولا يمكن قراءتها معزولة عن سياقها وتيماتها المتحكمة في أوليات خطابها، لأن الإلمام بمعرفته النقدية وأدواتها المنهجية الثرية، المسخرة في دراساته وأبحاثه، تدهش القارئ في طبيعة توظيفها وتشغيلها، ولاشك أن أمورا كثيرة رافقت ثقافته النقدية والأدبية في تحولها وتطورها، يصعب القبض على أسسها بسهولة، لأننا نعلم جميعا أن جل المناهج الحديثة مضطربة ومتداخلة «تكاد تستعصي على محاولة ردها إلى منهج بعينه أو مناهج متقاربة، وتكاد الصلة تنقطع بين مواقف أصحاب هذه المناهج في النقد وفي الحياة، فكأن النقد لا يصدر عن رؤية شمولية للحياة. وعن موقف محدد منها يعرف وظيفة النقد في المجتمع على نحو ما يعرف وظائف سواه من وجوه النشاط البشري. أو كأن المناهج النقدية ليست تعبيرا عن مواقف ثقافية وسياسية محددة أو تجسيدا لها[1]، وتبعا لهذه الخصيصة سأتناول نموذجا من مؤلفاته حتى أستطيع مقاربة منهجه النقدي من خلال دراسة موسوعية

في كتاب: «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه»، رغم صدوره في سنة 1979، لأن منهجه يعكس جل المناهج التي جربها - أستاذنا عباس الجراري - في الأدب العربي والمغربي، وضمن لها إغناء وإثراء كل دراسة قام بها، ومن خلالها بلور توجهه النقدي والفكري، وقال بواسطتها أشياء كثيرة بطريقته الخاصة، انطلاقا من دوافع وحوافز حركته وجعلته ينخرط في فعل الكتابة الهادفة عن «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه»، أهمها: إيمانه بالهوية الوطنية والقومية، وإحساسه بالواجب العلمي والأدبي، من أجل بناء تصور أدبي وفكري صحيح عن الأدب المغربي، لأن هذه الدوافع تبدو على مستوى آخر في أربع صور هي:

1- **الصورة الأولى** : أراد أن يرد الاعتبار للأدب المغربي الذي تعرض للإهمال من طرف الدارسين المشارقة قبل أن يفرض نفسه الآن، وكذا المغاربة الذين لم يعرفوا به ولا بتراثه.

2- **الصورة الثانية** : دحض ادعاءات المتحاملين على الأدب والفكر المغربي من مستشرقين وعرب، وفسر أحكامهم المسبقة، وصحح المفاهيم المغلوطة عن الأدب المغربي وواقعه وخصوصياته، وما امتاز به عبر عصوره.

3- **الصورة الثالثة** : عرف بالأدب المغربي وبتراثه، وبأعلامه ورجاله، وبأهم القضايا الأدبية والفكرية ليؤكد على الحضور الإبداعي عند المغاربة في كل عصر، سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده.

4- **الصورة الرابعة** : سعى من خلال تأليفه إلى تجاوز الثغرات التي عرفها تاريخ الأدب المغربي، معتمدا على انتقاء الظواهر والقضايا الأدبية، بشكل لا

يخضع للمقياس التاريخي والسياسي المتحكم في تاريخ الأدب، ليثبت قيمة الأدب والفكر المغربي من خلال هذه الظواهر والقضايا المنتقاة.

إن التصور النظري والمرجعي الذي انطلق منه أستاذ الجيل يشهد على تجاوز المرحلة النقدية التجريدية، وعلى تأسيس مرحلة نقدية وظيفية، لأنه يعلم بحكم تجربته الطويلة في مجال التدريس والإشراف والتأليف، أن النقد علم وتجربة وفن، تحول على يد المتحكم فيه إلى إنجاز منهجي هادف، ويتموقع في معيارية المنهج النقدي، الذي يشكل عنده رد فعل مدرسي، من منظور أكاديمي في التعامل مع الأدب وقضاياه، وهدفه في ذلك هو بناء منهج نقدي أدواته تشغيل مسألة الإقليمية بمفهومها العلمي لا العرقي، ومعيارية المنهج النقدي بكل شروطه، حتى يكشف عن أصالة أدبنا، وعن لحظات إشعاعه، لأن النظرية المدرسية تربط الأدب بالسياسة، وتهمل باقي العوامل الأخرى الفاعلة في إنتاج الأدب، ولهذا اعتبرها غير مسعفة في البحث العلمي، متأثرا بنصوص غائبة تتحكم في توجهه، وفي تحرك منهجه، وهي متمثلة في:

- تلبية حاجيات الأمة وإثبات حضورها التاريخي والحضاري.
- استثمار الطاقات الفكرية لنمو المجتمع، وخلق دينامية التطور.
- نشر الوعي والثقافة الوطنية.
- جعل العلم في خدمة قضايا الوطن.
- تكوين ثقافة وطنية لخدمة التنمية.

انطلاقا من الدوافع والتبريرات السابقة، عالج الباحث الرائد موضوع الأدب المغربي عبر عصوره على شكل مقالات ومحاضرات - في البداية نشر أغلبها **في مجلة المناهل :**

- وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي

- نشأة الأدب العربي في المغرب (ظروفها ومظاهرها)

- المولد النبوي في الأدب المغربي

- بوادر التجديد عند شعراء المغرب العربي

- الشعر المغربي في مرحلة النهضة

- المسرح عند العرب والمغاربة

وفي مجلة دعوة الحق:

- التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب

وفي مجلة الثقافة الجزائرية:

- قضية المعتمد بن عباد

وقد ألقى بعضها على طلاب الجامعة، وبعضها الآخر في لقاءات ثقافية، وهي لا تخضع لترتيب زمني من حيث كتابتها، ولا لتسلسل من حيث انتقاؤها، فنجد مثلا قضية: التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب، قد نشرها في مارس 1974، وتعتبر هي الأولى زمنيا على مستوى النشر، ولكنها من حيث الترتيب في الكتاب تأتي في الرتبة الثالثة، بينما نجد قضية: وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي تحتل الرتبة الأولى في الكتاب، مع العلم أنها نشرت متأخرة في مارس 1977، وهذا ما جعل الأستاذ الباحث أثناء جمعها، يعيد النظر في ترتيب مواضيعها، وأن يخضعها للسياق التاريخي أحيانا، ولطبيعة المواضيع وأولويتها أحيانا أخرى، حتى يتسنى له تشكيل كتاب منها[2].

II - مقاربة قضايا الكتاب :

ففي مقدمة الكتاب نلاحظ أن المؤلف العلامة قد حدد عناصر البحث التي تتناول طبيعة الموضوع ومصادره، ومنهج الدرس، وهي في نظره عناصر تشكل في حد ذاتها مشكلة تعترض دارس الأدب المغربي، وذكر الأسباب التي جعلته يلتجئ إلى الظواهر والقضايا الأدبية، مادام تاريخ الأدب المغربي يعرف اضطرابا وخللا في مسيرته التاريخية، التي لا تضمن استمرارا للشريط الحضاري والثقافي والأدبي، وبالتالي تحول دون إيجاد كيان متكامل لهذا التاريخ، وهذه الاشكالية لا ترجع أسبابها إلى تعلق المغاربة بالفقه، وقلة التدوين، وضياع كثير من المصادر فقط، وإنما إلى أسباب أخرى جوهرية، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو معرفي وذاتي، فهذه الأسباب مجتمعة دفعته إلى إعادة النظر في تاريخ الأدب المغربي، وفي الأحكام التي أطلقت عليه، ورأى أن المنهج التاريخي والنظرية المدرسية غير مسعفة في دراسة الأدب، لأن الانتماء السياسي في نظره كثيرا ما يطمس الحقائق الأدبية والحضارية وهذا ما دفعه إلى طرح بديل منهجي، يمكن من رصد الظاهرة الأدبية جغرافيا وفكريا وعقديا، لتجاوز الخلل الذي وقعت فيه النظرية المدرسية حين ربطت الأدب بالسياسة، وكذا قصور المنهج التاريخي.

والمنهج الذي اقترحه، قد شرحه ووضح عناصره، وأعلن عن تبنيه له، وعن صلاحيته في دراسة الظواهر والقضايا الأدبية التي انتقاها، وهي تنحصر في :

-1 ـ وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي: في هذه الظاهرة ألقى نظرة تاريخية عن الفترة السابقة لدخول الإسلام إلى المغرب، وعكس التفاعل الحضاري بين المغاربة والدول المجاورة والمحتكة بهم، سواء منها التي

استعمرت المغرب كالرومان والوندال والبيزنطيين، أو التي استوطنته كالفينقيين، هذا التفاعل في نظره ساهم في إفراز أنماط من مجالات الإبداع الأدبي والفكري على يد أدباء ومفكرين وفلاسفة مغاربة، وهذا ما جعل الكاتب العالم يؤكد على أصالة المغاربة، وجذورهم التاريخية في الوجود الحضاري والثقافي، وهذه القضية دفعته إلى إعادة النظر في الوجود المغربي على المستوى الحضاري والثقافي المغربي قبل الفتح الإسلامي، ليؤكد من جديد أن المغاربة أبدعوا وانتحلوا، وتفاعلوا مع حضارة البحر الأبيض المتوسط، وأن المؤثر البيئي كان له أثره على الحقل الإبداعي، وعلى حيوية المغاربة وتفتحهم، وعلى تأثرهم وتأثيرهم.

2- **قضية نشأة الأدب العربي في المغرب** : وفيها استعرض ظروف الفتح الإسلامي في المغرب، ومقدار استجابة المغاربة للدين الإسلامي، وكذا رفضهم للقواد الفاتحين، وتطرق إلى أسباب تعاملهم مع بعض المذاهب، كالمذهب الخارجي مثلا، الذي وجد إقبالا من طرفهم، كما علل سبب تعذر انتشار اللغة والأدب العربي، وأرجع ذلك إلى الصراع السياسي والإجتماعي بين الفاتحين والمغاربة، وإلى عدم تمكن المغاربة من اللغة العربية آنذاك، كأداة للأدب والفكر، ولهذا السبب اعتبر نشأة الأدب العربي في المغرب، مرتبطة بالفتح الإسلامي اضطرابا واستقرارا، وأن التأثير المباشر في هذه النشأة هو تفاعل المغرب والأندلس، كإنتاج أدبي عربي بالمغرب، وأثبت رأيه فيها معتمدا على استقراء المعطيات البيئية، والاستنتاج العقلي، كما ألقى الأضواء على أنماط الأدب التي قيلت في هذه الفترة كنماذج لعرب تحمل طابعا شرقيا من حيث مضامينها وجودة أسلوبها، ونماذج لمغاربة ذات طابع مغربي، ضعيفة مبتذلة، أساليبها مضطربة، سهلة العبارة، تصل أحيانا إلى الضعف والركاكة.

3- قضـيـة: التـيـار الفقـهي المرابطي ومـدى تأثيره على الفكر والأدب: وفيـهـا ناقش مـواقف بعض الدارسين من فـقـهـيـة الإنتـاج المغـربي في عـهـد المرابطين، ومحاربة سواه من المعارف، هذه القضية أرجع أسباب إثارتها إلى عبد الواحد المراكشي الموحدي من المغرب، والشقندي من الأندلس، وهما من المعارضين للمرابطين، وقد تبنى رأيهما بعض المحدثين من المستشرقين كـ «أشباخ، ودوزي، وجولد تسيهر، وكارسيا كومث» ومن العرب كـ «عنان»، وتصدى الباحث الدراكة لهذه الادعاءات، واعتبر المذهب المالكي وهو المذهب الملائم لحالة المغاربة عقليا وفكريا، لتوحيد الدولة المغربية على صعيد المذهب، خاصة، وان العالم الإسلامي كان يعيش صراعا وتناحرا، ولتجنيب المغاربة هذا الصراع، أخذ المرابطون بالمالكية، كمبدأ سياسي وتنظيمي وفكري وعقدي، واستطاع هذا التوحيد المذهبي أن يساعد على ازدهار الفكر والأدب، وعلى انسجام المغاربة مع هذا التيار الفقهي، وبذلك فند الأحكام التي صدرت في حق المرابطين، والتي رمتهم بخنق الفكر والتزمت ورأى أن قضية إحراق كتاب: «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي تعود إلى الضجة التي أحدثها بعض فقهاء الأندلس، الذين أثاروا الناس ضد الغزالي بفتواهم، رغم معارضة بعض فقهاء المغرب كأبي الفضل بن النحوي، وعلى ابن حرزهم، وهذا السبب جعل علي بن يوسف يتدخل في عملية الاحراق، للحد من الصراع بين أنصار كتاب الغزالي ومعارضيه، والأستاذ الجراري حين طرح هذه القضايا كان يهدف إلى توضيح حقائق ومفاهيم مغلوطة، أثبت من خلالها أن التيار الفقهي المرابطي كان له أثره على الأدب والفكر، ولكنه لم يمنع من وجود حركة أدبية وفكرية نشيطة، شارك فيها الأدباء والعلماء في شتى الحقول المعرفية،

وخير مثال على ذلك مشاركة المرأة المرابطية في هذه الحركة، كما أثبت الحضور الأدبي الذي نفاه المتحاملون على الأدب المغربي، في عناية المرابطين بالأدباء كتابا وشعراء، وفي تشجيعهم ومدهم بالعطايا والهبات، مستشهدا بالشعراء الذين لمعت أسماؤهم في ميدان الشعر كابن حبوس، وابن زنباع، وابن الزيتوني، والقاضي عياض، وبكثرة المدارس والرباطات، وهذا في نظره ينفي جمود الفكر المرابطي أو تزمته كما يدعي البعض، ان احتكاك المغاربة بالمشارقة ساهم أيضا في ازدهار الحركة الأدبية.

4- قضية المعتمد بن عباد: وفيها طرح مسألة مهمة تدور حول تأثير المعتمد ابن عباد على ميدان الأدب والسياسة في عهد المرابطين، وعلل أسباب سجنه على يد يوسف بن تاشفين، لأنه يرى أن قضية سجنه اتخذها المتحاملون على الأدب والفكر المرابطي وسيلة للنيل من المرابطين، واتهامهم بالخشونة وقلة الذوق الحضاري، وعلى رأس هؤلاء المتحاملين الشقندي الأندلسي، الذي اتهم المغاربة عموما بالبداوة والبلادة، ورد الباحث العالم موقف المرابطين من المعتمد بن عباد إلى أسباب سياسية ودينية واجتماعية، وأكد أن تدخلهم في السياسة الأندلسية تم بناء على فتوى شرعية من الأندلسيين، الذين طلبوا حماية المرابطين لهم أيام ملوك الطوائف، حين كان يهددهم الإسبان، وظهرت خيانة بعض ملوك الطوائف، الذين كانوا يتعاملون مع ملوك اسبانيا، ومن بينهم المعتمد، وهذه الخيانة دفعت بيوسف ابن تاشفين إلى إلقاء القبض عليه، ليحافظ على الأندلس المسلمة، كما اعتبر سجن هذا الشاعر لا يشكل خسارة أدبية كما يدعي البعض، لأن الأدب عرف انتعاشا وازدهارا، ومساهمات كثيرة شاركت فيها حتى المرأة المثقفة.

5- قضية: المولد النبوي في الأدب المغربي: وفيها تناول ظاهرة الاهتمام بالمولد النبوي، وعلاقتها بالأدب المغربي، ورأى أن المغرب كان سباقا إلى إحياء ذكرى المولد النبوي، هذه الذكرى في نظره ألهمت الشعراء، وفتحت قرائحهم، فنظموا القصائد التي تشيد بمكارم أخلاق الرسول (ص)، وبفضله على العالمين، واعتبر قصيدة «ابن خبازة» في مدح الرسول (ص) أول قصيدة في هذا السياق. وأكد الباحث الأكاديمي أن عناية الشعراء بالمولد النبوي ارتبطت بتأثير الفكر الصوفي، الذي مارسه متصوفة مغاربة وأندلسيون، كابن عربي، والبوصيري، وهذا الموضوع في نظره استدعى ايجاد كتب في السيرة النبوية وقصائد في مدح محمد (ص)، مما جعل ظاهرة المولد النبوي تؤثر على فكر الأدباء، وتغني الحقل الأدبي والديني والتاريخي، ولاغناء هذا الجانب استعرض نماذج شعرية مغربية من ملحون وموشحات، رصد من خلالها تطور هذا الفن، وصنف أغراضه وأنماطه التعبيرية، ليؤكد في الأخير أن هذه الظاهرة خاصة بالمغاربة، وأنها بدت على مستوى التعبير الشعبي (الزجل، الموشحات) والرسمي منذ أواخر العهد الموحدي حتى المرحلة الحديثة، وقد ساهمت في تحريك القرائح وإيقاض العاطفة الدينية.

6 قضية: بوادر التجديد عند شعراء المغرب العربي: وفيها أثار البوادر الأولى للتجديد في الأدب العربي بدءا بالعهد العباسي ومرورا بالأندلس ، وانتهاء بشعراء الانبعاث، ولاحظ الباحث الفهامة أن دارسي الأدب العربي لم يلتفتوا إلى مساهمة المغاربة مما جعله يؤكد أن حداثة الأدب المغربي ليست مرتبطة بمثيلتها في المشرق، لاختلاف الظروف، إذ أن فترة الانحطاط هناك يقابلها ازدهار عندنا، وهذا ما دفعه إلى التساؤل، كيف نصف عصرا نبغ فيه أعلام كبار كالقاضي

عياض، وابن خلدون، والفشتالي والمقري، وابن زاكور ومن إليهم من أعلام الفكر والأدب في قطرنا المغربي بالانحطاط؟ ليصل إلى خلاصة مفادها أن العوامل البيئية لها تأثير على عملية الإبداع، وازدهار الأنماط التعبيرية، وأن بوادر التجديد عند شعراء المغرب العربي كانت مرتبطة بالبيئة ومقوماتها ومؤثراتها، التي ساهمت في إفراز فن التوشيح والزجل، وأثبت أن تجديد المغاربة في هذا الفن ارتبط بالتحولات الاجتماعية والفكرية، وبالواقع وشروطه التاريخية، وأراد الأستاذ الجراري من خلال طرح هذه القضية أن يدحض النظرية النقدية القديمة التي أهملت الأدب المغربي، وأطلقت عليه أحكاما مسبقة، ليرد الاعتبار إليه، أما ما يتعلق بظاهرة «الشعر الحر» فقد ناقش الآراء النقدية والمواقف المشرقية التي لم تنصف الأدب المغربي. ولم تربطه بالعوامل البيئية، وبالإقليمية وما لها من خصوصيات.

7- **قضية الشعر المغربي في مرحلة النهضة:** وفيها ركز الباحث الحبر على النهضة الأدبية، كظاهرة عاشها المغاربة في الميدان الشعري، وتفاعلوا معها، وهي في نظره تعني الحداثة، حيث شرح منطلقاتها المختلفة، والآراء التي ترى ان الشعراء المغاربة الكلاسيكيين اعتمدوا على الأدباء المشارقة والأندلسيين وراء أن الكلاسكيين ــ لهم خصوصيات إذ استوحوا مواضيعهم من التراث وساروا على نهج مدرسة البعث وكذا الديوان، وهناك من آثر واقعية جماعة الديوان، أو رومانسية أبولو والمهجر، وهذا ماجعل حداثتهم مستمدة من تأثير الواقع والظروف التي عاشها المغاربة، والتي سوف تتطور بعد الاستقلال لتعبر عن قضية الإنسان المغربي والافريقي بصفة خاصة، والعربي بصفة عامة، وختم هذه القضية بتقديم

إقتراحات وجيهة، وآراء نقدية، تتلخص في تسخير الأدب لخدمة الشعب وتوعيته، وإثبات قيمته وأصالته.

8- قضية المسرح عند العرب والمغاربة: وفيها استعرض الفترات التاريخية التي مر بها المسرح العربي عموما، ورد على المدعين الذين يعتبرون العرب متخلفين في ميدان المسرح قديما وحديثا، ناقدا وشارحا، ومفندا للآراء التي ادعت قصور العرب في التمثيل، انطلاقا من آراء المستشرقين ومن سار في فلكهم : ليثبت الحضور المسرحي، ودواعي نشأته، والظروف البيئية المتحكمة في تطوره، كما بحث عن الصلة المتواجدة بين المسرح المغربي والعربي بصفة عامة، ليؤكد أن الحس المسرحي كان معروفا لدى المغاربة كـ «خيال الظل» الذي منعته السلطة الاستعمارية «والحلقة»، و«الفراجا»، و«سلطان الطلبة». وهذه الأنواع المسرحية الشعبية تعكس بوادر المسرح المغربي، وتبرز تباين الأشكال المسرحية، وهذه القضية التي تناولها بالتأريخ، وتتبع ظهورها، يهدف من ورائها إلى إثبات الحضور المسرحي عند العرب والمغاربة، حسب ظروفهم وبيئتهم، ومدى تحكمها في عملية الإبداع والإنتاج، من حيث التأثر والاستجابة لهذا الفن في كل إقليم عربي.

III- منهج المؤلف

من خلال عرض قضايا الكتاب، يتضح أن المنهج الذي تبناه الأستاذ الجراري تحركه نصوص غائبة وقناعات ذاتية يمكن تلخيصها في :

1- إثبات قيمة الأدب والفكر المغربي، ومدى مساهمة الإنسان المغربي في بناء صرح الأدب العربي.

2- استثمار الطاقات الفكرية لنمو المجتمع وخدمة قضاياه الوطنية.

3- نشر الوعي بأهمية الفكر والأدب المغربي وتراثه عبر عصوره المختلفة.

4- تكوين ثقافة وطنية، قومية لها خصوصيتها ومميزاتها الإقليمية.

هذه الخلفية حركته علميا ومنهجيا لرفض النظرية المدرسية التي لا تسعف في دراسة الأدب العربي في جميع الأقاليم العربية، ولا تعكس ما ينفرد به كل إقليم عربي من خصائص ومؤثرات وظروف بيئية، تحكمت في عملية الإبداع والإنتاج، ورأى أن الأدب يجب ألا يرتبط بالسياسة في ازدهاره أو انحطاطه، رغم ما يلحقه منها من تأثير وتأثر، وطرح كبديل عن النظرية المدرسية، الاهتمام بالظواهر الأدبية، بمنهج إقليمي، وبنزعة استقرائية، وهذا المنهج الذي تبناه شرحه في مقدمة الكتاب بقوله : «بدأ تناولي للأدب المغربي سواء في تدريسه بالكلية أو في الأبحاث التي نشرت بمنهاج تشكل عندي في إطار ومحتوى، أو نوع وكيف.

أما الإطار فيتمثل في الإقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة... ويكتمل الإطار عندي بعناصر ثلاثة :

1 النظر إلى الأدب من خلال نوعيه المدرسي والشعبي.

2- اعتبار مفهومه شاملا لكل الإنتاج الفكري لأمتنا دون حصره في نطاق الشعر والنثر.

3- تناوله سواء في قديمه أو حديثه عن طريق طرح ظواهره وقضاياه.

وأما المحتوى أو الكيف فيقضي معالجة هذه الظواهر والقضايا بفكر نقدي يستند إلى الواقع والمعاصرة، وبجدلية وموضوعية تعتمدان على معطيات استقرائية، واستنتاجات منطقية، بعيدا عن أي توثن أو معتقدية مترمتة أو موقف تبريري[3].

إن المنهج الذي يقترحه الأستاذ الجراري ينبني على تشغيل مسألة الإقليمية، ومعيارية المنهج النقدي، وهو يتكون من :

أ- منهج إقليمي :

توسل به لدارسة الأدب المغربي، ورصد ظواهره وقضاياه، وغايته في نظر الأستاذ الباحث :

1) وسيلة للم شتات الأدب والفكر المغربي وتقريبه من المجتمع.

2) انتقاء الظواهر والقضايا الأدبية وربطها بالبيئة ومقوماتها ومؤثراتها.

3) النظر إلى الأدب من خلال نوعيه المدرسي والشعبي لتكون الرؤيا متكاملة.

ب - منهج استقرائي :

يكمل المنهج الإقليمي، ويساهم معه في رصد الظواهر والقضايا الأدبية، وهو يجمع بين الوصف والتقرير والتحليل والتأريخ، هذه الرؤيا بناها الباحث الأكاديمي على عناصر علمية، تشكل خطوات ضرورية في دراسة الأدب والفكر المغربي وتتلخص في:

1) لاحظ المؤلف ظواهر أدبية مغربية تحتاج إلى الدرس وإعادة النظر فيها، مادامت مهملة، أو أطلقت عليها أحكام خاطئة، أو تحامل عليها بعض المتحاملين، انطلاقا من ظاهرة «وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي»، إلى ظاهرة «المسرح عند العرب والمغاربة»، وهذه القضايا لم يعطها الدارسون ما تستحقه من عناية، ولم ينصفوها، ولم يضعوا الأمور في نصابها.

2) بحث عن فرضيات جديدة، كبديل لدراسة هذه الظواهر والقضايا، ليثبت من خلالها أهمية الأدب والفكر المغربي، ومدى أصالة المغاربة في الحقل الإبداعي.

3) جرب هذه الفرضيات / المعطيات الجديدة عن طريق الوصف والتقرير والتحليل والنقد والاستشهاد والمناقشة، لتصحيح المفاهيم المغلوطة، ورد الأحكام المسبقة، والتعريف بقيمة الأدب والفكر المغربي عبر عصوره المختلفة، معتمدا على المصادر والمراجع والمخصوطات التي تناولت هذه القضايا من قريب أو بعيد، مستشهدا ومحللا ومقررا لترسيخ الظاهرة الأدبية المجربة، ومدى مشاركة المغاربة فكريا وأدبيا في بناء صرح الأدب العربي.

4) استخلص من نتائج هذه الظاهرة المدروسة حقيقة الأدب والفكر المغربي قبل دخول الإسلام إلى المغرب وبعده، فالعصر الحديث، ليلخص ادعاءات المتحاملين على الأدب المغربي، وليثبت قيمته وأصالته وخصوصيته، وما للمغاربة من إنتاج أصيل في مجال الشعر والنثر، والنتيجة التي انتهى إليها تشبه إلى حد كبير منهج عالم الطبيعة، الذي ينطلق من ملاحظة ظاهرة معينة، فيبحث عن فرضيات، ثم يحاول تحقيقها عن طريق التجربة المخبرية، ليصل في النهاية إلى قانون عام يجمع بين كل الظواهر.

والأستاذ الجراري حين طرح دراسة الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه انطلق من بعض الآراء الشائعة حول الأدب المغربي، باعتبارها آراء غير منصفة، تقلل من شأن الأدب والفكر المغربي، أو تهمله جملة، هي بالتالي تشكل قضية فكرية نقدية، جعلت الباحث العالم يعيد النظر فيها، ويصححها وينقدها، لإظهار الحقيقة الأدبية، ويظهر هذا الهاجس من خلال حديثه مثلا عن بروز ذاتية المرابطين في الأدب والفكر رغم سيطرة التيار المالكي، وهذه فرضية جديدة، ورأي جديد في الأدب والفكر المرابطي، والمخبر الذي جرب فيه هذا الحكم هو الاعتماد

على الدواوين الشعرية والمصادر والتاريخ الذي يرتبط بالفترة المرابطية، مستشهدا منها على ما ينزع إليه، ومطبقا قانون الانتقاء، ليخلص في بحثه – في كل ظاهرة– إلى قانون عام هو رأيه في الظاهرة أو القضية التي درسها.

واستقرائية منهجه حتمت عليه أن يوظف جميع أسس المنهج التجريبي وأحيانا فرضت عليه استنطاق التراث بلغتين:

لغة علمية استقرائية بكل ما تحمله من موضوعية، ولغة أدبية انتقائية لظواهر بعينها، وبين اللغتين يوجد التاريخ والواقع الإجتماعي والفكري والأدبي، وما الإقليمية التي تبناها كمنهج، واشتغل بأدواتها، من خلال معيارية المنهج النقدي، إلا نتيجة لاستقرائية هذا المنهج، الذي تغلب عليه النزعة الوصفية الناتجة عن الدراسة السانكرونية، التي ليس للزمن فيها أي دخل»، إذ يجعل الظاهرة محط الدرس والتحليل والتركيب والاستنتاج.

ج – المنهج التاريخي:

وقد استعان إلى جانب المنهجين المذكورين بالمنهج التاريخي، واستغل أدواته في سرد الوقائع والأحداث التي ترتبط بكل ظاهرة، وفي إثارة طبيعة المسيرة التاريخية التي برزت فيها الظاهرة، ومدى أثر البيئة عليها، من أول ظاهرة إلى أخر ظاهرة، كما اتجه نحو التنظير لبعض الأنماط الشعرية عبر تطورها. كزجل تونس، وقضية المسرح المغربي، ونحو التحليل والمناقشة أثناء تتبع الظواهر الأدبية من القديم إلى الحديث، ولهذا يعتبر المنهج التاريخي وسيلة لخدمة المنهج الإقليمي بناء على النزعة «الفينومينولوجية».

IV- وثوقية المنهج الجراري وعلميته:

إن هدفه من هذا الخطاب النقدي هو خدمة الأدب المغربي، والتعريف بأهميته وأصالته، ودحض ادعاءات المتحاملين عليه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أسعفه هذا المنهج الاقليمي /الظواهري في تحقيق الهدف من تأليفه للكتاب؟ يجيبنا الأستاذ عن هذا التساؤل بقوله: «وفي اعتقادي أن مثل هذا المنهج هو الذي سيعلمنا، وسيجعلنا نعلم طلابنا كيف يوقف على النصوص والاخبار لاستنطاقها، وكيف تطرح الأسئلة، وإن لم تتيسر الإجابة عليها دائما، وكيف ترفض الأحكام السابقة للنقد، وكيف تقدم تقويمات جديدة على أساس من البناء العقلي ومن التفكير في واقع التاريخ ولحظات الأحداث وممارستها وما يحيط بها من ملابسات. ولعلي في غير حاجة إلى القول بأن طرح المعظلات أشق في أحيان كثيرة من حلها، لاسيما حين يجازف الدارس بأحكام وآراء يعرف مسبقا أنها معرضة للنقد والنقض[4].

ثم يضيف قائلا: «لا أملك إلا أن أعترف بأنها مجرد جهود قاصرة واجتهادات متواضعة، حسبي منها أنها تطرح منهجا لدارسة أدبنا، وأنها تتيح للقراء عامة، والجامعيين منهم، فرصة التعرف إلى هذا الأدب، وأنها تفتح للباحثين بعض الآفاق[5].

وهذا ما يؤكد مدى أهمية هذا المنهج، ومدى تواضع الباحث العالم الذي اعتبر ما قام به، مجرد جهود قاصرة، واجتهادات متواضعة، وهذا يعكس بصدق تواضع العلماء، فهل يمكن أن نتجرأ – بعد طلب الإذن والمسامحة – ونقول هل كان وفيا له؟.

إن أهمية خطابه المنهجي تبرز في تحديد الميدان الذي اهتم به، وفي الحقل الأدبي والفكري الذي رسمه في دراسته، فطرحه للظواهر والقضايا الأدبية في الأدب العربي المغربي، أضفى على منهجه صفة الإقليمية، وفي طريقة معالجتها أضفت عليه نزعة العلمية الاستقرائية، وهذا يؤكد مصداقية منهجه وصلاحيته للأدب المغربي، مادامت المسيرة التاريخية تعرف ثغرات وتقطعا حضاريا، وبواسطة هذا المنهج أثبت الذات المغربية على صعيد الفكر والأدب العربي، وقد انفرد منهجه بالخصائص التالية:

1) إن محاولته لإخضاع الظاهرة الأدبية (الظواهر والقضايا المرتبطة بالأدب المغربي) إلى الدرس والبحث عن طريق هذا المنهج الذي تبناه لمعالجة الظواهر والقضايا المنتقاة، تعكس خلفية مهمة هي أن الكاتب أدرك مدى تخلف المناهج الأخرى، التي كانت سائدة في دراسة الأدب المغربي، والتي أهملت هذه الظواهر والقضايا وهي بالتالي لم تكن مسعفة في تناولها.

2) إن تبنيه لعلمية المنهج، جعل الظواهر والقضايا التي تناولها بالدرس واضحة ذات طابع تقني تقنيني، وهذا لا ينفي وجود المنهج التاريخي والانطباعي في سياق هذا المنهج العلمي، خاصة وأن المنهج المتوسل به كان مسعفا في درس هذه الظواهر، وصالحا لمعالجتها بأدوات «الاستقراء الفينومينولوجي».

3) إن نظريته الإقليمية وسيلة جادة لخدمة أدبنا والتعريف به، وجمع شتاته وتسليط الأضواء عليه من خلال ظواهره وقضاياه، وإظهار مميزاته وخصائصه.

ويمكن اعتبار هذه المنهجية المتبعة في دراسة الأدب المغربي، منهجية ضرورية على مستوى البحث والنقد والدارسة؛ لأن طبيعة الأدب المغربي وطبيعة المرحلة

التاريخية تفرض ذلك، كما أنها منهجية مسعفة في الكشف عن أي أدب مجهول أو مشوه، أو لم ينصف من دارسيه، وعلى هذا الاعتبار سخرها الأستاذ الجراري في خدمة الأدب المغربي من خلال خدمة ظواهره وقضاياه. وقد اعتبر هذه المنهجية بداية لمواصلة البحث، وفاتحة أمام الشباب، إنها دعوة إلى منهجية حديثة إذا قيست بالمناهج السائدة في دراسة الأدب المغربي يوم ظهور كتابه، وهذا ما دفع «د. مصطفى الشليح» إلى الإشادة بالمنهج الظواهري عند مؤسس الدارسات المغربية وما له من مميزات تدعو إلى استقصاء جذور الظاهرة الأدبية وتفسيرها ودراستها من الداخل، على ضوء بناء منهج تكاملي يتعامل بمرونة مع واقع الأدب المغربي حتى يمكن بحثه ودرسه، وتجاوز بتر تاريخيته[6]، وآراء المتحاملين عليه، ودحض ادعاءاتهم، وهذا الموقف أكده حسن بن زياد في محاضرة ألقاها على أمواج الإذاعة المغربية في شهر يناير 1986 .

إن الطريقة التي انفرد بها في دراسة الأدب المغربي وتراثه دفعت كثيرا من الدارسين والنقاد إلى اعتباره رائد الدراسة والبحث والتعريف بالأدب المغربي وتراثه نذكر منهم: «حسب الله يحيى» في مجلة الترات الشعبي العراقي عدد 76 السنة5، و«محمد قرانيا» في مجلة صوت فلسطين عدد 128 و«بيدرو مونتافيز» في مدخل إلى «الأدب العربي المعاصر» بالإسبانية، و«أحمد أبو سعد» في مجلة الآداب عدد 2 السنة 20 عام 1972، و«سيد حامد النساج» في بحوث ودراسات أدبية «سلسلة اقرأ رقم 436. وخلاصة القول إن الأستاذ الجراري يعد أستاذ الجيل والأب الروحي في المغربيات، فهو دارس وباحث مشهور وطنيا وعالميا، متخصص في الأدب والفكر المغربي، حيث ساهم بدور فعال في بناء المنهج الإقليمي لدراسة الأدب المغربي، والتعريف به.

٧- قيمة الكتاب العلمية والنقدية:

إن الباحث المتخصص انطلق من نزعة مغربية إقليمية بمفهومها الواسع، حيث تطبعها روح الوطنية، وحب التراث والاعتزاز بالذات المغربية، وبأهمية إبداعها شعرا ونثرا، والدفاع على أصالة المغاربة، ورد ادعاءات المتحاملين، ولم يكن هدفه التأريخ للأدب المغربي وتتبع عصوره، وإنما أراد أن يصحح المفاهيم المغلوطة على الأدب المغربي وتراثه، ليؤكد على الحضور الفكري والأدبي المغربي المكثف في كل عصر، حسب تأثير الظروف البيئية الفاعلة في عملية الإبداع، وارتأى أن ينتقي الظواهر والقضايا الأدبية حسب ما تثيره من أهمية، وحسب حساسيتها الوطنية والظروف البيئية المؤثرة، وحسب الطابع المتميز لهذا الإنتاج المغربي، الذي لم ينتبه إليه بعض الدارسين ولم يعتنوا به. عموما ولم ينصفوه، فاهتم وصحح المفاهيم المغلوطة عنه ودحض الأحكام المسبقة، والاتهامات التي أطلقت عليه من طرف بعض المستشرقين والعرب، مستنطقا المصادر والوثائق والمخطوطات والمراجع، لتوضيح موقفه واقتناعه ومدى أصالة الأدب المغربي، وحافزه في البحث غيرته الوطنية وحب الحقيقة وحميته القومية، لأنه أراد أن يصير في الإنسان المغربي الاهتمام بفكره وأدبه وتراثه.

ومن هذا المنطلق تبرز قيمة الكتاب على عدة مستويات، قيمة نقدية وتارخية وحضارية، يحسها القارئ من خلال رؤية ومنهجية الكاتب، سواء في طرح كل ظاهرة أدبية للدرس أو إعادة تركيبها وصياغتها.

ومن الملاحظ أن الكتاب رغم مرور فترة يعكس مرحلة تطورية انتقالية في دراسة الأدب المغربي، مما أثرى الحياة الأدبية والنقدية، ولفت الانتباه إلى أهمية

الأدب والفكر المغربي الذي لا يقل إبداعا وأصالة عن غيره من أدب الأقاليم العربية الأخرى، وإلى أهمية المنهج الأقليمي والاستقرائي الذي أرسى دعائمه في بحثه، ورسخ تقاليد تشغيل مسألة الإقليمية بطل دلالتها المتفتحة على الأدب العربي، كما أن الطابع الذي يطبع منهجه هو الجدة في الطرح وفي تعميق البحث الهادف المتسلح بالأدوات العلمية.

وهذا يدل على موضوعيته وأمامنته العلمية. وكتابه في هذا الباب يعتبر فريدا من حيث الدارسة وطريقة البحث، والمنهج المتبنى.

*****

الهوامش :

(1) وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد عالم المعرفة ص 207 ع 17 مارس 96 .
(2) كانت طبعته الأولى في سنة 1979 - مطبعة النجاح الجديد - البيضاء.
(3) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص 8-9
(4) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص 10 .
(5) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص 10 .
(6) مجلة دعوة الحق، ع 228، ص 50، أبريل 1983.

*****

الدكتور عباس الجراري وجهوده في الأدب الشعبي

منير البصكري الفيلالي*

إن الكتابة عن الأستاذ الدكتور عباس الجراري، تقتضي وقتا طويلا، وجهدا كبيرا، وهو مالم يتوفر لي في هذه الآونة، وذلك من ناحيتين :

الأولى : تعدد وتنوع الجوانب في الإنتاج الأدبي والديني واللغوي، وغير هذه الجوانب مما لا يدخل تحت نطاق محدود، مما ألفه الأستاذ الجليل، والتي كان فيها كلها قوي الزخم، ناصع الحجة، طويل النفس. ولعل دراسة مثل هذا الإنتاج الضخم، تحتاج إلى مؤلف أو مؤلفات ضخمة، وهذا موضع الصعوبة لدي.

الثانية : انشغالي المتواصل بتحضير أطروحة دكتوراه الدولة تحت إشراف أستاذي المقتدر الدكتور عباس الجراري الذي ما فتئ يشجعني في كل مناسبة ألتقي به، للاستمرار في هذا المجال.

لقد دخل أستاذنا ـ أطال الله عمره ـ مجال التأليف بقوة وكفاية، فأصدر أول ما أصدر مؤلفا عن الأدب الشعبي سماه : «الزجل في المغرب ـ القصيدة». ثم توالت مؤلفاته فيما بعد. وقد بلغ الغاية في كل ما أصدره سواء في بحوثه عن الأدب الشعبي المغربي أم غيره من الدراسات.

* أستاذ باحث في الأدب المغربي.

إن التفكير في تكريم أستاذنا الجليل بمناسبة بلوغه سن الستين أمر عظيم، وعمل نبيل، تستحق عليه اللجنة المنظمة كل ثناء وتقدير. وهو جهد يجب أن نثمنه، ونعترف لدويه بكل جميل. وما أحوجنا إلى أن نعرف الكثير من طلابنا الشباب بالجهود التي بذلها أستاذنا ليقتدوا به، ويزيد تناولهم له معرفة واقتداء وتقديرا.

ولكي نحقق هذه الغاية، لابد من تناول سير المفكيرن والعلماء تناولا شاملا، وتسليط الأضواء على إنتاجاتهم، والتنقيب في أفكارهم بغية إدراك مقاسة أتعابهم، وتحسس أبعادهم.

والوقوف عند شخصية مثل أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري، له قيمته الكبرى في عصرنا هذا، الذي يرزح تحت أعباء الماديات والتناقضات. فهو من الذين يمتلكون شخصية قوية وذكاء ثاقبا وثقافة عالية شاملة، مما أهله ليكون بحق أديبا مشرقا ومشرفا. ونحن نكتب مثل هذا الكلام، فلا يعني هذا أننا نسعى إلى رفع قيمة الرجل، بقدر ما نرفع من قيمتنا ونحن نتناول بعض الجوانب الفكرية من مساهماته الغنية والكثيرة، خاصة في مجال الأدب المغربي... لأن الكتابة عنه تعطي تاريخ الأدب ضوءا ساطعا ومنيرا. فهو مفكر وأديب عميق الفكرة، عالج الكثير من القضايا معالجة متأنية، وذلك نتيجة متابعة دقيقة لجذور وأبعاد تلك القضايا وخفاياها وخلفياتها. وكلها كانت مدعمة بالوثائق والشواهد الملموسة؛ كل ذلك بطريقة منظمة ومحكمة. فأفكاره مرتبة، يكتب بمهارة فائقة في التعبير، كما يمتاز أسلوبه بالمتعة وبوضوح العمق الثقافي والفكري. كل هذه المقومات وغيرها، جعلت الدكتور عباس الجراري أصيلا في كل شيء، وحق له بذلك أن يلقب عميد الأدب المغربي بلا منازع.

نعم، لقد وفق أستاذنا في اختيار الموضوعات التي كتب عنها، وهي كثيرة ومتنوعة، وغنية بما تطرحه من أفكار، وظواهر وقضايا. وسنخصص هذه المساهمة المتواضعة للحديث عن جهوده في مجال الأدب الشعبي. ولعل الاهتمام بهذا الأدب أصبح أمرا ملموسا على الساحة الأدبية، حيث بدأت الكثير من المحاولات تكشف عن جوانبه المتنوعة وإخراجه وعرضه للدراسة، تمهيدا لتحديد خصائصه ومميزاته. ولقد كان الدكتور عباس الجراري من أوائل المهتمين بهذا التراث الأدبي، أدار البحث عليه، في وقت لوحظ مدى استئثار اهتمام الباحثين بالموضوعات التقليدية، والإلحاح في الاهتمام بكل جزئية من جزئياتها، حتى بدت بعض الموضوعات وكأنها استهلكت لكثرة ما طرقت وما أعطي فيها من أحكام وآراء.

من هذا المنطلق، وجد المؤلف أن التراث الشعبي في حاجة ماسة إلى من يتعهده بالبحث والدراسة، خاصة وأنه اختصاص غير مدروس بما فيه الكفاية، وأن ما كتب فيه هو عبارة عن آراء عامة قد تقف عند بعض الظواهر دون التعمق فيها. ولعل معظم الدراسات التي تمت في هذا النطاق وإن تنوعت في مادتها، وطرق التناول، فإنها تهدف إلى تحقيق غاية واحدة، هي محاولة تأصيل هذا الأدب وكشف جوانب النضج فيه. ومعلوم أن الأستاذ تناول الأدب الشعبي في فترة تشكك في صلاحيته الكثير من المثقفين وأنكروا على الأستاذ تناوله له.

يقول في مقدمة كتابه، «الزجل في المغرب ـ القصيدة» : «أما موقف المثقفين، فواجهنا فيه إنكارا مطلقا، وحاول كثير من الباحثين الأصدقاء تحويل فكرنا عنه وإغرائنا بموضوعات في الأدب المعرب المغربي، أو بما يرونه التراث الحقيقي الأصيل. وهم في هذا بين معتبر للآداب والفنون الشعبية من التراث، لا يتمثل

قيمتها ولا يراها جديرة بالبحث، وبين معترف بها ومقتنع بجدية الدراسة التي ندير عليها، ولكن يراها تستهدف التسلية والترويح، وتأتي بذلك في المرتبة الثانية بعد التراث المدرسي، لا يعدو الاهتمام بها أن يكون ترفا للعقل وترفيها عن النفس[1]».
ثم يضيف الأستاذ مؤكدا على أن للأدب الشعبي مكانة كتراث أصيل : «ولعلنا أن نؤكد لهؤلاء جميعا أن الأدب الشعبي جزء ركين من التراث، وأنه تعبير عن مقومات الشخصية الوطنية والذاتية الجماعية، وأن الاهتمام به، اهتمام بهذه الذاتية وتلك المقومات[2]...» وبالفعل، فقد أثارت قضية الموقف من الأدب الشعبي، اهتمام بعض الباحثين، وبذلك وضعت تساؤلات عديدة تتناول ماهية هذا الأدب وجدوى الاشتغال أو الانشغال به، وإذا كان يستحق فعلا كل هذا الاهتمام الذي يبذله المختصون في التنقيب عنه ثم مدى الفائدة التي يمكن أن تعود علينا من كل هذه الجهود التي تستطيع أن تفيد وتغني مجال البحث العلمي. وربما كان من الطبيعي أن تختلف وجهات النظر حول هذا الأدب، وذلك نتيجة الظروف الثقافية الراهنة، والوضع الذي يجد فيه المثقفون أنفسهم، وهو وضع يكاد يصل إلى حد التمزق النفسي بين الرغبة في المحافظة على هويتنا الثقافية، والدفاع عنها، وبين الرغبة في متابعة التطورات الثقافية الجديدة، والاتصال المتزايد بالعالم الخارجي، ووقوع ثقافتنا تحت وطأة وتأثير الثقافة الوافدة، وما يرتبط بذلك من الاعتقاد بأن مثل هذا الأدب يمثل عبئا ثقيلا يعوق حركة الانطلاق في مجالات الفكر الحديث.

ولا أقصد هنا إلى التعرض لمثل هذه المواقف والأفكار، بقدر ما أسعى إلى تصحيح هذا الوضع، وذلك بالاتفاق على أهمية أدبنا الشعبي، بل تراثنا الشعبي عموما، وضرورة العمل على دراسته والتعريف به وتقريبه إلى المتلقي، على أمل أن

يصبح جزءا أساسيا في تكويننا الفكري والثقافي. ومنطلقنا في ذلك يعود إلى اعتبار الثقافة وحدة كلية متكاملة، وعملية مستمرة تتعدى في وجودها كل اللحظات الزمنية الآنية، وتتصل حلقاتها بعضها ببعض، على الرغم مما قد يطرأ على بعض مظاهرها من تغير واختلاف. وإذا كنا اليوم نرى أن الغرب أحرز تقدما هائلا في العلم والتكنولوجيا، ومختلف مظاهر الحياة، وأوجه النشاط العقلي والفكري، فإنه لم يتشكك قط في أهمية ما يمتلك من تراث شعبي، معتبرا أن الاهتمام بهذا المجال هو مسألة مسلم بها، وليس علامة على التخلف أو عاملا من عوامله.

إن الوعي بهوية الأدب الشعبي لا يشكل الحد الأدنى المطلوب من الوعي بقضايا المعرفة المعاصرة، وهناك خلط غريب، وصورة مجتزأة لدى الكثيرين حول مفهوم هذا الأدب.

وربما يعود الأمر إلى شيئين اثنين :

الأول : أن الأدب الشعبي نفسه هو من العلوم الإنسانية الحديثة التي ما تزال بحاجة إلى إرساء مناهج البحث فيها. كما أن عملية الفصل التام بينه وبين كل من التاريخ والأثنولوجيا وعلم الاجتماع لم تتم بعد.

الثاني : التداخل المستمر بين الثقافة الشعبية والثقافة الرسمية. فنحن نرى أن الثقافة الرسمية تنهل في غير قليل من الأحيان من الثقافة الشعبية. فالشعر الملحون مثلا والأغاني المبنية عل أصل شعبي، والأعمال المسرحية وغيرها التي تتكئ على موتيفات من الحياة الشعبية تملأ حياتنا الثقافية... وقد يتسع مدى هذا التداخل يوما بعد يوم مع القفزات التكنولوجية السريعة التي تقفزها الحضارة.

وهكذا، فالأدب الشعبي أدب يعبر عن هموم واهتمامات الفئات الشعبية ومدى قابلية هذه الفئات تبني هذا الأدب واستساغته وتداوله وإضفاء صفة التملك الشعبي عليه.

يبدو إذن أن مسألة الإفادة من هذا الأدب مهمة لا تخلو من صعوبة، وإدارة البحث عليه تحتاج إلى بعد ثقافي ومعرفة واسعة وإلمام بنواحيه المتشعبة. والدكتور عباس الجراري قد خاض غمار هذه التجربة وخرج منها بنتائج إيجابية تجسدت في مؤلفاته بشكل واضح، دون أن تكون هذه الإفادة اقتباسا أو نقلا يؤثر على القيمة الجمالية والإبداعية للعمل الفني، بل تجعله عاملا مؤثرا في عملية التغيير التي يمر بها الواقع المعاصر. لأن الفن الأصيل المرتبط بتراث أمته، كلما امتلك أبعاد هذه الأصالة، كلما كان تأثيره أكثر. وأصبح وسيلة جيدة تعكس الواقع الحضاري المتطور. وخير دليل على ذلك إسهامات الدكتور عباس الجراري وجهوده في الأدب الشعبي، والتي أثبت من خلالها جدارة وأفقا واسعا، متفهما للموضوع، مجسدا له بشكل يدل على امتلاك ملكة فنية ومقدرة فائقة في هذا المجال. كما أنها إسهامات جيدة ذات مضامين وافية، إضافة إلى أنها ذات فائدة تراثية عظيمة، تكشف عن خصوصيات الإبدا ع الشعبي في المغرب «من حيث هو فن ممتع ووثيقة شاهدة»(3).

لقد أدرك الدكتور الجراري قيمة البحث في الأدب الشعبي، فرأى أنه لابد من صيانة هويتنا الثقافية، وإبراز طابعها القومي والإنساني، والعناية بأنماط تفكيرنا وقيمنا ومثلنا، تمهيدا لاستنباط المستقبل وفق رؤية جديدة مستمدة من الماضي. وتناول الأستاذ عباس الجراري لقصيدة الملحون من خلال كتابه «الزجل في المغرب، القصيدة» يعني :

أ ـ معرفة الخصائص والمميزات العامة لجزء من تراثنا الشعبي الأصيل، يدخل في بناء العمل الأدبي الشعبي.

ب ـ اعتبار قصيدة الملحون حدثا مستمرا يواكب مسيرة البيئة التي ولدتها وتعيش بين أحضانها.

ج ـ إثراء الوجدان الإنساني بهذا المعطى الشعبي الثري والمتنوع.

د ـ وهذا أهم بكثير، ذلك أن الأمر يتعلق بنمط الحياة الجديدة. فغني عن البيان أن الحضارة العلمية في عصرنا الحاضر، وما تميزت به من تقدم علمي، وتطورات تكنولوجية معقدة، لم يقتصر تأثيرها على مس الحياة الإنسانية اليومية مسا مباشرا، وإنما حملت الإنسان إلى آفاق الفضاء الخارجي مبشرة بقرب بداية عصر جديد للسفر بين عوالم النجوم والسيارات، وفي ذلك كله ما فيه من مؤشرات خطيرة، تنذر بتغيرات جذرية في حياة الناس، قد تتهدد إنسانيتهم وثقافتهم، وتنقلهم إلى مرحلة يصبح فيها الإنسان أقرب إلى الانسان الآلي منه إلى الإنسان الإنسان. وتحت تأثير مثل هذا الاعتبار، انبرى الدكتور عباس الجراري دارسا ومحققا ومحللا وناقدا لقصيدة الملحون، بغية الحفاظ على خصائصها المميزة، وبهدف المحافظة على مقوماتها الفنية والفكرية حتى لا تطغى «الصنعة» على «الإبداع»، وحتى لا تختفي ملكات الإنسان الخلاقة خلف الكم الكبير من الإنتاج الآلي.

ويعبر عن ذلك الدكتور عبد الحميد يونس بقوله : «إن مواجهة العصر الحديث تقتضينا أن نعتصم بتراثنا، ولذلك كان من الضروري أن نصحح هذا التراث وأن نضيف إليه التراث الشعبي».[4]

والشعر الملحون يدل على وجود أدب شعبي متميز، كما يدل على طرافته وتنوع مضامينه. وهو باب مهم من تاريخ ثقافتنا المغربية، بدأت الأنظار تتجه إليه منذ أن وضع الدكتور الجراري لبناته الأولى في كتابه المشار إليه آنفا. وهو محاولة مكتملة الأصول تدل على أصالة كاتبه ورهافة حسه وذوقه، بل وصدقه مع نفسه هو الآخر. نعم، لقد كان لابن خلدون الفضل في إشعارنا بأهمية الملحون منذ القرن الرابع عشر الميلادي، إذ يحدثنا عن أزجال ترجع إلى عهد القرن الثاني عشر. لكن معظم هذا التراث الشعبي الذي بين أيدينا اليوم، يكاد في الغالب يعود إلى القرنين الأخيرين، حيث تتكاثر أسماء الشعراء وتتعدد القصائد، لأننا عند قراءتنا لهذا الشعر، نحس بروح شعبية أصيلة. ففيه إنتاج شعبي بكل معنى الكلمة، يتمثل في الوجدان الشعري وفي التجاوب مع العاطفة الجماعية. وهو ما كشفت عنه دراسة الدكتور الجراري من خلال كتابه «القصيدة» الذي يحوي أغلب ما يخص هذا اللون الأدبي عبر سبعمائة وخمسة عشر صفحة من القطع المتوسط. تناول في مقدمته دوافع تناول الموضوع إضافة إلى تناول موقف المثقفين من التراث الشعبي، مؤكدا في هذا النطاق مدى أهمية هذا التراث. فالبحث فيه يجب أن يتم على مرحلتين : مرحلة تعرف ثم مرحلة تعريف. ومن نافلة القول أن نذكر بأن التعرف والتعريف يجب أن يكونا منهجين علميين منظمين. فلا يكفي أن يطلع الراغب في إحياء تراثه على هذا التراث المتخصص اطلاعا سريعا، وأن ينقله كله أو بعضه إلى قرائه من أبناء قومه. إنه إن فعل حرى فيما وقع فيه الكثيرون ممن حاولوا الاطلاع على تراثهم، ولكنهم لم يصبروا عليه ولم يضعوه في إطاره الزماني، فما كان منهم إلا أن تورطوا في القول بأنه تراث ضحل لا يستحق أن نحييه، بل من المصلحة ألا نحييه.

إن المهم بعد هذا، هو أن نعرف ونتعرف إلى تراثنا ومصادره، وأن نعرف به، وذلك بطريقة منظمة ودقيقة، لأنه صورة للشخصية الوطنية، ودراسته هي تعزيز لإقليمية الأدب، وتقرير لمذهبه ومن ثم فهو تراث حقيقي أصيل يجب أن نتمثل قيمته ونعتبرها جديرة بالبحث.

بعد ذلك تحدث المؤلف في مدخل كتابه عن القصيدة الزجلية والغناء الشعبي. وقد استعرض في هذا النطاق مختلف أنواع الغناء في المغرب مبرزا أن القصيدة الزجلية تعد لونا هاما من ألوان هذا الغناء، ومناقشا شعبية هذا الزجل شعرا وغناء. «طالما أن الجماهير توارثته عبر القرون والأجيال وتداولته عن طريق الرواية الشفوية، لم تلجأ في ذلك إلى ما هو مكتوب».(5)

وفي الباب الأول يتناول المؤلف مفهوم الزجل وأنواعه موضحا مدلوله لغة واصطلاحا، مركزا على نوع واحد منه، هو القصيدة المنظمة التي يعرف منشئها. كما تحدث في هذا الباب عن اللغة والفنية، معددا مراحل التعريب في المغرب وكيف نشأت العامية وماهي خصائصها، مبرزا الجوانب البلاغية التي تتوفر عليها قصيدة الملحون من تجنيس وتصريف وتضمين، إضافة إلى أسلوب هذه القصيدة الذي لا يخلو من تشبيه ومقارنة وحركة وحيوية وتشخيص وحوار وما إلى ذلك. وكانت للمؤلف بعد ذلك جولات في عروض الملحون مناقشا بحور القصيدة الزجلية مفصلا القول فيها، مبينا مكونات بناء هذه القصيدة.

أما في الباب الثاني، فخصه الكاتب للحديث عن موضوعات الملحون، وهي عديدة ومتنوعة وغنية بمضامينها، ليقف في الباب الثالث عند أهم أعلام الشعر الملحون، مفصلا القول في مشاهيرهم، هدفه التعريف بتطور القصيدة الزجلية.

فالكتاب جليل بمادته، غزير بمعلوماته عن الشعر الملحون كأحد ألوان الأدب الشعبي وأنماطه.

وهو على الرغم من الجهد المبدول، فإنه يدل على علمية الباحث وتبويبه، بالإضافة إلى الروح المحللة والناقدة لكل ما يدعو إلى ذلك، بغية إجلاء الخطئ وتثبيت الرأي الصائب الصادق.

يبدو إذن أن المؤلف قد وفق إلى حد بعيد في اختيار الموضوع، وفي طريقة العرض وأسلوب البحث. وفق في اختيار الموضوع، لأننا في حاجة إلى الكتابة عن تراثنا الشعبي وإزالة الرواسب التي لا تزال عالقة بالكثير من خصائصه. ووفق في طريقة العرض والتحليل والبحث، لأننا في حاجة إلى الكشف عن هذا التراث بأسلوب يستسيغه منطق الجيل والعصر. فكان الأستاذ واضحا فيما كتبه، حريصا على تقديم ما يثري المكتبة المغربية بعد فحص وتمحيص.

وما قلناه عن جهود الدكتور عباس الجراري في كتابه «الزجل في المغرب»، نقوله عن كتابه «من وحي التراث» حيث أبرز الأستاذ من خلاله ثقافية التراث الشعبي. هذا التراث الذي يعد الوثيقة التي يقدم فيها الشعب نفسه، بل إنه خلاصة ما أبدع الشعب بمختلف طبقاته. فهذا التراث الشعبي يتعرض لوطأة التعديلات الناتجة عن تبني أساليب الحياة الحديثة، والناشئة عن التوسع في الاستخدامات التكنولوجية الحديثة والمتأثرة بتغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفقا لضرورات التحضر والتحضير.

ومن هنا حرص الأستاذ الجراري في هذا الكتاب على تبيان ما في التراث الشعبي من عناصر المرونة والخصوبة والقدرة على الملاءمة، مما يجعلنا نرفض جانبا ذلك الظن القائل بأن الحداثة ستقضي بالضرورة على سائر جوانب تراثنا الشعبي، وستلغي وظائفه. وهذا الجهد الذي بذله أستاذنا في الكشف عن مقومات تراثنا الشعبي، قادر على إكسابه وظائف جديدة، تتمثل في أن «أية خطة للتنمية لا تكون إيجابية إذا هي لم تقم على فلسفة شعبية تراعي الرأي الوطني والشعور العام وتفكير الجماهير وذوق الشعب ومختلف جوانبه العقلية والذهنية والنفسية والوجدانية، بدءا من تراثه بما يمثل من عادات وتقاليد وحرف وصناعات وسلوك وأخلاق. وبما يفرز من أنماط اجتماعية وما يتولد عنها من مسؤوليات يتحملها الرجل والمرأة في المجتمع...».(6)

والاستفادة من التراث الشعبي «تقتضي الكشف عن جوانبه الإيجابية القادرة على التكيف والتطور، أي الكشف فيه عن طاقاته الوظيفية لتطويعها وإخضاعها حتى تمد معركة التنمية بعيدا عن أي موقف متطرف للتراث».(7)

ومن هذا المنطلق، يمكن للإنسان المعاصر أن يعيش على أسس متكاملة ومتوازنة لا تفصله عن تراثه التقليدي، ولا تعريه من ثقافته التقليدية، ولا تحطم خير ما في أسلوب حياته، ولا تسمح بأن يقع أسيرا لأسلوب حياة هجينة.

إن مؤلفات الأستاذ عباس الجراري في مجال أدبنا الشعبي جادة تكشف عن خصوصيات الإبداع الشعبي في المغرب. وفي هذا النطاق، نجده في كتابه «في الإبداع الشعبي» الصادر عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط، يجيب على كثير من القضايا والظواهر التي تعرف في تراثنا الشعبي.

وضمن مباحث هذا الكتاب الذي يعتبر هو الآخر لبنة جديدة تضاف إلى سابقاتها، وتغني بذلك مختلف جوانب هذا الإبداع الشعبي، من خلال رؤية علمية دقيقة، وحس نقدي متميز، يكمن الجواب عن كل التساؤلات التي تهم تراثنا الشعبي. وهكذا تناول الكتاب المباحث الآتية :

1 ـ رأي في مفهوم الأدب الشعبي (المبدع بين الفردية والجماعية).

2 ـ أهمية النصوص الأدبية في التأريخ للموسيقى (شعر الغناء العربي وإشكالية الإبداع الموسيقي).

3 ـ مجموع في الأمداح النبوية لأحمد أحضري.

4 ـ قصيدة الملحون : إبداع وتجديد.

5 ـ الفنون الشعبية : أصالة وإبداع.

6 ـ فعالية التراث الشعبي في العلاقة بين التنمية والثقافة...[8]

ولعل الغرض من هذه المباحث، تتمثل أساسا في الحفاظ على بنية الثقافة الشعبية بمقوماتها الأصلية، كتعبير مباشر وحي عن فكر ووجدان المجتمع المغربي. وعلى الرغم من عوامل الاحتكاك الثقافي، فقد احتفظت ثقافتنا الشعبية بكل مقوماتها، واستمر الطابع العام لشخصات هذه الثقافة محافظا من خلال أشكال الإبداع الشعبي على الشخصية الحضارية للإنسان المغربي، وبقيت أنماط هذا الإبداع الشعبي متماثلة، متواصلة عبر الزمان والمكان.

إنه صورة من صور التعبير عن المجتمع، وعن تطلعات الإنسان الشعبي، وليس فرضا على أي عمل، ليكون شعبيا، أن يظل محصورا في نطاق طبقة العوام الأميين، ولعله من التحجر على الفنان الشعبي، كما يذهب إلى ذلك الأستاذ بقوله :

«أن نحبس الفنان في هذا النطاق، ولا نبيح له أن يربط علاقات وصلات بطبقات أخرى راقية، وأن يتسرب إليها بفنه ويؤثر عليها ويتأثر بها في محاولة لاحتساب بعض الجديد، مما لا عهد له في بيئته، بل إنا نذهب إلى أبعد من ذلك في النظر إلى هذه المظاهر بما فيها من رغبة للاقتباس والتنويع، وفي خلط غير منظم ولا مدروس، فتعتبرها دليلا مؤكدا لشعبية هذا اللون من الشعر. ثم إن المؤلف الشعبي يعبر عن واقع مجتمعه».(9)

إن تواصل الإبداع الشعبي يجعل الفروق الزمانية بين الحقب المختلفة كأنها لحظات من عمر الإنسان. مثلها مثل المساحات المكانية تتلاقى وكأنها كلها على مرمى البصر... فلا الزمان ولا المكان في تراثنا الشعبي يقيم حواجز بين الاستمرارية والحيوية في الإبداع الشعبي.

وإن عملية الكشف عن خصوصيات هذا الإبداع الشعبي المغربي بعناصرها وأنماطها المتعددة، ستضع أمام الباحثين مادة موثقة، تدرس وتقيم لا بهدف الحفاظ عليها وتقييمها فحسب بل بغرض وضع الخطة العلمية للنهوض بهذا التراث الشعبي في بنية الثقافة المغربية، وتوظيفها واستخدامها كمصدر من مصادر الإبداع الثقافي المغربي، مع تدعيمها إزاء التغيرات والتطورات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية. ومن ثم، فهذه الجهود التي بذلها أستاذنا الجليل هي جهود مثابرة، ساعدت إلى حد كبير على تحويل اهتمام الباحثين والدارسين والمهتمين، من دراسة أشكال الأدب إلى موضوعات الأدب الشعبي، كما ساعدت هذه الجهود المتنوعة على إنماء الدراسات العلمية وإنشاء الصيغ الأدبية في دراسة وعرض مواد التراث الشعبي، وبخاصة ما اتصل بالأدب الشعبي. ومن هنا تطرح

قضية المنهج الذي اعتمده استاذنا في هذا المجال بغية استقصاء هذا الجانب من ثقافتنا المغربية الأصيلة، والكشف عن مختلف أبعادها.

يقول الدكتور عباس الجراري متحدثا عن منهجه العام : «بدأ تناولي للأدب المغربي سواء في تدريسه بالكلية أو في الأبحاث التي نشرت، بمنهاج تشكل عندي في إطار ومحتوى أو نوع وكيف. أما الإطار فيتمثل في الإقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة...

وأؤكد أنني حين أقول الإقليمية وتأثير البيئة في الأدب، لا أنسى الشخصية الذاتية والموهبة الفردية، ولا أدعي تضييق الأفق والانحصار في إطار المحلية، ولكني أعتبرها الوسيلة الوحيدة للم شتات الأدب العربي في الأقطار التي أبدعته، والوسيلة كذلك للعالمية والإنسانية، بل إني أرى أنه كلما قسم نطاق الإقليم في الدراسة إلي بيئات صغيرة، كانت دراسة الإقليم مكتملة ومستوفاة... ويكتمل الإطار عندي بعناصر ثلاثة :

1 ـ النظر إلى الأدب من خلال نوعيه المدرسي والشعبي.

2 ـ اعتبار مفهومه شاملا لكل الإنتاج الفكري لأمتنا دون حصره في نطاق الشعر والنثر الفني كما يحدده الاصطلاح المدرسي الضيق لمدلول الأدب.

3 ـ تناوله سواء في قديمه أو حديثه عن طريق طرح ظواهره وقضاياه...

وأما المحتوى أو الكيف، فيقتضي معالجة هذه الظواهر والقضايا بفكر نقدي يستند إلى الواقع والمعاصرة، وبجدلية وموضوعية تعتمدان على معطيات استقرائية واستنتاجات منطقية بعيدا عن أي توثن أو معتقدية متزمتة أو موقف تبريري، إذ إنه في ظني لا يمكن فصل المنهج عن المضمون، كما أنه لا يمكن

ممارسة نقد قبلي، أي نقد سابق على المعرفة. ويقضي محتوى المنهج عندي كذلك أن أنظر إلى تلك القضايا والظواهر من زاوية تعطي الأسبقية للتمثل العقلي على النقد التأثري، أي بنظرة فكرية وعقلانية، وليس إلى مجرد التذوق الفني النابع من الإحساس الجمالي والتأثر العاطفي والانفعال الانطباعي بالأثر المدروس...».(10)

ولعل هذا المنهج الذي اختاره أستاذنا، كان الهدف منه أساسا هو ربطه برسالة الجامعة المغربية، وذلك بغية تحقيق ما يلي :

أ ـ تلبية حاجيات الأمة من الأطر القادرة على البحث في مثل هذه المجالات...

ب ـ استثمار الطاقات الفكرية لنمو المجتمع والسير به في طريق التقدم...

ج ـ جعل الجامعة جزءا من تاريخنا الوطني ومحركا له إن لم تكن صانعه، وذلك بربط برامجها ومناهجها بطبيعة البلد وواقع المجتمع...

د ـ نشر الوعي، وتوجيه الرأي وصقل الذهن، وتوضيح الرؤية وتعميق المفاهيم وتهذيب القيم...

هـ ـ إعطاء منظور قومي للعلوم الإنسانية، وتكوين ثقافة وطنية وصياغة فكر جديد ينقل الفكر القديم إلي النشء...

ومن خلال تتبع ما ورد في حديث الأستاذ عن منهجه، يمكن أن نوافقه إلى حد بعيد في الأهداف المتوخاة من هذا المنهج، والتي هي في نظره تتمثل في الكشف عن مواطن الجمال، وعن الدلالات الفنية وما ينبثق عنها... من مضامين فكرية... وإثبات الوقائع وربطها بالأسباب، ووصف الظواهر وتعليلها، والبحث عن

بواعثها الخفية والظاهرة، القريبة والبعيدة، واستخلاص العلاقات بينها وبين غيرها».[11]

بهذا التوجه المنهجي، استطاع الدكتور عباس الجراري أن يحقق الأهداف المتوخاة وهو يعالج مثلا قضايا وظواهر أدبنا الشعبي، بفكر متفتح، وبجدلية وموضوعية تعتمدان على معطيات استقرائية واستنتاجات منطقية تستندان إلى نظرة فكرية عقلانية، وليس فقط إلى مجرد التذوق الفني النابع من التأثر العاطفي والانفعال الانطباعي بالأثر المدروس.

إن دعوة أستاذنا إلى هذا المنهج الفكري العقلاني نظرية وتطبيقا، نجده يؤكد عليها في مقدمة كتابه «الزجل في المغرب» بقوله : «إن المنهاج الذي سرنا عليه في البحث هو نفس المنهاج الذي ندعو له في دراسة أدبنا وتراثنا عامة، ويتلخص في أربع مراحل يحتاج في إنجازها ـ كلها أو بعضها ـ إلى جهود فردية وجماعية، تعمل في تكتل وتناسق وتكامل، هي :

1 ـ التعرف إلى المصادر والتعريف بها بوضع فهارس لمخطوطات الخزائن العامة والخاصة.

2 ـ إخراج النصوص مجردة أو محققة إن أمكن...

3 ـ دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية تقوم على الوصف والتقرير.

4 ـ دراستها دراسة نقدية ومقارنة.[12]

ومثل هذه الدعوة نجدها أيضا في كتابه : «صفحات دراسية من القديم والحديث». يقول الأستاذ :

«أما بالنسبة لما نحن بصدده من بحث في الأدب المغربي، فإننا نؤمن بضرورة جدوى الدراسة الإقليمية كمرحلة أولى لجمع شتات الأدب العربي في مختلف أنحاء الوطن العربي. وننطلق من النظر إلى الأدب وإلى التراث عامة باعتباره ذا شقين، أحد هما مدرسي، والثاني شعبي عن طريق طرح مشكلاته وقضاياه».[13]

إن الغاية التي كان يرمي إليها المؤلف من خلال بحثه في الأدب الشعبي خاصة، لها دلالاتها العميقة، ترتبط أساسا بأصالتنا ومقوماتنا. ولعل مما زاد في تعميقها، استغلاله للمنهجية الإقليمية لدراسة الأدب المغربي بنوعيه : المدرسي والشعبي. ومن هذا المنطلق، اكتسبت مؤلفاته قيمة لا تضاهى، مترجمة بذلك عقله الواعي الناضج. وإن الحركة الأدبية الفكرية المغربية لن تنسى ما قدمه الدكتور عباس الجراري من عطاءات شامخة تشخصت في مختلف مؤلفاته، وتجسدت في مستوى رفيع من ثقافته وفكره في تميزهما وأصالتهما الثقافية والحضارية.

فالدكتور عباس الجراري صاحب تعامل نظيف وصادق وصدوق، وقلب نظيف، والتعامل بأدب مع الجميع. فهو من الذين فرضوا احترامهم على الساحة الوطنية والأدبية، وكون علاقات حميمة مع طلبته ومع قرائه، يتمتع بدبلوماسية مهذبة في علاقاته وارتباطاته، لا يمل الجلوس إليه للاستماع لآرائه وتوجيهاته. يضاف إلى هذا وبكل صدق أنه صاحب مواقف ومبادئ. فنحن أمام شخصية لها مكوناتها النادرة وخصائصها الثابتة. إنه الخلق النبيل، تركزت فيه العفة والرزانة والصدق.

إن الدكتور عباس الجراري مدرسة مستقلة في الأدب المغربي... كل من يقترب منه، لابد أن يلمس فيه سرعة تجاوبه مع المواقف الإنسانية، محب للخير،

أصيل في فكره، زخم بالمشاعر الوطنية المخلصة، عرف بالولاء الكبير لوطنه المعطاء. وما هذه المولفات إلا نماذج رفيعة، ومفخرة جليلة خدمة للفكر المغربي. فهو من القليلين الذين خدموا الدين ثم الوطن بكل أمانة وإخلاص.

فإلى أستاذنا الجليل، أطال الله عمره، أقدم هذه المساهمة المتواضعة، عربونا على الوفاء والسير على الدرب الذي اختطه لنا.

والله أسأل أن يرزقه الصحة والعافية، وأن يمد في عمره المبارك، ويمتعه بالمزيد من عطائه الكريم.

* * * *

الهوامش :

1ـ الزجل في المغرب ـ القصيدة ـ الدكتور عباس الجراري. ص 30 (الطبعة الأولى مارس 1970).
2 ـ المرجع السابق ص 30.
3 ـ في الإبداع الشعبي ـ الدكتور عباس الجراري ـ ص 4 ـ الطبعة الأولى ـ غشت 1987 ـ مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط.
4 ـ العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي ـ الدكتور عبد الحميد يونس ص 17.
5 ـ الزجل في المغرب ـ القصيدة ـ الدكتور عباس الجراري ـ ص 41.
6 ـ في الإبداع الشعبي ـ الدكتور عباس الجراري ـ ص 130/129.
7 ـ مجلة دعوة الحق ـ العدد 223 ـ يوليوز 1982 ـ ص 130.
8 ـ الملحق الثقافي لجريدة الميثاق ـ بتاريخ : 23/22 ماي 1988 ـ الصفحات ـ2 ـ3 عرض عن الكتاب : «في الإبداع الشعبي». منير البصكري.
9 ـ الزجل في المغرب ـ القصيدة ـ الدكتور عباس الجراري ـ ص. 41/40.
10 ـ الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. ص 8 و9. مطبعة النجاح ـ البيضاء.
11 ـ المرجع السابق ـ ص 9.
12 ـ الزجل في المغرب ـ القصيدة. الدكتور عباس الجراري ـ ص7.
13 ـ صفحات دراسية من القديم والحديث ـ ص 35/34. دار الثقافة/البيضاء 1976.

منهج الدكتور عباس الجراري : حول خطاب المقدمات

بشير القمري(*)

يندر أن نجد بين أساتذتنا ومرشدينا في الجامعة المغربية وسبل الحياة العامة من يستطيع أن يمثل خير تمثيل ما يمثله الأستاذ الدكتور عباس الجراري من رمزية علمية أكاديمية ثقافية فكرية ومعرفية على مستوى الدرس النقدي الذي يرتبط بالأدب والظاهرة الأدبية وربطهما بالإشكالات والقضايا النظرية والمنهجية، بل التنظيرية، فوق ذلك، عندما يتعلق الأمر بالنسقية والمفاهيم التي تمس الأدب والظاهرة الأدبية في المغرب بشتى أبعادهما قديما وحديثا وعلى مستوى ما هو معاصر وراهن منهما-فيهما، ثم على مستوى ما هو شعري ونثري، لغوي-أسلوبي وفني-جمالي، خاصة عندما نفكر في هذا الأدب وهذه الظاهرة الأدبية من منظور تاريخ الأدب الذي لا يريده أستاذنا جامدا جافا أو منغلقا على نفسه كمنهج استعراضي تقليدي لا يتجاوز الوصف التقني ويؤكد، في جل آرائه وأفكاره واقتراحاته، على اعتباره تاريخا ثقافيا ـ تعبيريا بالأساس كما تكشف عن ذلك جملة أعماله وإنجازاته القيمة منذ بحثه الرائد «القصيدة : الزجل في المغرب» (1970)، وكذلك الشأن عندما نفكر، من جهة موازية، في المناهج النقدية-التحليلية

---

* أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

التي يقترحها ضمن هذا الأفق الثقافي-التعبيري، ونفكر في نفس الوقت في الوسائل والأدوات والمفاهيم والتصورات التي يتوسل بها ويرسخها من داخل استراتيجية تاريخ الأدب ذاته، وهو المسار النظري المنهجي الأساس الذي تحكم دونما عقدية مفرطة في مسار تراكماته وجعله ينصت باستمرار إلى إيقاع المنهج وأسئلته وقضاياه وينصت في نفس الآن إلى ضرورة منح الأدب والظاهرة الأدبية ما يستحقانه من سلطة فاعلة في مسارات المنهج وضرورة منح النص الأدبي حريته في التمظهر والتمفصل والتشخيص.

وإذا كانت أبحاث أستاذنا عباس الجراري ودراساته وكتبه ومصنفاته تشكل، في هذا الباب، متنا نموذجيا شديد الخصوبة والتنوع على امتداد ما يقارب أربعة عقود من العمل الجاد والمثمر الصارم للكشف عن القناعة المشار إليها أعلاه، من جانب ثان، تقدم مجالا خصبا للتفكير والمساءلة بصدد اللغة الواصفة التي تكمن في ثنايا الخطاب النقدي لديه واستعادة الأسئلة النسقية التي تحكمت في صياغة مشروعه بأكمله، على أن أبرز مكون في حصيلة أعمال الدكتور عباس الجراري هو مكون السياق الثقافي الذي جعله ـ يجعله دائما وغير مرة يلح على ضرورة الإهتمام والعناية والاحتفاء، نظريا ومنهجيا، بهوية الانتاج المغربي وترهينه وجعله معاصرا لنا باستمرار.

لن نتمكن من الخوض في كل عناصر هذه الخلفية لما تتطلبه من حفريات وغوص عميق في كل المتن الجراري، وهو ما لا نملك القدرة كل القدرة على المغامرة فيه بالنظر إلى اتساعه وشساعته وصلابته وتنوعه وغناه وخصوبته، ونفضل أن نختار مظهرا من مظاهر اشتغال هذا المتن المترامي الأطراف لعلنا نستفيد من

تجربة أستاذنا في هذا الباب ونعي درسه جيدا في الممارسة النظرية والمنهجية وفي بناء النسق،إننا سنختار خطاب المقدمات باعتباره خطابا مركزيا في هذا البناء، وباعتباره، من حيث النمذجة، خطابا نقديا لا يقل قيمة عن سيرورة المتن في التأسيس والتكون، إلى جانب كونه نصا نظريا موازيا ومتعاليا على مستوى العلاقة ـ العلائق التي يراهن عليها وهو يشكل ويبحث عن قارئه متلقيه لأهداف كثيرة ومتعددة. وسننطلق لتشخيص ذلك من عدة نماذج وأمثلة هي على التوالي :

نموذج ـ مثال مقدمة كتاب «من وحي التراث»، م. الأمنية، الرباط، 1971، ص 3، ص 8.

نموذج ـ مثال تمهيد كتاب «موشحات مغربية. دراسة ونصوص»، م. دار النشر المغربية، البيضاء، 1973، ط : 1، ص 7، ص 8.

نموذج ـ مثال مدخل أو تصدير كتاب «من أدب الدعوة الإسلامية»، م. دار الثقافة، البيضاء، 1974، ص 3.

نموذج ـ مثال تصدير كتاب «قضية فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان»، م. فضالة، المحمدية، 1.975، ص 2.

نموذج ـ مثال تصدير كتاب «ثقافة الصحراء»، م. دار الثقافة، البيضاء، 1976، ص 3 ـ ص 5.

نموذج ـ مثال تصدير كتاب «خطاب المنهج» بطبعتيه (الأولى م. السفير، مكناس، 1990، ص 3، الثانية، م. الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، 1.995، ص3).

إن أول ملحوظة يمكن تسجيلها في إطار مفهمة خطاب المقدمات، في تجربة أستاذنا عباس الجراري، هي كون مفهوم المقدمة ذاته يتغير من كتاب إلى كتاب

لاحق، فهذا لا يعني أن أستاذنا يتنازل عن سلطته المعرفية قطعا، بقدرما يعني إدراك الوظيفة التي يقوم بها خطاب المقدمات في توجيه دفة الكتاب ـ المؤلف وبرمجة القراءة وأفق التلقي واستيعاب الأطروحة الثاوية في ثنايا هذا الخطاب الذي تتعدد مناحيه بتعدد استراتيجياته، الظاهرة والخفية، في التواصل وإدراك مستويات هذا التواصل في كل لحظة وعلى امتداد حياة النص واختراقه للعبر نصية بعد ذلك كأساس للتعاقد مع المتلقي وتحيين كل مواثيق التلقي ـ القراءة، مع العلم أن مفهوم «المقدمة أو «التمهيد» لن يغيب في مؤلفات الأستاذ عباس الجراري، بل سيعود مرة أخرى لاقتحام فضاء النص ـ فضاء القراءة كما يعبر عن ذلك كتاب «الثقافة من الهوية إلى الحوار» (1993، ص7) أو كتاب «المسؤولية في الإسلام» (1996، ص3) ويصبح «تقديما» في كتاب «مفهوم التعايش في الإسلام» (1996، ص 5)، وسواء غاب هذا التأشير المقدماتي لفظا وتعبيرا أو انسحب لصالح تأشير آخر، فإن هذا ليس مرده الإغفال أو التنازل عن الإستراتيجية المعرفية، وإنما يعود في الأصل إلى منهج الجراري في الاقتراح والتفاعل والتفعيل من كتاب ـ مصنف إلى سواه، كما يعود إلى الأدوار التي تضعها على عاتقها الأمانة العلمية والتعليمية والفكرية التي يعتبر فيها أستاذنا نموذجا يحتذى وقدوة يعز نظيرها، ويكفي أن نعود إلى كتاب «من وحي التراث» لنهتدي إلى ذلك.

يستند هذا الكتاب إلى جملة من تقاليد وأعراف الكتابة النقدية والتأليف إذ يجعل من «المقدمة» نصا موازيا (مناصا) يؤسس ميثاق القراءة والتلقي بشكل تدريجي في خلق أفق الانتظار الضمني والمحايث، فهو يعلن أنه «مباحث قصيرة» و«تدور كلها حول موضوع شغل الفكر العربي منذ سنوات غير قليلة ولا يزال (ص3)».

ولا يفوته أن يعلن أيضا أنه موضوع «بدأ يشغل الفكر المغربي في هذه الأيام، وإن لم ينظر إليه البعض بما يقتضي من جد وتبصر ليحسم فيه ويتخذ منه موقفا واضحا ونهائيا، وأعني به موضوع التراث» (نفس الصفحة). وإذا نحن تركنا جانبا إلى حين، مظهر التجنس بالنسبة إلى متن هذا الكتاب ـ «مباحث قصيرة»، فإن «تمهيد» الكتاب الثاني «موشحات مغربية» يؤشر على انقلاب الاستراتيجية النقدية من داخل مظهر التجنس ذاته : «أصل هذه الدراسة بحث كنت نشرته عن الموشحات ـ يقول التمهيد ـ منذ أزيد من عشر سنوات» (ص7)، وبين أفق «المباحث القصيرة» وأفق «الدراسة» كمظهر من مظاهر اشتغال خطاب المقدمات، نستعيد أفقا آخر في التجنس الضمني هو كون مباحث «من وحي التراث» في أصلها «أحاديث» ألقاها أستاذنا «في الإذاعة حول آفاق التراث الشعبي» (ص 3) وكون «الدراسة» في «موشحات...» في أصلها «مقالات» (هامش ص 7)، وهو بهذا تجنس ميتا-نقدي يؤكد انخراط أستاذنا عباس الجراري، بعد بحثه في «القصيدة»، في الحياة الثقافية المغربية في مرحلة التأسيس بعد الاستقلال وعودته إلى المغرب ليتحمل مسؤولية التعليم ومسؤوليات أخرى، كما يؤكد قدرته على التكيف مع الأحداث وتعبيره عن الراهن وتحيين ثقافته الأكاديمية العالمة لخدمة الوسط الثقافي الفني والفكري معا وانسلاخه عن صورة المثقف العامية، دون أن ننسى الجانب الآخر في هذه الاستراتيجية، ونعني بذلك القناعة الذاتية في ضرورة الإنخراط في هذه الحياة الثقافية لخدمة الوطن بوعي نضالي مستميت وبالتزام مكثف كما تعبر عن ذلك مقدمة «من وحي التراث» ذاتها. يقول الأستاذ عباس الجراري : «وقد حفزني إلى جمعها في كتاب إلحاح كثير من الإخوان [...]، وكذلك رغبتي في أن ألفت النظر إلى أهمية الموضوع وخطورته»(ص3)، وبين هذا المنحى

وذاك تتعدد مستويات تفكيك خطاب المقدمات في تجربة أستاذنا المنهجية والنقدية كما تتعدد استراتيجيات التلقي المعرفي الثقافي والنقدي، فإذا كنا في الكتاب الأول نحس بأن الأمر لا يقف عند حدود التقديم فحسب بل يتجاوزه إلى حدود أخرى سنوضحها بعد حين، فإن الكتاب الثاني يضع نصب عينيه مسألة التأكيد على الالتزام بأفق الدراسة التي تقتضي الجمع بين التنظير والممارسة، أي النظر في نصوص الموشحات ومراعاة منظومة مفاهيم هذه الدراسة من «تعريف» و«شكل» و«موضوعات» و«نشأة»، بينما يتجه خطاب مقدمة الكتاب الأول إلى أفق الأشكلة :

(ص4)، «من وحي التراث» :

«إننا نعيش في صراع حضاري ونزاع ثقافي نعاين في خضمهما من ازدواجية تمس جميع الميادين وعلى مختلف المستويات، ومنها التراث الذي نبدو فيه موزعين بين تراثنا والتراث الغربي، وغير قادرين على تحديد موقفنا من كلا التيارين، أو تحقيق الوحدة بينهما، لأننا لم نهضم لا هذا ولا ذاك، ولأننا مجرد مقلدين...».

«والسبب أننا نعاني أزمة توتر نحن فيها مفصولون عن جذورنا، ومجردون من القدرة على التجاوب، سواء مع ما عندنا أو عند الآخرين».

«ومع ذلك فقد تكون هذه الأزمة نفسها دليل حركة حيوية ومقياس تطلع إيجابي إذا هي أفضت في النهاية إلى العمل الثوري البناء وليس إلى مجرد الرفض والتمرد».

«إن النظر في التراث لا يعني أن ننغلق على أنفسنا، ونغمض أعيننا، وننصاع إلى الماضي والقدر، وللتبعية والتقليد، ونثبت جامدين حيث نحن».

(ص 5)، نفسه.

«وينبغي، حين نتحدث عن التراث، ألا نفعل ذلك على اعتبار أن هذا التراث كامل ومقدس لا يمكن مناقشته، بل على أساس من المنهجية العلمية القائمة على التحليل والنقد، بقصد البحث عن الجانب القابل للتطور والتكيف مع الواقع لتغيير بنياته، وبهدف فتح آفاق للمستقبل وبث الأمل في النفوس».

إن الناظر في هذه المقاطع وسواها من مقدمة كتاب «من وحي التراث» سيكتشف في شخص أستاذنا عباس الجراري معلمة أثيلة من معالم الطريق التي قطعها الوعي الوطني بمسألة التراث بعد الاستقلال، ويكشف، في نفس الوقت، غلبة الروح العلمية في تصورها إذ يقترن أفق الأشكلة ثقافيا بأفق الأشكلة المنهجية، أي التحليل والنقد، على أن هذه الروح التي تمسك بها أستاذنا ولا يزال متمسكا بها لم تغيب فيه روح النقد الذاتي أولا على مستوى الموقف، وهي الروح التي دفعته في كتاب «موشحات مغربية» إلى الاعتراف بالخطأ والتراجع عنه بالنسبة إلى ما صدر عنه من حكم سلبي في حق الانتاج المغربي (ص7).

هكذا تتضح بالتدريج، ومن خلال خطاب المقدمات في المتن الجراري، صورة رجل وطني ينذر نفسه لخدمة استراتيجية وتأسيس خطاب لم يكن معهودا في حينه إذ تشترك في تأطيره عدة حوافز وقناعات وتطلعات ومرام وأهداف، وإذا كانت مقدمة «من وحي التراث» تعتبر بمثابة «بيان» أو «أرضية ثقافية» إن لم تكن «برنامج عمل» بالنظر إلى عمقها ودقتها وإحاطتها، فإن ما يأتي به تصدير الكتاب الثالث حول «الأمير الشاعر أبي الربيع» يرسخ مبدأ الاشتغال ضمن حدود منهجية واضحة المعالم تجمع بين الدراسة البيوغرافية وتجتهد وتجدد في فحوى المنهج وطرائقه وأدواته. ومن خلال هذا التصدير يتحول منزع الدراسة، كما عبر عن ذلك

أفق «موشحات...»، إلى استراتيجية مفاهيمية : «التيارات»، «الاتجاهات» (ص5)، «التفسير النفسي»، «التفسير الاجتماعي»، «التفسير التاريخي»، «الصورة النفسية»، «المضامين»، «الخصائص (ص 6) : إنه ميثاق منهجي يبلور من خلاله الأستاذ عباس الجراري رؤيته للمنهج التاريخي الدينامي في الإمساك بالظاهرة الأدبية وتحويلها إلى مادة للتأطير المعرفي النسقي، ولا ينسى أستاذنا أن يؤكد، قبل هذا وذلك، على طرف المتلقي في كل لحظة يتأسس فيها خطاب المقدمات ويسطر أفقه التلقي والاستشكال، هذا المتلقي الذي لم يعد هو المثقف الوطني الملتزم فقط، كما نجد في «من وحي التراث»، بالمعنى المحدد، بل أيضا المتلقي ـ الباحث في الجامعة المغربية الفتية، ومن ثم ترتبط مهام المثقف بمهام الباحث الدارس المختص الذي يؤشر عليه خطاب مقدمات جل كتابات الأستاذ عباس الجراري المذكورة وغير المذكورة في هذه المقاربة الجزئية التي نقترحها لمحاولة تشخيص بعض عناصر المنهج في تجربته :

«فعسى الدارسون والطلاب أن يجدوا في هذا العمل نواة ينمونها بمزيد من البحث والدرس وعسى هذه النواة أن تفتح لهم نافذة يطلعون من خلالها على صفحة من الأدب المغربي كانت مطوية ومجهولة» ص 8، «موشحات مغربية».

«وإني إذ أضع هذا البحث التمهيدي أمام الطلاب والدارسين، آمل أن تتاح لي قريبا فرصة إخراج الديوان الذي مايزال في حاجة إلى نشر علمي محقق» ص6، «الأمير الشاعر...»

«فلعل الطلاب والباحثين أن يتأملوا فقرات هذا الخطاب، وهي غير مجهولة لدى الذين يتابعون مسيرة تلك التجربة، عساهم أن يجدوا فيها بعض الإجابة عما يشغلهم من أسئلة شائكة حول المنهج» ص 3، «خطاب المنهج»، ط 1.

«وإذا كثر طلب الباحثين المتطلعين إلى الكتاب بعد أن ذاع خبر نشره، في وقت بقي مصيره مجهولا عندي [..] فقد ارتأيت إصداره في طبعة ثانية». ص 3، خطاب المنهج»، ط 2.

«[...] وهي كلها تتناول إشكالية الثقافة من زاوية الهوية والحوار، ومن خلال رؤية أطمع في أن أقنع بها القارئ الكريم بقدرما آمل أن أحثه على النظر الجاد فيها والتأمل الموضوعي فيما تبسطه» ص 8، «الثقافة في الهوية إلى الحوار».

إن التأكيد المستمر لدى أستاذنا على استراتيجية التلقي، من خلال خطاب المقدمات، نزعة علمية أصيلة ترسخ لدينا، كباحثين ومهتمين، مبدأ الإحساس الدفين أنه لا يتقعد الكتابة لمجرد الكتابة ولا يأبه إلى التأليف لمجرد التأليف، وإنما ينطلق من كون البحث والدراسة يتطلبان الجمع بين عدة استراتيجيات تلغي الحدود المصطنعة بين «خطاب النخبة»، و«خطاب الذات المجتمعية» دون سقوط في فخ الشعبوية والإختزال أو احتقار المتلقي. من ثم يشخص خطاب المقدمات في تجربة الأستاذ عباس الجراري عدة وظائف واستراتيجيات منها الوظيفة والاستراتيجية العلمية-النظرية والوظيفة التعليمية المنهجية التي تضلع على بعض كتبه صفة «الدليل» (Le guide) أو «الوجيز» (Manuel) في لغة المصنفات الموجهة عن قصد إلى المهتمين بهذا الحقل أو ذاك من حقول الدراسات في مجال الأدب والنقد والمناهج والعلوم الإنسانية، وليست هاتان الوظيفتان الاستراتيجيتان وحدهما اللتين تتحققان في هذه التجربة الرائدة الغنية بل تضاف إليهما الوظيفة الثقافية التي يتسلح فيها أستاذنا عباس الجراري بوعي أصيل يمتد عبر قنوات معرفية وفكرية متنوعة مشدودا إلى وطنية مثالية أصيلة بدورها وإلى تبحر واسع في مجال التصورات والمفاهيم والقضايا والإشكالات التي تتجاوز حدود

الأدب- الظاهرة الأدبية والثقافة إلى الدين والعقيدة والمجتمع والإيديولوجيا، ويكفي أن نراجع بقية متنه في هذا الباب لنكتشف في شخصه العلامة والفقيه والمحدث الذي يعي عروبته جيدا ويعي الإسلام بتفتح وغيرة واجتهاد كبير.

لقد اخترق أستاذناعباس الجراري، من خلال خطاب مقدماته عامة، ومن خلال منهجه ضمنيا، عدة إبدالات وابتكر خصوصيته في المشهد العلمي الجامعي، ويستحق، بهذه المناسبة، أن ينظر إليه نظرتنا إلى شيوخ الأدب في العالم العربي وإلى أساتذة الجيل الذين زرعوافينا محبة الأدب المغربي وعشق الهوية، بقدر مازرعوا فينا روح التجديد والتطوير في مقاربة الأدب والظاهرة الأدبية، يحق لنا أن نفخر به ونفتخر بما قدمه، بل نجد أنفسنا ملزمين بالسير على هديه ونموذجه في المساءلة والتفكير وفي تأسيس النسق بكل اعتمالاته واحتمالاته وممكناته وليكن برنامجه في تصدير كتابه «عبقرية اليوسي» (دار الثقافة، البيضاء، 1981، ص 7 ـ ص 11) بما احتواه من ميثاق سير ذاتي نبراسا لنا في مسيرته ومسيراتنا العلمية، هنا والآن، اليوم وغدا، لعلنا نوفيه حقه في الاعتراف له بما زرعه ويزرعه فينا من روح المغامرة العلمية المأمولة والمأمونة في الآن نفسه. وشكرا لأستاذنا عباس الجراري الذي أتاح لنا فرصة الاستفادة من علمه وفكره وثقافته الموسوعية الواسعة.

* * *

أهنيك يا شيخي

اليزيد الراضي(*)

دعيتُ إلى التنويه في قالب الشعر ... بمن قدره أسمى من الشعر والنثر
دعاني إليه ما أُكِنُّ بمهجتي ... من الحب والتقدير للسادة الغر
دعاني إليه ما أحب من الوفا ... لأهل العلا : أهل النباهة والقَدْر
بأي معان أم بأي عبارة ... أنوِّه بالأبطال في ساحة الفكر
ولا سيما شيخا جليلا أحبه ... وأَقْدُره في مهجتي أيما قَدْر
وذلك أستاذي الجِرَارِيُّ من له ... عليَّ أيادٍ لا تعدد بالحصر
فأي قريض أرتضيه لمثله ... وسَاماً يروق إن تلألأ في الصدر
وأي بيان تنتقيه يراعتي ... وقد كان في أفْق البلاغة كالبدر
عجزت عن إيفاء الجراريِّ حقه ... من الوصف والتقدير والمدح والشكر
فذي قمة شماء ليس لوصفها ... سبيل وما أبديه غَرْفٌ من البحر
علا ذروة الأمجاد منذ شبابه ... وحلَّق في جو الفضائل كالصقر
غَذاه لِبَانَ العلم والدُه الذي ... يعد بحق زينة العصر والقُطر
تعهَّده بالصقل طفلا ويافعا ... وأغراه بالعلياء إغراء ذي خُبْر
فكان ذكيا نابغا متفوقا ... طموحا مُجِدا لا يمل من السَّير
رأته العُلا شهما فخصَّته بالهوى ... وَزُفَّت إليه دون ريثٍ ولا صبر

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.

دعــتــه إلى العليــاء نفسٌ أبيَّــةٌ عــصــامــيــة ترنو إلى المنزل الوعْــر
فلبَّى النّدا وارتاح للجِــد واهتــدى إلى الدرب لا يلوي على سَنَن الخُسْـر
ونـال من الآمــــال كل مـــــراده وحـقق مـا يصـبـو إليـه من الخـيـر
تضلَّع في علم الشــريعــة مــثلمـا تضـلَّع من الآداب والضــــاد والفكر
وأصــبح في تكوينه مــتــمــيــزا خـبـيـرا بأسـرار الثـقـافـة والعـصـر
أطل على كل المجــالات قــاطفــا بذوق رفــيـع مــــا يروق من الزَّهْر
طمى بحــرُه واشــتـاق للبــذل والعطا فلم يَأْلُ جُــهـدا في الكتــابة والنشــر
تـآليــفــه أضــحت نماذج تحــتــذى يقـاس عليـها في الصـيـاغـة والأسـر
تميَّــز بالتــوثيق والعــمق في الرؤى وَغَـوْصٍ لدى التـحليل والنقـد للقـعـر
تحـرَّى وضـوح القـصـد فـيمـا يخطه فــخلَّص مـا يعطي من الدخن المزري
تحكم في المنهـــاج وعــيــاً بدوره وأتقن مــا يبني بعــيــدا عن الحــزر
دعــتــه نوادي العلم فـي كل بلدة فـألقى على الأسـمـاع مـا صـاغ من دُرٍّ
تصــدَّر للتــدريس في كل مــعــهــد فكان مـــثـــال العــالم النيِّــر الفِكر
أتاه غُــفــاة العلم بحــثــا عن الروى فـــأرواهـم من ورْده الشَّــبِم الثَّــرِّ
طريقـتـه في الدرس مُـثلى مـفـيـدة تُبلِّـغ مــا يلقــيــه بالرِّفق واليُــســر
دعــــــاه تـراث ظَلَّ يـنـدب حـظـه ويرفض مـا يلقى من الصَّـدِّ والهـجـر
فـــهب إلى إنقـــاذه مــتـــحليـــا بكل صـفـات البـاحث اليـقظ الحـر
وفك وثاقــا أحكم الجــهل عَــقْــده وأنقـــذه مما يعــاني من الأســر
وأظهــره للبـــاحـــثين ليــدركــوا بأن بنى «الأقصى» أفادوا مدى الدهر
وأضــــحـى لآداب المغـــاربـة الألى أجـادوا عـمـيـدا دون زيد ولا عـمـرو
ووجـــه للإشــــراف هِمَّـــة عـــالِم غـيـور على الأبحـاث في المغـرب الحُـر

فـأم حـمـاه الرحب جـيش عـرمـرم وقـد سـمـعـوا عن فـضله أطيب الذِّكْـر
وألفـوا مـعين العلم والخُلْق صـافـيـا وشـامـوا من الإحسان مـا عـز في الغير
وَوُفِّقَ في تكوين جـيل مُـمـيَّـزٍ له عـادة الإتقـان في كل مـا يَبْـري
له خُلُق أحلى من الشـهـد طعـمـه وأطيب نشرا من شذا العنبر الشحري
ومـا عكست أحـواله طول عـمـره سوى الصدق والإخلاص والود والبشْر
تواضـع للرحـمـان جل جـلاله فـفـاز من الرحـمن بالرفع والأجـر
ومـا العلم إلا مـا أفـاد تواضـعـا ولطفـا وحِلْمـا وابتـعـادا عن الكِبـر
ومـا العلم دون الخُلْق إلا نقـيـصـة يرى المرء نورا ثم يُحـرق كـالجـمـر
وأجـيـالنا تحـتـاج للخُلُق الرِّضـا لتنبت في درب المغـانم والنصـر
أيا شـيـخيَ المفـضـالَ عـذرا إذا بدا قـريضي لا يرقى إلى مـستوى الشـعـر
فـإن فـقـد التـعـبـيـر سـحـرا وروعـة ففي الصدق ما يغنيه عن نفثة السِّحر
ومـا مَلَكتْ نفـسي وربُّك شـاهـد سوى الود والإخلاص في السر والجهر
خـتـمت بحـمـد الله سـتين حِـجَّـة مـضت كلها في العلم والنسك والطهر
وخـيـرُ عـبـاد الله من طال عـمـره ووفَّـقـه الرحـمـان للخـيـر والبِـرِّ
أهـنيك بالـعـمـر المديد وأرتجي لك النُّجْح والتيسير في كل ما أَمْـر
أهنيك يا شـيـخي بكل فـضـيلة خُصِصْتَ بها فضلا من الواهب البَرِّ
تقـبَّل شـعـور القلب فـهـو هديتي فـإن قَلَّ مـا أُهديه فـهـو على قـدري
وخـذ هذه الأبيـات مني تحـيـة مـعطرة مـحـمـودة الطَيِّ والنَّشْـرِ

* * *

إلى عباس الجراري
وما أنا بالمدرك شعرا ...

الدكتور مصطفى الشليح

-1-

... وأنا الهارب من مدائن الكلام، المغرب في أقاليم مراودة الكلام، العابر المعرب عن المسافة بين الحديقة والغمام، أنا المشدوه من عبث العبارة بي وبلون الحروف، وبأصوات الحمام، ومن عبثي بالعبارة عند انسجام البيان جداول من كلام.

رقرقْ ما تشاء، واندفق، متى تشاء، وخذ عمري هودجا لأسرار النثار والنظام. خذني إليك ما انطرب المعنى، وما اكتب الزمان في عيون المرام. خذني موجة، والبحر التطام البيان بالبيان، وانكتب زبدا أو مددا في محار انكتابي، بالماء، وشمة، أو نغمة، أو جلنار إلمام وانبهام.

خذني أنا الهارب في سفائن الكلام. خذني مني إلي شرودا في المرايا وصعودا إلى حكايا المؤجل من شعري، ومن عمري، ومن المبعثر في الزوايا من سؤالي إبرة الوقت رفوا لتلك الحكايا.

أنا الذي آنست نارا، ونعلي خلعت، مقبلا ذا الجدار وذا الجدار. أنا الأدنى إلى الصعق من العشاق إلى الشوق. إذا هم بي خاطر أو هممت به استبقنا، وغلقت أبواب، وقيل: ثم علت أكواب، فإذا العشق دافق لا يجارى. سوف أعقل من

سراب الكلام هدهدا حتى لا يطير كلاما من سراب، وسوف أغوي أسراب الحمام، بما تبقى، لي، من عنفوان المدام، كي لا تصير سجعا أو دمعا من رخام.

-2-

أنا لست بالمالك سرا، ولا بالمدرك شعرا يأتي قافية إكبار كلما أزمعت مقالا عن عباس الجراري، إذا دفعت، باليسرى، وزنا يسري في دمي عاجلني، باليمنى، مغنى من القوافي الجواري، وأقبل مني، المقال شعري المعنى، ومائي الوجه واليد والإطار.

ما تنبض به الذات فيض لا يغيض، وروض أريض، وما فوق النثير والقريض. وإن ما يرفض عنه الصدر من تهدج، كأنه العمر، لا توفيه عبارة، ولا تطويه ستارة، بساتين من جلال الروح أدخلها كلما جمعت أمرا وخضت عنه حديثا، وحدائق من روح وريحان أغازلها إذا نزعت، عني، من القول ابلاسا، ورضت شموسه، وابتدرت شموسه أسألها وضاءة ولباسا، فتسألني مشكاة هي العباس اقتباسا.

-3-

وتسألني، سيدي، عن غموض ومن رفها ما ضمه الخاطر

أرى في انتباه العيون كلاما حييا، وما منطقي عاثر

ومن همسات الحضور أراني كأني، في عبقر، طائر

ولكن تملكني بعض زهو قوافيه، والمطلق السافر

كأني امتداد قصيدي، كأني وشهقتها، والندى الشاعر

كأني انشداه التآويل رؤيا سؤالك، أنت السنا الزاهر

أتسائلني سيدي ؟ لا عدمت ... بناديك، والكل لي ناظر

وأنت عماد المريدين صدقا ... وصوت بمكرمة، جاهر

وبين يديك بياني حمام ... يجنحه عطفك الهامر

ويغضي عن العثرات حليما ... فأنت لكسر، عرا، جابر

فماذا أقول عن المبهمات ... وطارحها عالم شاعر

ألا إن سر الجمال غموض ... وما ليس يدركه الناظر

-4-

منارة نبل وفضل شامخة، كالنجوم الزهر، هذي التي ينساق الكلام إليها، ومأثرة، بالمعلوات البيض، باذخة، في عيون الفخر، هذي التي تشرق العبارة منها، ومجرة علم وحلم راسخة، كالمعاني الغر، هذي التي أشرف بالحديث عنها، معلمة، هو عباس الجراري، نائرة ذات عهاد، وسائرة الصوت في البلاد، وطائرة الصيت في كل محفل وناد.

-5-

باد علاك عميد الدارسين على ... مر العصور وما يأتي من الحقب

أهديت للمغرب الأقصى لوامعه ... من التراث، ومن طلابك النجب

لولاك ما انبلجت، وضاءة، سبل **-6-** وما تخرجت الأفواج كالشهب

وما استفاق تراث من مراقده ... وما انبرى أدب من قبضة الحجب

وما استبانت قضايا من ظواهرها ... وما استقرت عطاء شع كالذهب

وما تجلى خطاب قيد منهجه ... بالبارقات من التوجيه والهذب

بل ما تبدى نبوغ مغرب عجبا ... من مغرب بالغ الإعجاز في العجب

هـي الذكـرى

ندانيها فراشا حائما شعـرا

ومشتل عطرها يثغو، هنا وهناك، بشرا

سرها من ربهــا

أملود نور ينفث السـحــرا

يشف الستر عن غرر المعالي

كلما باحت أزهارهـا

الغوالي بالعبير من الجـلال

يضيىء نـوْرا

كلما العباس مد يدا

إلى درر الجمال يزينها بـدرا

هـي الذكـرى

ونـحن شموعها الستون رائعـة

وأنت سناؤها الاسنى

علاء مشـمـخــرا

دمت فينا بسمـة

وأدام ربي نعمة غـرا

بجاه محمد

وأطال عمرا

* * *


الدكتور عباس الجراري مع خير جليس

زهرة الآس في فضائل العباس

لعلنا بهذا العمل نكون قد أدينا بعض ما علينا تجاه أستاذنا الجليل عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري...

ويكفيه فخراً أنه أسرج لأجيال متلاحقة من الباحثين طريقا أصبح بفضل جهوده لاحبا، وأنبت جناحنا وكان قد حُص... وكان أدبنا «الأقصى»، فغدا قطوفا دانية، بحدبه وإيمانه العميق بتراثنا وهويتنا الأثيلة.